إثبات نبوة النبي

ﷺ

لأبي الحسن أحمد بن الحسين بن هرون الهاروني اليزيدي

(٣٣٣ هـ - ٤١١هـ)

(مخطوط يبحث في علم الكلام وعلم مقارنة الأديان)

أنور محمود زناتي **محمد غالب علي بركات**

جامعة عين شمس

إهداء

إلى النبي محمد صلى الله عليه وسلم

أعظم من أن يصفه إنسان

أو يعبر عن عظمته بشر

مقدمة التحقيق

الحمد لله العلي شأنه ، الجلي برهانه ، القوي سلطانه ، الحمد لله الذي خلق الإنسان علمه البيان ، وخلق له السمع والبصر والقوي والجوارح والبنان وشـَّـرفه بمعرفته وأهَّله لخدمته ، وفضَّله علي سائر الحيوان ، واختصه بـالنهي والأمـر ، والوزر والأجر ، والطاعة والعصيان ، ومنحه الحلم والحزم ، والفكـر والفهـم ، والذكر والعلم ، وأهله للنظر والاستدلال ، والارتقاء في مدارج الكمال ، الحمد لله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن بكمال قدرته ، وجعل الأمـر يتنـزل بينهن ببالغ حكمته ، واحد أحد فرد صمد منزه عن الأشـباه والأمثـال ، متـصف بصفات الجلال ، أزلي ، أبدي ، توحد بالقدم والبقاء ، وقضى على ما عداه بالعدم والفناء ، قدر الأرزاق والآجال في الأزل ، ثم بعث إليهم الأنبياء والرسل ، مصدقاً لهم بالمعجزات الظاهرة ، والآيات الباهرة ، ليدعوهم إلـى تنزيهـه وتوحيـه ، ويأمرهم بمعرفته وتعظيمه وتمجيده ، ويبلغوا أحكامه إلـيهم مبـشرين ومنـذرين بوعده ووعيده ، فأقام بهم الحجة ، وأوضح المحجة .

ثم ختمهم بأجلهم قدراً ، وأتمهم بدراً ، وأشرفهم نسباً ، وأزكاهم مغرساً ، وأطيبهم منبتاً ، وأكرمهم محتداً ، وأقومهم ديناً ، وأوسطهم ملة : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم – صلى الله عليه وسلم – وأنزل معه كتاباً عربياً مبيناً ، فأكمـل لعباده دينهم ، وأتم عليهم نعمته ، ورضي لهم الإسلام ديناً .

سبحانه من إله خلق فسوي وقدر فهدي وأمـات وأحيـا ، وأعطـي ومنـع وخفض ورفع وأتم الدين وأعلن البرهان.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ولا ضد له ولا ند له ولا وزيـر ولا مشير ولا أعوان، بل هو الواحد الأحد الفرد الصمد المنزه عن الصاحبة والولد فهو القادر المقتدر الحكيم الديان تعالي وتقدس عن كل مبطل كذاب ومشرك يعـدل به غيره من الآلهة المخلوقين والأرباب المكذوبين﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَـانَ**

مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذاً لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.(١)

سبحانه وتعالي هو القائل: ﴿ الذين يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾. (٢)

وهو القائل:﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾.(٣)

وأشهد أن محمداً(٤) عبده ورسوله وصفوته من خلقه وخيرته من بريته وأمينه علي وحيه وسفيره بينه وبين عباده، ابتعثه الله بخير ملة وأحسن شرعة وأظهر دلالة وأوضح حجة وأبين برهان إلي جميع العالمين، إنسهم وجنهم، عربهم وعجمهم، حاضرهم وباديهم، الذي بشرت به الكتب السالفة وأخبرت به الرسل الماضية، وجري ذكره في الأعصار في القرى والأمصار والأمم الخالية .. ضربت لنبوته البشائر من عهد آدم أبي البشر إلي عهد المسيح بن البشر.

إن الله سبحانه وتعالي أرسل الرسل ليخرجوا الناس من الظلمات إلي النور، ويهديهم إلي سبل الرشاد، وأنزل معهم الكتب، وأمرهم أن يعملوا بها، وأن يعلموا قومهم ليعملوا بمثل عملهم، وقد أورد الله تعالي في كتابه الكريم قصص الأنبياء، وبين مواضع العظة والعبرة من حياتهم، وقال تعالي:﴿ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾. (٥)

---

١ - المؤمنون: ٩١-٩٢

٢ - الأعراف ١٥٧

٣ - البقرة ١٤٦

٤ -هو خاتم الأنبياء والمرسلين: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب الهاشمي القرشي، ينتهي نسبه إلي إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام، ولد في مكة عام الفيل سنة ٥٣ ق.هـ/٥٧٠م ، بُلغ بالنبوة سنة ١٣ق.هـ/٦١٠م ، وكان عمره ٤٠ سنة قمرية، وتوفي في ١٢ ربيع الأول سنة ١١هـ/٦٣٣م ، وكان عمره ٦٣سنة قمرية. (الأعلام ٦: ٢١٨)

٥ - الأنعام ٩٠

وقد عرّفنا رب العزة سبحانه أنه قد أيد الأنبياء والمرسلين بالآيات البينات والمعجزات الباهرات، فمن ذلك أن أيد نوحاً عليه السلام بالطوفان، وأيد صالحاً عليه السلام بالناقة، وأيد إبراهيم عليه السلام بالنار وكانت برداً وسلاماً، وأيد موسي عليه السلام بالعصا في تسع آيات مفصلات، وأيد داود[٦] عليه السلام فألان له الحديد وأيد سليمان عليه السلام بأن علمه منطق الطير وسخر له الجن وسخر له الريح، وأيد عيسي عليه السلام بأن أبرأ له الأكمه والأبرص، وأنه يخلق من الطين كهيئة الطير فتصير طيراً بإذن الله، وأن يحي الموتى بإذن الله، وأيد محمداً صلي الله عليه وسلم بمعجزات كثيرة منها القرآن الكريم.

فهل بقيت معجزة نبي من الأنبياء سوي القرآن الكريم؟؟ وذلك لأن الرسالة الخاتمة يناسبها المعجزة الباقية، وأن تكون المعجزة الباقية هي التي تحمل الهداية والإرشاد والبيان، فكانت معجزة القرآن الكريم باقية إلي أن تقوم الساعة.

لقد نقل القرطبي[٧] في تفسيره[٨] عن كعب الأحبار[٩] في صفة رسول الله صلي الله عليه وسلم ما نصه: "والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيرا، وحرزا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل. ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب في الأسواق ولا يدفع

---

٦ – داوُد أو داود أو داؤود : معناه "محبوب"، هو ثاني ملك على مملكة إسرائيل المتحدة (١٠١١ ق.م. – ٩٧١ ق.م.) وأحد أنبياء بني إسرائيل. ويُعتبر أحق وأنزه ملك من بين ملوك إسرائيل التاريخيين ، وهو صاحب مزامير داود الشهيرة

٧ – القرطبي (؟ ــ ٦٧١ هـ) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح . أندلسي من أهل قرطبة أنصاري . من كبار المفسرين . اشتهر بالصلاح والتعبد . رحل إلى المشرق واستقر بمنية ابن الخصيب (شمالي أسيوط ــ بمصر) وبها توفي . من تصانيفه : ((الجامع لأحكام القرآن)) ؛ و((التذكرة بأمور الآخرة)) ؛ و((لأنسى في شرح الأسماء الحسني)) [الديباج المذهب ص ٣١٧ ؛ والأعلام للزركلي ٢١٨/٦] .

٨ – تفسير القرطبي هو كتاب عظيم جمع تفسير القرآن كاملاً واسمه الكامل (الجامع لأحكام القرآن، والمبين لما تضمن من السنة وأحكام الفرقان). وهو تفسير جامع لآيات القرآن جميعًا ولكنه يركز بصورة شاملة على آيات الأحكام في القرآن الكريم . الكتاب من أفضل كُتب التفسير التي عُنيت بالأحكام .وهو فريد في بابه.

٩ – كعب بن ماتع الحميري، أبو إسحاق، أسلم في خلافة عمر، مخضرم كان من أهل اليمن، فسكن الشام، مات في آخر خلافة عثمان .

بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر. ولن يقبضه الله تعالي حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويفتح بها أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا".([10])

ولكن أين هذه الأوصاف من النصوص المقدسة، مثل توراة موسي وإنجيل عيسي عليه السلام؟ وأهل الكتاب من يهود ونصارى مقرون بوجود هذه البشارات، ومقرون بدلالتها علي النبي الخاتم، لكنهم يصرون علي أنه رجل من بني إسرائيل، حيث يزعم النصارى أنه عيسي عليه السلام، بينما ما زال اليهود ينتظرونه، ويري المسلمون أن هذا النبي المنتظر هو محمد صلي الله عليه وسلم.

وقد حوي الكتاب المقدس الكثير من النبوءات المبشرة بالنبي الخاتم، ومع ذلك نجد القمص مرقس عزيز خليل، كاهن الكنيسة المعلقة يقول:

(لقد احتفظ لنا الكتاب المقدس بين صفحاته بالعديد من النبوات وقد تحقق الجزء الأكبر منها والباقي في سبيله للتحقيق مثل علامات الساعة. فلو كان اسم رسول الإسلام قد ذكر بين صفحاته لما حذفه أحد بل كان يعتبره في هذه الحالة كنبوة وعند مجيئه تصير النبوة حقيقة ولكن الحقيقة كانت شيء آخر. حيث لم نجد بالكتاب المقدس أي إشارة أو تلميحاً عن رسول الإسلام وبذلك يكون هذا الادعاء بالتحريف ادعاءا باطلاً لا أساس له) ([11])

وهنا تتجلي آيات القرآن الكريم، حيث يقول الله تعالي: ﴿ **وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلاً قُلْ كَفَى بِاللّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ** ﴾ ([12])

ويقول القمص مرقس عزيز في نفس الكتاب: (هناك سؤال يطرح نفسه لماذا يسعى بعض الكتاب لإثبات نبوات عن رسول الإسلام من الكتاب المقدس في الوقت الذي يهاجمون فيه الكتاب المقدس ويتهمونه بالتحريف؟ ولماذا لم يتهموه بالتحريف في هذه الآيات التي يتصورون خطئاً أنها تشير إلي رسول الإسلام).([13])

---

١٠ – القرطبي في الأعراف ١٥٧

١١- مرقس عزيز خليل: استحالة تحريف الكتاب المقدس، صـ٣٣٥

١٢ – الرعد: ٤٣

١٣ – مرقس عزيز. ص ٣٤٠

ونحن نقول: إن تصريح القرآن بالتحريف هو في البعض وليس في الكـــل، لأن القرآن يقول:﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ** ﴾. (١٤)

فكلمة **نــــصيباً** نكرة تفيد أي قدر محدود من الكتاب، ولفظ **مـــن** للتبعـــيض، والمعني: أوتوا قدراً محدوداً من الكتاب وليس الكتاب كله.

ويقول تعالي:﴿ **وَمِنَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُواْ حَظّاً مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِ** ﴾.(١٥)

فلم يقل نسوا كل ما ذكرناهم به ، بل قال: **حظاً**، أي تركوا نــصيباً جـــزيلاً وقسطاً وافراً من كل ما ذكرناهم به. وهذا الجزء الصالح للاحتجاج به من التوراة والإنجيل محكوم بتصديق القرآن لهما ؛ لأن القرآن الكريم مهيمن علي مـــا ســـبق من كتب الأنبياء . وعلي ذلك فإن استشهادنا بالكتب السابقة ليس تزكية لها إنما هو بحث عن القليل من أثار النبوة في سطورها ، هذا القليل نؤمن به ولا نكذبـــه ، إذ هو مصدق لما بين أيدينا ، وقد قال صلي الله عليه وسلم: "لا تصدقوا أهل الكتـــاب ولا تكذبوهم". وقال صلي الله عليه وسلم مثبتاً وجود حق فـــي هـــذه الكتـــب: "لا تسألوهم عن شيء فيخبروكم بحق فتكذبوا به، أو بباطل فتصدقوا به".(١٦)

والله المستعان

المحققان ، ، ،

---

١٤ – آل عمران٢٣

١٥ – المائدة ١٤

١٦- رواه أحمد في المسند٣: ٣٨٧

تطلق الأسفار المقدسة على النبي القادم أسماء شتى ، فتسميه تارة الملك ، وأخرى النبي ، وتارة تلقبه المسيّا وأخرى المسيح ، بمعنى المخلص ، فكل هذه الأسماء مترادفات تدل على النبي القادم ، وهي في ذات الوقت أوصاف لهذا النبي العظيم . لكن يبقى تسميته بالمسيح أشهرها لما لهذا اللقب من أهمية عند بني إسرائيل.

وقد يتمسك بعضهم بأحقية عيسى عليه السلام بهذا الاسم من غيره ، حيث لقب به عليه الصلاة والسلام ، فنقول : إن تسمية عيسى(١٧) عليه السلام بالمسيح تسمية اصطلاحية ليست خاصة به ، حيث كان اليهود يسمون أنبياءهم وملوكهم، بل وملوك غيرهم بهذا الاسم ، لعادتهم في مسح ملوكهم وأنبيائهم بالزيت ، ثم استمروا في تسميتهم بالمسيح ، ولو لم يمسحوا.

وقد سمي كورش(١٨) ملك فارس مسيحاً " يقول الرب لمسيحه لكورش " (١٩) وكذا طالوت(٢٠) وداود كانا مسيحين "والصانع رحمة لمسيحه لداود"(٢١).

---

١٧ – هو عيسى بن مريم بنت عمران ، وُلد من غير أب في بلدة بيت لحم قرب بيت المقدس ، وكانت مخطوبة ليوسف النجار ، أرسل الله تعالى عيسى عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل ، وأنزل عليه الإنجيل ، فدعاهم إلى الرجوع لأحكام التوراة الصحيحة وعدم التلاعب بها ، وبشرهم بقرب ظهور خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم ، فآمن به قلة سمّوا بالحواريين ، وكفر به أكثر اليهود وحقدوا عليه لتبشيره بنبي آخر الزمان من غير بني إسرائيل ، فأنكروا نبوته ، واتهموا أمه بالفاحشة ، وتآمروا عليه فأغروا به الحاكم الروماني بيلاطس البنطي لقتله وصلبه ، فألقى الله شبهه على يهوذا الاسخريوطي الذي دلهم على مكانه فصلبوه ، ورفع الله عيسى إلى السماء. ورد ذكره عليه السلام في القرآن الكريم بلقب المسيح ١١ مرة ، منها ثلاث مرات مقروناً بعيسى (المسيح عيسى) ، كما ورد اسمه عليه السلام بلفظ عيسى ٢٥ مرة ، نسب إلى أمه (عيسى بن مريم) في ١٦ مرة (البداية والنهاية ٢: ٦٨ ، قاموس الكتاب المقدس ١٠٦٥).

١٨– إذا يعتقد أنه ولد في الفترة بين عام ٦٠٠و ٥٨٥ قبل الميلاد. و كان والده قمبيز من أفراد عائلة الأخمنيين الحاكمة و تعود أقدم معلومات موثوقة حول كورش إلى سنة ٥٥٨ قبل الميلاد حين أصبح حاكماً لمنطقة أنشان الفارسية ليخلف والده عليها. قاد كورش بعد ذلك ببضع سنوات تمرداً على إمبراطورية الميديين الحاكمة، و تمكن من هزيمتهم بعد حرب لمدة ثلاث سنوات، و عاملها برحمة و هو يضمهم إلى إمبراطوريته. كما تبنى كورش العديد من القوانين و الإجراءات الإدارية التي وجدها عند الميديين.

١٩– إشعيا٤٥: ١

فهذا اللقب الشريف ليس خاصاً بالمسيح عيسى ابن مريم عليه صلوات الله وسلامه، بل هو لقب يستحقه النبي القادم لما يؤتيه الله من الملك والظفر والبركة التي فاقت بركة الممسوحين بالزيت.

والمسيح لقب للنبي القادم الذي كانت تنتظره بنو إسرائيل ، لذا تساءل اليهود لما رأوا يوحنا المعمدان(٢٢) إن كان هو المسيح القادم " فاعترف ولم ينكر ، وأقر: إني لست المسيح . فسألوه إذاً ماذا ؟ إيليا أنت؟ "(٢٣).

٢٠- (طالوت= شاؤول) من سبط بَنْيامين، وكانت قبيلة بنيامين في ذلك العهد قد أوشكت على الفناء في حرب أهلية وفتن داخلية قامت بين بني إسرائيل، فاستنكروا أن يكون طالوت ملكاً عليهم وجمع طالوت صفوف بني إسرائيل، وهيأهم لمحاربة عدوهم، وخرج بهم، ثم اصطفى منهم خلاصة للقتال، وهؤلاء القلة هم الذين اصطفاهم طالوت للقتال بعد رحلة برية شاقة سار بهم فيها، وقد اشتد فيها ظمأ القوم، وبهذه القلة التي جاوزت النهر واجه طالوت الأعداء.لقي طالوت خصومه وكان رئيسهم جالوت (جليات عند العبرانيين) قوياً شجاعاً فرهبه بنو إسرائيل.وهنا دخل في صفوف بني إسرائيل المقاتلين فتى صغير من سِبط يهوذا كان يرعى الغنم لأبيه "اسمه داود"، ولم يكن في الحسبان أن يدخل مثله في المقاتلين، ولكن أباه أرسله إلى إخوته الثلاثة الذين هم مع جيش طالوت ليأتيه بأخبارهم.فذهب داود إلى الملك طالوت وطلب منه الإذن بمبارزة جالوت، وأقبل داود على جالوت وجرى بينهما حوار عن بعد، وأظهر جالوت احتقار الفتى وازدراءه، والعفة عن مبارزته لصغر سنِّه، لكن داود أخذ مقلاعه -وكان ماهراً به- وزوَّده بحجرٍ من أحجاره، ورمى به فثبت الحجر في جبهة جالوت الجبار فطرحه أرضاً، ثم أقبل إليه وأخذ سيفه وفصل به رأسه، وتمت الهزيمة لجنود جالوت بإذن الله!

٢١- المزمور ١٨/٥٠ وانظر صموئيل (١) ٩/١٦، ١/١٠

٢٢ -هو النبي الرسول يحي بن زكريا عليهما السلام ، وأمه الياصابات خالة مريم ، رزق لوالديه في شيخوختهما ، ويتصل نسبه من جهتها بهارون بن عمران شقيق موسي عليهما السلام ، وكان يحي أكبر من عيسي بستة أشهر ، وقيل بثلاث سنين ، وقيل بخمس ، وهو الذي عمد عيسي عليه السلام في نهر الأردن سنة ٣٠م ، ولذلك يسميه النصارى (يوحنا المعمدان) قتل قبل مقتل أبيه بقليل وقبل رفع المسيح عليهم السلام ، وذلك أنه نهي الملك هيرودس عن الزواج بهيروديا ابنة أخيه ، فأمرتها أمها أن تطلب مهرا رأس يحي عليه السلام ، فقتله وقدم رأسه لها علي طبق . ورد اسم يحي عليه السلام في القرآن الكريم خمس مرات . (البداية والنهاية ٥٨/٢ ، قاموس الكتاب المقدس ص ١١٠٥).

٢٣- يوحنا ٢١/١ – ٢٢

كما استخدم هذا الاسم جموع اليهود حين رأوا معجزات عيسى عليه السلام ، فقالوا: " ألعل المسيح (أي القادم) متى جاء يعمل آيات أكثر من هذه التي عملها هذا! (٢٤).

كما يطلق على النبي القادم المسِيّا ، وهو مرادف للفظة المسيح، فقد جاء في بيان ذلك في إنجيل يوحنا " مسِيّا الذي تفسيره المسيح " (٢٥) ، فالكلمة السريانية: "ماشيح "، تنطق في اللغات التي ليس فيها حرف الحاء يسمى: "المسيّا".

ولعل البعض يهتف مطالباً بالكشف عن النص الصريح الذي يبشر بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويبين بجلاء اسمه وصفته التي لا ينازعه فيها أحد، وحق له ذلك.

لكن يحول دونه أمران متعلقان بالكتاب المقدس وتراجمه ، وهما لا يعزبان عن فهم المتضلعين في كتب القوم المقدسة ، الذين يدركون السبب الذي أضاع أو أغمض كثيراً من البشارات الكتابية.

أولهما:

أن لأهل الكتاب عادة في ترجمة الأسماء إلى معانيها، فيوردون في الترجمة المعنى دون الاسم، وقد يزيدون تفسيراً للعبارة، ويقحمونه في النص.

ولكم ضاع بسبب هذا الصنيع من دلالات واضحات، منها نبوءة المسيح عن الباركليت، والذي تسميه التراجم الحديثة: المعزي، ومنها بشارة النبي حجي بمقدم (محماد) التي ترجمها المترجمون بـ "مشتهى"، فضاعت الكثير من دلالاتها "ويأتي مشتهى كل الأمم" (٢٦).

ونحوه ما جاء في المزامير(٢٧) . عندما ذكرت المزامير اسم مدينة المسيح القادم (بكة)، فترجمها المترجمون إلى العربية إلى وادي البكاء ، لتضيع دلالتها

٢٤- يوحنا ٣٠/٧ – ٣١

٢٥- يوحنا ٤١/١

٢٦- حجي ٧/٢

٢٧- ٦/٨٤

على كل عربي يعرف أن بكة هي بلد محمد صلى الله عليه وسلم ﴿ **إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ** ﴾ (٢٨)

وضرب رحمة الله الهندي(٢٩) في كتابه " إظهار الحق " (٣٠) لهذا الصنيع من المترجمين ثلاثة عشر مثالاً قارن فيها بين طبعات مختلفة للكتاب المقدس، ليقف منها على أثر هذا الصنيع في ضياع دلالات النصوص، منها:

أنه جاء في الطبعة العربية (١٨١١م) " سمى إبراهيم اسم الموضع: مكان يرحم الله زائره "(٣١) فاسم المكان العبراني أبدله المترجم بمعناه، وفي طبعة (١٨٤٤م) العربية قال: " دعا اسم ذلك الموضع:" الرب يرى"، وبذلك ضاع الاسم الصحيح، واختلفت المعاني، ومثله كثير....ثم يقول رحمة الله الهندي: " فهؤلاء المترجمون لو بدلوا في البشارات المحمدية لفظ رسول الله بلفظ آخر، فلا استبعاد منهم ".

ثانيهما:

الكتاب المقدس(٣٢) كثير الاستعارات، تكثر فيه الرموز والإشارات خاصة فيما يتعلق بالمستقبل، يقول صاحب كتاب " مرشد الطالبين إلى الكتاب المقدس الثمين " :

٢٨- آل عمران: ٩٦

٢٩ – هو محمد رحمت الله بن خليل الله الكيرانوي العثماني ، ينتهي نسبه إلى الجد الرابع والثلاثين إلى عثمان بن عفان –رضي الله عنه – وقد ولد في قرية كيرانة بمحافظة مظفر ناجار من توابع دلهي العاصمة الهندية ، في جمادى الأولى سنة ١٢٣٣ هـ الموافق ٩ آذار سنة ١٨١٨ ، وكان في عصره أستاذ الهند في علم مقارنة الأديان ، توفي بمكة سنة ١٣٠٨ هـ الموافق ١٨٩١م .

٣٠ – بدأ الشيخ رحمت الله تأليف الكتاب في شهر رجب ١٢٨٠ هـ الموافق ديسمبر ١٨٦٣م ، وانتهى من تأليفه في ذي الحجة ١٢٨٠ هـ الموافق يونيه ١٨٦٤م ، وقد بدأ الشيخ كتابه بسم الله والحمد لله ، ثم ذكر في ثلاث صفحات تسلط الانجليز على بلاد الهند ، ونشاط المنصرين في كل المجالات ، ثم سبب مناظرته لفندر ، ووصوله إلى مكة ، وطلب الشيخ احمد دحلان إمام المسجد الحرام بمكة منه تأليف كتاب في موضوعات المناظرة ، ثم ذكر أن مؤلفاته السابقة كانت باللسانين الفارسي والأردي ؛ لأنهما اللسانان المألوفان لمسلمي الهند ، ثم بين أنه رتبه على مقدمة وستة أبواب (أنظر: محمد ملكاوي، مقدمة إظهار الحق).

٣١ – انظر التكوين ١٤/٢٢

٣٢ – من الكلمة الإغريقية Biblia وتعني كُتب ، ويشكل الجزء الأول من الكتاب المقدس – العهد القديم – كتاباً مقدساً بالنسبة لليهود . والجزء الثاني منه – العهد الجديد – والكتاب كله كتاباً مقدساً عند النصارى.

" وأما اصطلاح الكتاب المقدس فإنه ذو استعارات وافرة غامضة وخاصة العهد العتيق ".

ويقول أيضاً: " واصطلاح العهد الجديد أيضاً هو استعاري جداً، وخاصة مسامرات مخلصنا، وقد اشتهرت آراء كثيرة فاسدة لكون بعض معلمي النصارى شرحوها شرحاً حرفياً... ".

لذا ينبغي أن يدرك القارئ المشاق التي سنعانيها ونحن نبحث عن الكلمة الأصلية أو الاسم الذي أضاعه المترجمون، كما سيدرك القارئ - بثاقب فكره - طبيعة الكتاب المقدس في التعبير عن الحقائق عن طريق الاستعارة والإلغاز.

هذه الصعوبة لن يشعر بها أولئك الذين يتفاخرون بأن كتابهم قد حوى الكثير من النبوءات التي تحققت فيما بعد كقيام الاتحاد السوفيتي وإسرائيل وحتى شخص كسينجر، وذلك كله عن طريق الإلغاز أو بحساب الجمل أو سوى ذلك، ويقولون أيضاً بورود مئات النبوءات التي تشير إلى السيد المسيح، فإن النصارى يرون أن في العهد القديم ألف نبوءة عن المسيح.

ويتألف الكتاب المقدس من ٧٧ سفرا (إذا أدرجنا فيها أسفار الأبوكريفا). واللغات الأصلية للكتاب المقدس هي العبرية والآرامية (بدرجة محدودة) وأيضاً الإغريقية الهيلينية (اللهجة الرئيسية فيها، أي اليونانية) في العهد الجديد. وفي العصر الحديث تم ترجمة الكتاب المقدس إلى كل لغات العالم تقريباً. وتبذل الكنائس المسيحية وجمعياتها التبشيرية جهداً نشطاً في نشر الكتاب المقدس. وهي تعلن عنه بوصفه الكتاب الأسمى بين كل الكتب، وبوصفه نتاجاً للوحي الإلهي، ومصدراً للحقيقة المطلقة والمعصومة من الخطأ المرسلة إلى الله من البشر ومن خلال الروح القدس. والواقع أن الطبيعة الفانتازية والمفتقرة إلى المغزى للعديد من الموضوعات الرئيسية في الكتاب المقدس وللأساطير الواردة فيه وأيضاً للتعاليم الأخلاقية التي تنبع منه ؛ تجعل من المستحيل بالنسبة للإنسان الحديث أن يسلم بالكتاب المقدس بوصفه كتاباً ذا أصل إلهي. وقد تم تقسيم الكتاب المقدس إلى فصول في القرن الثالث عشر على يد الكاردينال ستيفن لانجتون، في حين أدخل تقسيم الفصول إلى آيات وترقيمها على يد الفرنسي روبرت (استينين) ستيفانز في القرن السادس عشر (المعجم العلمي للمعتقدات الدينية: ص ٨٢).

وهنا نتساءل هل من المعقول أن يخلو الكتاب المقدس من نبوءة عن ذلك الرجل الذي غيّر مسار التاريخ باسم الله، أما كان ينبغي أن يكون له في هذه النبوءات نصيب، ولو نبوءة واحدة تحذر من حاله ودعوته أو تبشر بها؟!

والإجابة عن هذا السؤال صمت مطبق من أولئك الذين يدعون أنهم الوحيدون المؤهلون لحل ألغاز ورموز هذا الكتاب واستخراج نبوءاته وفهم مراميه.

لكن ظهور كلمة النبي صلى الله عليه وسلم ودينه ، يعتبر المفتاح الذي نلج به إلى نبوءات العهد القديم والجديد ، ففي طيات أسفار التوراة نبوءة وميزان يكشف الدعي الكاذب ، ويجليه بوصفه وحاله ، يقول سفر التثنية " وأما النبي الذي يطغى فيتكلم باسمي كلاماً لم أوصه ... فيموت ذلك النبي ... فلا تخف منه " (٣٣)

وقد قال غملائيل(٣٤) الفريسي كلمة حق: "والآن أقول لكم: تنحوا عن هؤلاء الناس واتركوهم، لأنه إن كان هذا الرأي أو هذا العمل من الناس فسوف ينتقض، وإن كان من الله فلا تقدرون أن تنقضوه، لئلا توجدوا محاربين لله أيضاً "(٣٥) ، ودعوة نبينا لم تنتقض، بل ملأت الخافقين، وسادت الدنيا قروناً طوال.

فسلامته صلى الله عليه وسلم من القتل ، وانتصاره على عدوه ، وانتشار دعوته ودينه ، دلالة على صدقه ورسالته " لأن الرب يعرف طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك"(٣٦)

لقد دلت هذه النصوص على صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في نبوته ورسالته، لسلامته من الأذى وتمام أمره ودينه وانتشار دعوته في العالمين.

---

٣٣ – التثنية ١٨/ ٢٠ – ٢٢

٣٤ – هو ابن فدهصور ، ورئيس من سبط منسي ، وحاخام يهودي ، وعضو في السنهدريم ورئيسه حسبما ورد عنه في التلمود ، وهو من الفريسيين وأحد اللاهوتيين اليهود المعروفين جداً في القرن الميلادي الأول ، وكان أول من طالب برفع القيود عن تلاميذ المسيح والكف عن اضطهادهم وهو من أساتذة بولس ن ومن ذرية الربي المشهور هليل ، ومات في منتصف القرن الميلادي الأول. (قاموس الكتاب المقدس ص ٢٧٥).

٣٥ – أعمال ٥/٣٨-٣٩

٣٦ – المزمور ١/ ٦

النبوة

إن مدعي النبوة إمَّا أن يكون من أفضل الخلق وأكملهم وإما أن يكون من أنقص الخلق وأرذلهم . ولهذا قال أحد أكابر ثقيف للنبي – صلي الله عليه وسلم – لما بلغهم الرسالة ودعاهم إلي الإسلام : والله لأقول لك كلمة واحدة : " إن كنت صادقاً فأنت أجلّ في عيني من أن أرد عليك ، وإن كنت كاذباً فأنت أحقر من أن أرد عليك

فكيف يشتبه أفضل الخلق وأكملهم بأنقص الخلق وأرذلهم ؟؟

وما أحسن قول حسان: (٣٧) .

لو لم تكن فيه آياتٌ مبينةٌ كانت بديهتهُ تأتيك بالخبر

وما من أحد أدعي النبوة من الكذابين إلا وقد ظهر عليه من الجهل و الكذب والفجور ما ظهر لمن له أدني تمييز.وما من أحد ادعي النبوة من الصادقين إلا وقد ظهر عليه من العلم والصدق والبر وأنواع الخيرات ما ظهر لمن له أدني تمييز.

فإن الرسول لابد أن يخبر الناس بأمور ويأمرهم بأمور وأن يفعل أمورا. والكذاب يظهر في نفس الوقت ما يأمر به و يخبر عنه وما يفعله ما يبين به كذبه من وجوه كثيرة . كما أن الصادق يظهر في نفس ما يأمر به ويخبر عنه ويفعله ما يظهر به صدقه من وجوه كثيرة .

بل أن كل شخصين أدعيا أمرا من الأمور: أحدهما صادق في دعواه و الأخر كاذب ولابد أن يبين صدق هذا و كذب هذا من وجوه كثيرة ، إذ الصدق مستلزم للبر والكذب مستلزم للفجور .

---

٣٧ – هو أبو الوليد حسان بن ثابت بن المنذر الأنصاري الخزرجي النجاري المولود عام ٥٦٢م شاعر رسول الله صلي الله عليه وسلم في الإسلام، أسلم وعمره ٦٠سنة وحسن إسلامه ، وكان المشركون يهابون لسانه ، وقد عمي قبل موته وتوفي بالمدينة سنة ٥٤هـ/٦٧٤م. (الإصابة ١/ ٣٢٦)

جاء في الصحيحين عن ابن مسعود(٣٨) عن النبي – صلي الله عليه وسلم – أنه قال "عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلي البر وإن البر يهدي إلـي الجنـة ، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يهدى إلي الفجور ، وإن الفجور يهدى إلي النار ولا يزال الرجل يكذب و يتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا".(٣٩)

ولهذا قال تعالى :﴿ **هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ{٢٢١} تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ{٢٢٢} يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ{٢٢٣} وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ{٢٢٤} أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ{٢٢٥} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ{٢٢٦}** ﴾ (٤٠)

ومن هذه الآيات يبين الله عز وجل أن النبي صلي الله عليه وسلم ليس بكاهن ولا بشاعر ،حيث كانوا يقولون : ساحر وشاعر. فبين أن الشياطين تنزل على الكاذب الفاجر ، يلقون إليهم السمع وأكثرهم كاذبون .

فهؤلاء الكهان ونحوهم وإن كانوا يخبرون أحيانا بشئ من المغيبات ويكون صادقا ، فمعهم من الكذب والفجور ما يبين أن الذي يخبرون به ليس من الله ، ولهذا قال النبي صلي الله عليه وسلم لابن صياد : "قد خبأت لك خبيأ". قال هو الدخ ". قال له النبي صلي الله عليه وسلم :"اخسأ فلن تعدو قدرك". بمعني : إنما أنت كاهن .

كما قال للنبي صلي الله عليه وسلم : يأتيني صادق وكاذب ، وقال : أري عرشا على الماء. كما ثبت ذلك في الصحيح .

---

٣٨ – هو ابن أم عبد الرحمن: عبد الله ابن مسعود بن غافل الهذلي حليف بني زهرة ، صحابي كبير من أهل مكة ، وقارئ ومحدث ومفسر وفقيه ، وكان يتشدد في الرواية والضبط ، أسلم قديماً وهاجر الهجرتين إلي الحبشة والمدينة ، شهد بدراً وحز رأس أبي جهل وشهد سائر الغزوات ، وهو من المبشرين بالجنة ، ولما ضحك الصحابة من دقة ساقيه بين لهم الرسول صلي الله عليه وسلم أهما أثقل في ميزان الله من جبل أحد ، ولاه عمر علي الكوفة ، وقدم المدينة في خلافة عثمان فمات فيها سنة ٣٢ هـ عن بضع وستين سنة وله ٨٤٨ حديثاً . (الإصابة ٢/٣٦٨)

٣٩ – متفق عليه

٤٠ – الشعراء ٢٢١:٢٢٦

وقد قال الله تعالى أن الشعراء يتتبعهم الغاوون ، والغاوي الـذي يتبـع هـواه وشهوته ، يقول تعالي: ﴿ **أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ{٢٢٥} وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ{٢٢٦}** ﴾ .[٤١]

فمن عرف الرسول وصدقه ووفاءه ومطابقة قوله لفعله علم علماً يقينـاً انـه ليس بشاعر ولا كاهن ولا كاذب.

والنبوة مشتملة علي علوم وأعمال لابد وأن يتصف بها الرسـول ، وهـي أشرف العلوم وأشرف الأعمال . فكيف يشتبه الصادق فيهـا بالكـاذب ولا يتبـين صدق الصادق وكذب الكاذب ، ولاسيما والعالم لا يخلو من أثار نبي من لـدن أدم إلي زماننا.

فلو قدر أن رجلاً جاء في زمان إمكان بعث الرسل وأمر بالشرك وعبـادة الأوثان وأباح الفواحش والظلم والكذب ، هل كان مثل هذا يشك فـي كذبـه ، أو يطلب منه معجزة تبرهن على رسالته ؟!! ولذلك لما كان الدجال يدّعى الإلهية لـم يكن ما يأتي به دالاً علي صدقه ، للعلم بأن دعواه ممتنعة في نفسها وأنه كذاب .

وقد قيل في ذلك " ما أسر أحد من سريرة إلا أظهرها الله علـي صـفحات وجهه وفلتات لسانه.[٤٢] [٤٣]

إن النبوة في البشر من عهد آدم عليه السلام ، فإنه كان نبيـا وكـان بنـوه يعلمون بنبوته ، وقد عُلم جنس ما يدعو إليه الرسل وأحوالهم ، فالمدعي للرسـالة إذا أتى بما ظهر به مخالفته للرسل عُلم أنه ليس منهم. لاسيما إذا عُلم أنه لابد من رسول منتظر ، وعلم أن لذلك الرسول صفات متعددة تميزه عمّن سواه ، ولـذلك

---

٤١ – الشعراء : ٢٢٥:٢٢٦

٤٢ – أخرجه أحمد في المسند: ٢٠٢/١

٤٣ – فما أكثر ما يبين في أبسط معطيات الحياة اليومية ، وما هفوة بوش عـن الحـرب "الـصليبية" والتـي اعتذر عنها ، وإن كانت دلالتها قد فضحت أغوار نفسه بنزعاته العنصرية والفهم الضيق للدين وأيديولوجيتـه التعصبية ، الأمر الذي يسوقنا إلى عاداته ومعتقداته (حسين عبد القادر، ٢٠٠٥).

قال الله تعالي: ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾. (٤٤)

فخاصية النبوة هي الهداية ، ونقل الناس من الكفر إلى الإيمان ، ومن عدم المعرفة بالله سبحانه وتعالى إلى معرفته والإيمان به وتوحيده وعبادته ، والعمل بشريعته . والقرآن الكريم يتحدث عن الأنبياء بما يبين خواصهم فيقول عن نوح – عليه السلام – ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ اللّهَ إِنِّيَ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ** ﴾ (٤٥) ويقول عن إبراهيم – عليه السلام – ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِه عَالِمِينَ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾ (٤٦) ويشيد به القرآن الكريم وبعدد من الأنبياء من ذريته وغيرهم فيقول : ﴿ **وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً وَكُلاًّ فضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ** ﴾(٤٧) إلى أن تنتهي الآيات بقوله تعالى : ﴿ **أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَـؤُلاء فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْماً لَّيْسُواْ بِهَا بِكَافِرِينَ أُوْلَـئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ** ﴾ (٤٨)

ونلاحظ في هذه الآية الأخيرة عظيم تقدير الله سبحانه وتعالى للأنبياء قبل محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك في قوله تعالى : ﴿ **فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ** ﴾ حيث جعلهم قدوة للرسول صلى الله عليه وسلم ، هذا يعطي علو منزلة الرسل عموماً ، وأنهم في العلو والهداية في درجة واحدة ، وإن كان بينهم تفاضل في ذلك الفضل.

---

٤٤ – البقرة١٤٦

٤٥ – هود : ٢٥-٢٦

٤٦ – الأنبياء : ٥٢-٥٣

٤٧ – الأنعام : ٨٣-٨٦

٤٨ – الأنعام : ٨٩-٩٠

فقد جاء رجل إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – فقال : "يا خير البريـــة ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ذاك إبراهيم عليه السلام"(٤٩)

وعن أبي هريرة قال : " قيل يا رسول الله : من أكـــرم النـــاس ؟ قـــال : أتقاهم. قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فيوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليـــل الله ، قالوا : ليس عن هذا نسألك ، قال : فعن معادن العرب تـــسألوني ؟ خيـــارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا " (٥٠)

---

٤٩ – صحيح مسلم ج٧ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

٥٠ – صحيح مسلم ج٧ باب من فضائل يوسف عليه السلام.

مدخل إلى علم الكلام

والكتاب موضع التحقيق هو كتاب يصنف ضمن علم الكلام ولذا رأينا ضرورة الإشارة إلى هذا العلم

تعريف علم الكلام :

علم الكلام يعتبر من قبل البعض البدايات الأولى نحو نشوء الفلسفة الإسلامية، كان علم الكلام مختصا بموضوع الإيمان العقلي بالله وكان غرضه الإنتقال بالمسلم من التقليد إلى اليقين وإثبات أصول الدين الإسلامي بالأدلة المفيدة لليقين بها. علم الكلام كان محاولة للتصدي للتحديات التي فرضتها الالتقاء بالديانات القديمة التي كانت موجودة في بلاد الرافدين أساسا (مثل المانوية والزرادشتية والحركات الشعوبية). يعتقد ا لبعض أن بداية علم الكلام كان سببه ظهور فرق عديدة بعد وفاة الرسول محمد، ومن هذه الفرق

المعتزلة الجهمية الخوارج والاباضية الزنادقة الاشاعرة والماتريدية والصوفية والسلفية الإمامية والزيدية والإسماعيلية

نشأة علم الكلام :

تعددت الآراء حول نشأة علم الكلام

هناك رأي يقول

أنه نشأ عندما كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلّم يسألونه عن الحق لصحة الاعتقاد والمعرفة، ويسألونه عن الباطل والشر للتمكن من المجانبة حتى قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: "كان الناس يسألون رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخير وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن يُدركني "([٥١]) ، وإنما كان يفعله لتصح له مجانبته لأن من لم يعلم الشر يوشك أن يقع فيه كما قال الشاعر:

عرفتُ الشرَّ لا للشرّ لكن لتوقيه ******ومن لا يعَرف الشر من الناس يقع فيه

٥١ – رواه البخاري ، باب كيف الأمر إذا لم تكن جماعة.

ورأي يقول :

كان نشأة علم الكلام في التاريخ الإسلامي نتيجة ما اعتبره المسلمون ضرورة للرد على ما اعتبروه بدعة من قبل بعض "الفرق الضالة" وكان الهدف الرئيسي هو إقامة الأدلة وإزالة الشبه ويعتقد البعض إن جذور علم الكلام يرجع إلى الصحابة والتابعين ويورد البعض على سبيل المثال رد ابن عباس وابن عمر وعمر بن عبد العزيز والحسن بن محمد ابن الحنفية على المعتزلة، ورد علي بن أبي طالب على الخوارج ورد إياس بن معاوية المزني على القدرية والتي كانت شبيهة بفرضية الحتمية

وعلم الكلام عبارة عن دراسة "أصول الدين" التي كانت بدورها تتمركز على ٤ محاور رئيسية وهي

- الإلوهية: البحث عن إثبات الذات و الصفات الإلهية
- النبوة: عصمة الأنبياء و حكم النبوة بين الوجوب عقلاً، وهو مذهب المعتزلة و الجواز عقلاً، وهو مذهب الاشاعرة
- الإمامة: الآراء المتضاربة حول رئاسة العامة في أمور الدين و الدنيا لشخص من الأشخاص نيابة عن النبي محمد –ص
- المعاد: فكرة يوم القيامة وإمكان حشر الأجسام. ويدرج البعض عناوين فرعية أخرى مثل "العدل" و"الوعد" و"الوعيد" و"القدر" و"المنزلة

وقد عرف علم الكلام كثير من علماء اللاهوت والفلاسفة المسلمين . فمن الفلاسفة نذكر الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد . ومن المتكلمين نذكر الغزالي أيضاً والجويني والقاضي عبد الجبار وفخر الدين الرازي والايجي وسعد الدين التفتازاني .. الخ

فقد حد أبو نصر الفارابي (المتوفى سنة ٣٣٩ هـ) علم الكلام في كتابه " إحصاء العلوم " فقال : " صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التي صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل . وهذا ينقسم إلى جزئين أيضاً : جزء في الآراء وجزء في الأفعال " .

أما أبو حيان التوحيدي (٤٠٠ هـ) فقد عرّف علم الكلام في رسالة له " ثمرات العلوم " بقوله : " وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار في أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل في التحسين والتقبيح والإحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والاقتدار والتعديل والتجوير والتوحيد والتكفير " والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق ينفرد العقل به جليل يفزع إلى كتاب الله تعالى فيه .

وإلى قريب من هذا التعريف أشار التهانوي (١١٥٨ هـ) صاحب " كشاف اصطلاحات الفنون " حيث قال : " علم الكلام يقتدر معه على إثبات العقائد " .

ويعرفه العلامة ابن خلدون في مقدمته بأنه :

" علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة " . في هذا التعريف الجامع المانع حدد لنا عبد الرحمن بن خلدون بكل دقة ووضوح موضوع علم الكلام والمنهج المتبع فيه والغرض منه(٥٢).

وهذه التعريفات وإن تباينت في ألفاظها إلا أنها كلها تكاد تتفق على معنى واحد . فهي مجمعة على أن علم الكلام من شأنه أن يساعد المسلم على نصرة الآراء الدينية الواردة في القرآن والسنة بالعقل . وهذه التعريفات تبين أن علم الكلام علم يستطيع المرء من خلاله أن يثبت العقائد الإيمانية إثباتاً صحيحاً وأن يرد كل الشبه والانحرافات عن هذه العقائد . كذلك تتفق هذه التعريفات على أن موضوع علم الكلام الذات الإلهية : صفاتها وأفعالها وعلاقتها بالكون والإنسان . وذهب نفر من الباحثين إلى أن هناك شرطين لابد من توافرهما لكي يكون البحث مندرجاً تحت علم الكلام :

الشرط الأول : أن يبدأ الباحث عقيدته من كتاب الله وسنة رسوله . أي لابد وأن تكون قضاياه إيمانية مسلم بوجودها أولاً من الدين .

٥٢ – راجع : فيصل بدير عون : علم الكلام ومدارسه ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٨ ، ص ٤٦.

الشرط الثاني : أن يكون هدف الباحث والغاية من دراسته الدفاع عن هذا الإيمان بالعقل . أي لابد له من أن يؤكد الشريعة بالعقل([٥٣]) .

علم الكلام ما بين مؤيد وعارض([٥٤])

اختلف العلماء في شأن علم الكلام ما بين مؤيد ومعارض

أما الإمام الشافعي رحمه الله ومالك واحمد بن حنبل وسفيان الثوري فقد ذهبوا جميعا ، ومعهم أهل الحديث إلى رفض الكلام ومهاجمة المتكلمين ووضعهم في المرتبة الثانية بعد الشرك بالله ، وهي أسوأ درجة يمكن أن يوصف بها مسلم . وقد ذكر أن الشافعي قال أثناء موته لو علم الناس ما في الكلام من الأهواء لفروا منه فرارهم من الأسد .. أما ابن حنبل فقد ذهب إلى أن علماء الكلام زنادقة . أما مالك فكانت حجته في رفض الكلام والمتكلمين أنهم قوم على استعداد أن يغيروا دينهم طبقاً لوجاهة البراهين التي تعرض لهم أو تعرض عليهم ، فقال أرأيت إن جاء عالم الكلام من هو أجدل منه ، أيدع دينه كل يوم لدين جديد !! هذا بشأن بعض الذين يرفضون علم الكلام .

أما فيما يتعلق بالمؤيدين لعلم الكلام والمدافعين عنه ، فيذهبون إلى أنه إحدى السبل التي يدافع بها الإنسان عن دين الله ، وأنه أحد البراهين القوية على بعثة الرسل ، وأنه وسيلة للبرهنة على حدوث العالم ، ووسيلة لإثبات القدرة الإلهية والثواب والعقاب ، والجنة والنار وغيرها من مسائل وردت في الشرع . ذلك أن هذه القضايا قد أثيرت حولها شكوك ، وكان لابد من وجود نفر من المتكلمين لكي يدافع عنها بحجج عقلية ، ويستشهد هذا الفريق بقول الحق " قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ " ([٥٥]) وقوله تعالى " لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ " ([٥٦])

---

٥٣ – راجع : فيصل بدير عون : علم الكلام ومدارسه ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٨ ، ص ٤٤.

٥٤ – راجع : فيصل بدير عون : علم الكلام ومدارسه ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ٢٠٠٨ ، ص ٤٧.

[٥٥] – البقرة : ١١١

[٥٦] – الأنفال : ٤٢

وكما سبق أن وضحنا أن هناك من يرى أن بداية علم الكلام كان سببه ظهور فرق عديدة بعد وفاة الرسول محمد، ومن هذه الفرق

المعتزلة والجهمية والخوارج والاباضية والاشاعرة والماتريدية والصوفية والسلفية الإمامية والزيدية والزيدية هو المذهب الذي ينتمي إليه مؤلفنا

ولذا سوف نستعرض بإيجاز تاريخ وأفكار هذه الفرقة

الزيدية :

الزيدية فرقة إسلامية تبلورت في أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري وسميت بالزيدية نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه (٨٠ – ١٢٢هـ) . قاد ثورة شيعية في العراق ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك، فقد دفعه أهل الكوفة لهذا الخروج ثم ما لبثوا أن تخلوا عنه وخذلوه عندما علموا بأنه لا يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر ولا يلعنهما، بل يترضى عنهما، فاضطر لمقابلة جيش الأمويين وما معه سوى ٥٠٠ فارس حيث أصيب بسهم في جبهته قضى عليه

وهي أحد الفرق الإسلامية وأقرب المذاهب إلى أهل السنة ، ويميلون إلى السنة ويأخذون عنهم العلوم ، وبعض العلماء يعد الزيدية من أهل السنة

ومن علماء الزيدية القاسم بن إبراهيم المرسي بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبي طالب (١٧٠ – ٢٤٢هـ) تشكلت له طائفة زيدية عرفت باسم القاسمية وفكرهم يقوم على أسس تتفق مع أسس المعتزلة نظرا لكون المعتزلة كونهم نشأوا في البيئة نفسها ويعد المعتزلة الإمام زيد بن علي وملامح هذا الاتفاق النابع من مصدر واحد هو ما يعرف ب الأصول الخمسة وهي :- التوحيد والعدل والوعد بالوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، بجانب ما تميز به الزيدية من وجود فقه متكامل بينما كان المعتزلة إما أحناف أو شافعية أو زيدية

تشعبت الفرقة الزيدية إلى عدة فرق، وقد اختلف المؤرخون في عددها، فعدهم الاشعري ست فرق وهي الجارودية والسليمانية والبترية والنعيمية، وحصرهم المسعودي بثماني فرق وهي الجارودية والمرئية والابرقية واليعقوبية

والعقبية والابترية والجريرية واليمانية. وهذا الفرق لم يعد لها اعتبار حاليا ولم يكن لها أي تأثير كبير سابقا ، وإنما تعود لأشخاص كانوا على علاقة بالإمام زيد بن علي أو بأحد من أتباعه ، وما يروى عن هذه الفرق في بعض كتب الفرق والمذاهب يحتاج لتدقيق

لا ترى الزيدية العصمة شرطا لصحة الإمامة

يعتقد الزيديون بان الإمامة تجوز في كل حر تقي عادل عالم من آل محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم

لا يجوز عندهم أن يكون الإِمام مستوراً إذ لابد من اختياره من قبل أهل الحل والعقد، ولا يتم اختياره إلا إذا أعلن عن نفسه مبيناً أحقيته بالإِمامة

ترى الزيدية بصحة إمامة صحابة النبي محمد: أبي بكر وعمر وعثمان، بخلاف الشيعة الأمامية

ترى الزيدية جواز الأمامة في أولاد الحسن والحسين ولا تجد مندوحة لحصرها بأولاد الحسين، ولا يعـــرف الإمام عندهم سوى من شهـــر سيفه، وقاتل أعـــدائه ولا يميلون إلى التقية

فيجوز لديهم وجود أكثر من إمام واحد في وقت واحد في قطرين مختلفين

تقول الزيدية بالإِمام المفضول مع وجود الأفضل إذ لا يُشترط أن يكون الإِمام أفضل الناس جميعاً بل من الممكن أن يكون هناك للمسلمين إمام على جانب من الفضل مع وجود من هو أفضل منه على أن يرجع إليه في الأحكام ويحكم بحكمه في القضايا التي يدلي برأيه فيها

معظم الزيدية يقرون خلافة أبي بكر وعمر، ولا يلعنونهما كما تفعل فرق الشيعة، بل يترضون عنهما، ويقرون بصحة خلافة عثمان مع مؤاخذته على بعض الأمور

لا ترى الزيدية في استخلاف علي بن أبي طالب سوى النص الخفي وأنكرت البترية (الزيدية) مثل هذا النص ومن الزيدية من قال أن طريق الإمامة الإختيار أو الدعوة

كما تعتقد الزيدية أن المسلم إذا إرتكب كبيرة فإن ذلك لا يخرجه عن الإسلام، فهو مسلم وإن كان فاسقاً بما فعل من الكبائر والآثام أيضـــــاً، وبذلك وافقوا أهل السنة وخالفوا الخوارج الإباضية

قصـــــرت الزيدية العصمة على الرسول وحـــــده

مؤلف الكتاب :

هو الإمام الحسين أحمد بن الحسين بن هارون بن الحسين بن محمد بن هارون بن محمد بن القاسم بن الحسن بن زيد بن الإمام السبط الحسن بن الإمام علي رضي الله عنهم – ولد سنة ٣٣٣هـــ .

قال صاحب الحدائق الوردية إن الإمام المؤيد بالله كان إمامياً فوضح له الحق فانقاد له أحسن انقياد فقد كان وحيد عصره، وفريد دهره، جمع العلوم وحفظها، وقد أخذ عن معاصريه من أهل البيت فقه الزيدية، وممن أخذ منهم السيد أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن محمد بن سليمان بن داود بن الحسن المثنى بن الإمام الحسن السبط، كما أخذ عن أبي الحسين علي بن إدريس وقرأ عليه فقه الزيدية والحنفية. ولهذا فقد أخذ جميع العلوم وفاض من أنوار علمه الكثير من المؤلفات التي ما تزال متداولة إلى عصرنا هذا.

وأول دعوة له كانت عام ٣٨٠هـــ أيام الخليفة العباسي الملقب القادر (٣٨١-٤٢٢هـــ) والذي كان كسلفه محتقراً من حكام الدولة البويهية، وكان للإمام دعوة أخرى متأخرة عن هذا التاريخ في أيام الصاحب بن عباد، وقد بايعه أهل الجيل والديلم واستولى على هوسم، ثم امتد إلى الري ومدينة آمل، وبسبب توافد الناصرين له وبذل أموالهم وأنفسهم فقد امتدت ولايته إلى الجيل وطبرستان فاستقام له الأمر، وكانت بينه وبين ملوك الديلم وجنود العباسية وقعات كثيرة كان النصر له، وأثبت فيها شجاعته.

وقد ناصره وبايعه كثير من علماء عصره منهم قاضي القضاء (عبد الجبار بن أحمد بن عبد الجبار الهمداني) والذي كان شيخ المعتزلة في عصره، والصاحب بن عباد، وكذا من أهل البيت الكثير منهم الإمام مانكديم.

استقام له الأمر وكان مثالاً نادراً في زهده وحلمه وتواضعه فقد كان يحمل حاجياته من السوق بنفسه ولا يجيز لنفسه ولا لأولاده أن يحمل حاجياته في دواب بيت المال إلا بأجر، وكان عليه السلام كثير الورع والتقشف، متصوفاً زاهداً، يجالس الفقراء والمساكين، يرد الهدايا والوصايا إلى بيت المال، وكان يتولى بنفسه حراسة بيت المال ويقسم بيده الأموال للجند، وكان يرفع من شأن العلماء والصالحين وهو مع كل هذا ومع تفرغه لحل قضايا المتظلمين فقد كان غزير الدمعة كثير البكاء، دائم الفكر، كثير العبادة إلى أن توفى في ٩ ذي الحجة ٤١١هـ

مؤلفاته :

له مؤلفات كثيرة في الأصول والفروع منها:

أولاً: في علوم القرآن

كتاب يبين فيه إعجاز القرآن – طبع بعنوان (إثبات نبوة النبي صلى الله عليه وآله وسلم) تحقيق خليل أحمد الحاج.

ثانياً: في أصول وعلم الكلام

- كتاب (الآداب في علم الكلام.(
- كتاب التبصرة
- كتاب) النقض على ابن قبة جميعها مخطوطة.

ثالثاً: في الفقه

- كتاب (شرح التجريد (تم تصويره من نسخ مخطوطة ونشرت أربعة أجزاء منه بهيئتها في مجلدين، وهو شرح لفتاوى الإمام القاسم والإمام الهادي، وهو من أجل معتمدات أهل البيت في الفقه
- كتاب البلغة
- كتاب الإفادة
- كتاب الزيادات

- كتاب التفريعات وتولى جمعها أبو القاسم بن تال.

- كتاب الهوسميات.

- كتاب (الأمالي الصغيرة). جميعها ما يزال مخطوط لم تطبع ولم تحقق، عدا الأخير منها.

رابعاً: في الزهد

- كتاب (سياسية المريدين) أورد جزء من مقدمته صاحب الحقدائق الوردية ص٧٨ج٢. وهو مخطوط صورة منه في مركز بدر العلمي بصنعاء.

الكتاب :

ويعتبر كتاب إثبات نبوة النبي من أهم الكتب التي تعرضت لإثبات نبوة النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – وهي سلسلة مؤلفات تناولت النبوة والدفاع عن الرسول محمد – صلى الله عليه وسلم – ضمن شبهات حاول الكثير من المغرضين نفي صفة النبوة الشريفة عنه مدعين جملة من الأباطيل التي تؤكد على حد زعمهم أن محمد – صلى الله عليه وسلم – لم يكن نبياً بل هو على أفضل أحوالهم مجرد مصلح اجتماعي ولم ينزل عليه الوحي بل كان مجرد اجتهاد بشري ، والكتاب الذي بين أيدينا يفند الكثير من هذه المزاعم وهو ما سيتضح لاحقاً في متن الكتاب وتحقيقه .

وقد اعتمدنا في تحقيق هذا الكتاب على النسخة الميكروفيلمية الموجودة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٦٧ والمصنفة تحت بند (علم الكلام) وقد كُتبت سنة إحدى وخمسين وخمسمائة من الهجرة .

وكان منهجنا في التحقيق يقوم على : ضبط النص وتقويمه ، والتعريف بأعلامه وتحديد مواضعه ، وشرح الغريب من ألفاظه ، وعرضا للوقائع التاريخية التي ذكرها حتى تتم الفائدة للقارئ وفندنا ما اعتسف المؤلف تأويله

وخاصة وأنه ينتمي للطائفة الزيدية التي نشأت في أوائل العصر العباسي في القرن الثاني الهجري وسميت بالزيدية نسبة إلى الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه. وهم أحد الفرق الإسلامية وأقرب المذاهب إلى أهل السنة.ورغم ذلك وجدناه يلعن معاوية رضي الله عنه وأبنائه فقمنا بمناقشة هذا الهجوم بموضوعية وحياد معتمدين على السنة المطهرة وأخبار السلف الصالح

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

أنور محمود زناتي – محمد غالب علي بركات .

مقدمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذي الفضل والإحسان ، المخول من شاء من عباده سوابغ الأنعام ، الذي هدانا لدينه ، وأوضح سواء السبيل ، بما نصب من أدلته الباهرة ، وحجته القاهرة ﴿ **لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ** ﴾ (٥٧)

ثم أرسل إلينا خير مولود ، وأكرم مبعوث : رحمة للعالمين ، للمتقين ﴿ **لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيّاً وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (٥٨) . فصلي الله عليه وعلي آله الطاهرين .

وأني لما رأيت غُثاء الملحدة ورعاعها ، مجتهدة لإدخال الشبه في معجزات نبينا – صلي الله عليه وسلم – علي أنفسنا – وعلي من قادته يد الشقاء ، وسلكت به خبط العشواء ، من جهال العوام وأوباشها – فهم عن الحق اليقين معرضون ، وعن الصراط السوي ناكبون ، قد استهواهم الشيطان ، واستزلهم الطغيان ﴿ **نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ** ﴾(٥٩) يظنون بجهلهم وعماهم ، أنهم قد فطنوا لما جهله العلماء ، واستدركوا ما فات أهل الدين ، وتنبهوا عما غبي عنه فضلاء المسلمين .

كلا. بل هم صم عن الحق ، لا يسمعون . وبكم عند المحاج لا ينطقون . وعمي عن الرشاد لا يبصرون ﴿ **كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ** ﴾(٦٠) فإن أرذلهم طبقة ، وأحسنهم طريقة ، وأقلهم شبهة ، وأعتاهم علي الله عز وجل ، وعلي رسوله صلي الله عليه ، وأعداهم للمسلمين ، وأحرصهم علي التحيل لإطفاء نور الله المبين ﴿ **وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (٦١). من ينتسب

---

٥٧ – الأنفال: ٤٢

٥٨ – يس: ٧٠

٥٩ – الحشر: ١٩

٦٠ – المطففين: ١٤

٦١ – التوبة: ٣٢

منهم إلي الباطن ويوهم أن وراء ما في أيد المسلمين من حجج العقول والكتاب والسنة حقيقة عرفوها وحصلوها ، وأنها ممنوعة أو مستورة ، إلا عمن بذل لهم العهود والمواثيق ، فإذا كشفتها وجدت مخازي، تلوح عن صفحاتها أثر الاستهزاء بمن يأخذ عنهم ، ويلوذ بهم ، يعدونهم حمرا مستنفرة ، قد زينوا عندهم ارتكاب الفواحش ، وأباحوا لهم قطوف المظالم ، وأحلوا لهم شرب الخمر ، وترك الصلوات ، ومنع الزكوات ﴿ **قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيراً وَضَلُّواْ عَن سَوَاء السَّبِيلِ** ﴾ (٦٢)

ينفون الصانع ، وينكرون النبوات أجمع ، ويجحدون الشرائع ، فيقولون : " لا يقال في الله تعالي : موجود ، ولا لا موجود " .

لا يعلمون لجهلهم ، وفرط غباوتهم : أن نفي النفي يقتضي الإثبات ، عند أهل اللسان ، ألا تري أنهم أن أرادوا أن يحققوا الإثبات قالوا : " لا غير " فيقولون : " هو الرأي لا غير ، وهو (زيد) لا غير " . فيجمعون بين النفيين لتحقيق الإثبات ، فإذا قالوا : موجود . فقد حققوا : أنه موجود ، وإذا قالوا لا موجود ، فقد نفوا ما أثبتوا ونقضوا ما قالوا . وليس ذلك مما يخفي .

لكن غرضهم في ذلك : هو التوصل إلي التعطيل ، ونفي الصانع . ويقولون : " أن النبي محمدا – صلي الله عليه – إنما كان له التأييد ، دون ما سواه من الوحي(٦٣) والإرسال ، ونزول جبريل(٦٤) عليه السلام " .

---

٦٢ – المائدة : ٧٧

٦٣ – وردت كلمة الوحي في آيات عديدة من القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاء إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴾ [الأنبياء : ٤٥] ويقول تعالي: ﴿ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِن وَرَاء حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾ [الشورى : ٥١] ويقول عز من قائل: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى. مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى. وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ [النجم : ١–٤]. والوحي يعني في أحد معانيه الإلهام الفطري عند الإنسان ، والغريزي عند الحيوان ، كما جاء في قول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ [النحل : ٦٨] فالإلهام الفطري وصوت الضمير لدى الإنسان هو نوع من الوحي يختلف عن الوحي إلى الرسل . وكما أن للإنسان نفس تميل إلى الهوى ، وحوله شياطين توسوس له بالشر ، فإن لديه العقل والقلب والضمير ، وحوله ملائكة توحي إليه بالخير .

ويشيرون بالتأييد إلي المزية التي تحصل لكل من تقدم في صناعة ، وبرع فيها ، من شاعر ، أو طبيب ، أو فقيه ، أو متكلم ، أو منجم . ويسمون الشرائع : نواميس ، ويتوصلون إلي جحدها وإبطالها بإدعاء : أن لكل شئ منها باطنا إذا عرف سقط وجوب العمل به . وينكرون البعث والنشور ، ويقولون : معني القيامة : هو قيام محمد بن إسماعيل ابن جعفر(٦٥) وخروجه .

ولولا أنه ليس غرضنا في كتابنا هذا : وصف أقوالهم ، ونشر فضائحهم ، وبسط مقابحهم من فساد عقائدهم ، ومساوئ دفائنهم مما بينه شيوخنا رحمهم الله – من الأشراف والعلماء في كتبهم المصنفة ، في هتك أستارهم ، وإذاعة أسرارهم ، نحو أبي زيد عيسي ابن محمد العلوي الحسيني ، وابن جعفر بن قنة الرازي ، وأبي عبد الله ابن درام الكوفي ، وأبي أحمد بن عبدك الجرجاني ، وغيرهم – رحمة الله عليهم .

---

٦٤ – جبريل هو حامل الوحي إلى الأنبياء ، وهو الذي بلغ محمداً – صلى الله عليه وسلم – بالنبوة عندما كان في غار حراء ، وكان ينزل عليه بالقرآن الكريم طيلة مدة البعثة ، وأحياناً يتمثل له بهيئة رجل ويراه الصحابة ، ورد ذكره في القرآن الكريم بعدة أسماء : فابسم جبريل ثلاث مرات ، وباسم روح القدس أربع مرات ، وباسم الروح الأمين مرة واحدة ، وهو الوارد ذكره في قصة تبشير مريم بعيسى بلفظ (روحنا) ثلاث مرات ، وله نعوت منها : جبريل الأمين ، وأمين الوحي ، والناموس الأكبر ، وطاووس الملائكة ، وهو – حاشاه الله – الأقنوم الثالث من الثالوث الإلهي عند النصارى ، فهو مشارك للأب والإبن (عيسى) في الآلهية ، ويوجبون له جميع الصفات الإلهية كالعلم والخلق والتأثير في الكون واستحقاق العبادة . (القاموس الإسلامي ١ : ٥٧٦ ، قاموس الكتاب المقدس ص ٤١٤).

٦٥ – هو محمد إسماعيل بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ويعتقد الشيعة الإسماعيليون أن الإمامة في نسله هو –حيث يعتقدون أنه لم يمت وإنما قام جعفر الصادق بإقامة جنازة وهمية له حتى يبعد نظر العباسيين عنه– ويقولون أنه استطاع أن يفر ويقيم لنفسه دعوة في الستر. وبالتالي يرون أن الإمامة ليست في نسل موسى الكاظم وساقوا الإمامة إلى ولد إسماعيل محمد بن إسماعيل الملقب بالمكتوم بعد وفاة جعفر الصادق

ثم ذكرت ما في رسالتهم الموسومة بـــ (البلاغ السابع) ([66]) وربما سموها : (البلاغ الأكبر ، والناموس الأعظم) لكني أحيل من أراد الوقوف علي بـــاطنهم وسرائرهم علي هذه الكتب فإنها مشهورة معروفة معروضة لمن أرادها .

وارجع إلي الغرض الذي قصدته : وهو أني – رأيت أن أضع كتابـــا فـــي الإبانة عن معجزات نبينا صلي الله عليه ، وما أيده الله تعالي به من الآيات البينات ، والدلائل الواضحات ، التي لا يذهب عنها من نصح نفسه ، ولم يتلعب بدينـــه ، مستعينا بالله تعالي ، ومستهديا له ، وراغبا إليه تبارك وتعالي : أن يعظم النفع لنا به ، والمثوبة عليه ، وأن يجعل سعيي فيه ، وكدحي له ، خالصا لوجهه .

هذا ، ولست أطمع أن أزيد علي ما قاله السلف – رحمهم الله – فـــي هـــذا الباب . وإنما أوجز من كلامهم – رحمة الله عليهم – ما جعلـــه البـــسط متباعـــد الأطراف ، وأبسط ما جعله الإيجاز خفي الأغراض .

---

٦٦ – ولهم البلاغات السبعة وهي كتاب البلاغ الأول للعامة كتاب البلاغ الثاني لفوق هؤلاء قليلاً كتاب البلاغ الثالث لمن دخل في المذهب سنة كتاب البلاغ الرابع لمن دخل في المذهب سنتين كتاب البلاغ الخـــامس لمـــن دخل في المذهب ثلاث سنين كتاب البلاغ السادس لمن دخل في المذهب أربع سنين كتاب البلاغ السابع وفيـــه نتيجة المذهب والكشف الأكبر قال محمد بن إسحاق قد قرأته فرأيت فيه أمراً عظيماً من إباحـــة المحظـــورات والوضع من الشرائع وأصحابها ومنذ نحو عشرين سنة تناقص أمر المذهب وقل الدعاة فيه حتى إنـــي لا أرى من الكتب المصنفة فيه شيئاً بعد أن كان في أيام معز الدولة في أوله ظاهراً شائعاً ذائعاً والدعاة منبثـــون فـــي كل صقع وناحية هذا ما أعلمه في هذه البلاد وقد يجوز أن يكون الأمر على حاله بنـــواحي الجبـــل وخراســـان فأما ببلاد مصر فالأمر مشتبه وليس يظهر من صاحب الأمر المتملك على الموضع شيء يدل على مـــا كـــان يحكى من جهته وجهة آبائه والأمر غير هذا والسلام ومن المصنفين النسفي الذي تقد ذكره ولـــه مـــن الكتـــب كتاب عنوان الدين كتاب أصول الشرع كتاب الدعوة المنجية .

وأنتم – رحمكم الله – إذا تأملتم أحوال الفترات التي كانت بين آدم([٦٧]) ونوح وإبراهيم وموسي([٦٨]) وعيسي ومحمد – صلوات الله عليهم – ازددتم معرفة بحسن تدبير الله تعالي لخلقه في ابتعاث الرسل ، وتجديد ما درس – أو كاد يدرس – من الشرائع والملل ، وأنه – جل وعز – ابتعث حين علم الصلاح في الابتعاث ، ومد الفترة حين علم اقتران المصلحة بها ، لأن الفترة – علي ما يقوله بعض أهل التواريخ ، علي اختلاف بينهم فيه ، والله أعلم بتحقيق ذلك – كانت بين آدم ونوح – صلي الله عليهما – سبع مائة عام .

وإنما كان كذلك – والله أعلم – وإنما نقول علي مقدار ما يلوح لنا ، ويبلغه مقدار أفهامنا – أن آدم عليه السلام أهبط إلي الأرض – وهو أبو البشر وأول الإنس – ولم يكن في زمانه شئ من الكفر ، ولا عبادة الأصنام ، ولم يكن غيره وغير زوجته حواء أولادهما– عليهم السلام– وكانوا يعرفون حاله فلم يكن في أمره شك عندهم بوضوح أمره وظهور ديانته وقلة من بعث إليهم فامتد زمان الفترة . وكان بينهما – صلي الله عليهما – مع ذلك : شيث([٦٩]) ، وإدريس([٧٠]) –

---

٦٧ – هو أبو البشر وأول الأنبياء ، خلقه الله من تراب من غير أب ولا أم ، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس أبى استكباراً ، فلعنه الله وتوعده بالعذاب وأمهله إلى يوم الدين ، ثم أغوى إبليس آدم بالأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها ، فأهبطه إلى الأرض للقيام بوظيفة الخلافة وتاب عليه ، ويعتقد أهل الكتاب أن الشجرة التي أكل منها آدم هي شجرة معرفة الخير والشر ، كما يعتقد النصارى أن خطيئة آدم سرت في كل ذريته ، فاضطر المسيح بوصفه إبناً لله وأحد الأقانيم الثلاثة الإلهية عندهم أن ينزل إلى الأرض ليصلبه اليهود كفارة عن خطايا البشر ، وقد أبطل القرآن الكريم كلا الاعتقادين ، ووردت قصة آدم فيه في عدة سور ، كما ورد اسمه ٢٥ مرة في القرآن الكريم. وحسبما جاء في سفر التكوين في الإصحاح الخامس أن آدم عاش ٩٣٠ سنة (القاموس الإسلامي ١: ٥٦ ، قاموس الكتاب المقدس: ٣).

٦٨ – موسى : هو النبي الرسول موسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليهم الصلاة والسلام ، كلمه الله وأرسله إلى فرعون مصر منفتاح (مرنبتاح) ابن رعمسيس (رمسيس) الثاني ورابع فراعنة الأسرة التاسعة عشرة في القرن الثالث عشر قبل الميلاد لإخراج قومه بني إسرائيل. وقد وردت قصة موسى في مواضع كثيرة من القرآن الكريم ، وورد اسمه فيه ١٣٦ مرة ، توفي موسى في آخر سنوات التيه في صحراء سيناء وبعد موت أخيه هارون عليهما السلام ، ودفن في أرض مؤاب جنوب الأردن وكان عمره ١٢٠ سنة (البداية والنهاية ١: ٣٤٤ ، قاموس الكتاب المقدس ٩٣٠).

٦٩ – هو شيث بن آدم عليه السلام ، وُلد بعد مقتل أخيه هابيل ، وكان عمر أبيه آدم ١٣٠ سنة ، وعاش شيث ٩١٢ سنة (قاموس الكتاب المقدس ص ٥٣١).

عليهما السلام – فاستحدث الناس الكفر ، وعبادة الأصنام واتخذوا : ودا ، وسواعا ، ويغوث ، ويعوق ، ونسرا . (٧١)

فابتعث الله سبحانه نوحا – صلي الله عليه – يدعوهم إلي التوحيد ، وخلع الأصنام ، والأنداد ، ولبث فيهم كما قال تعالي : ﴿ **أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامـاً** ﴾ (٧٢) فغرقهم الله تعالي بالطوفان حين علم أنهم لا يصلحون ، ونجا نوحا – صلي الله عليه – ومن معه .

ثم كانت الفترة بين نوح وإبراهيم – صلي الله عليهما – علي ما يقوله المؤرخون نحو سبعمائة عام ، وإنما كانت هذه المدة نحو تلك ، لأن الغرق أعاد حال نوح إلي نحو حال آدم – صلي الله عليهما – وظهور أمره ، وابتداء البشر منهم ، مع أنه لم يكن بقي من الكفار أحد ، إلا أن الناس كانوا قد عرفوا عبادة الأصنام ، واتخاذ الأنداد من دون الله عز وجل ، فأسرعوا بعده في الكفر ، وعبادة الأصنام .

وكان الله تعالي قد بعث هودا إلي عاد لما ازداد تمردهم وصالحا – صلي الله عليهما – بعده إلي ثمود .

---

٧٠ – إدريس عليه السلام هو أحد الرسل الكرام الذين أخبر الله تعالى عنهم في كتابة العزيز، وذكره في بضعة مواطن من سور القرآن، وهو ممن يجب الإيمان بهم تفصيلاً أي يجب اعتقاد نبوته ورسالته على سبيل القطع والجزم لأن القرآن قد ذكره باسمه وحدث عن شخصه فوصفه بالنبوة والصديقية.

٧١ – وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّاً وَلَا سُوَاعاً وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً [نوح : ٢٣] . (وقالوا : لا تذرن آلهتكم). . بهذه الإضافة : (آلهتكم) لإثارة النخوة الكاذبة والحمية الآثمة في قلوبهم . وخصصوا من هذه الأصنام أكبرها شأنا فخصوها بالذكر ليهيج ذكرها في قلوب العامة المضللين الحمية والاعتزاز . . (ولا تذرن ودا ، ولا سواعا ، ولا يغوث ، ويعوق ، ونسرا). وهي أكبر آلهتهم التي ظلت تعبد في الجاهليات بعدهم إلى عهد الرسالة المحمدية . وهكذا تلك القيادات الضالة المضللة تقيم أصناما ، تختلف أسماؤها وأشكالها ، وفق النعرة السائدة في كل جاهلية ؛ وتجمع حواليها الأتباع ، وتهيج في قلوبهم الحمية لهذه الأصنام ، كي توجههم من هذا الخطام إلى حيث تشاء ، وتبقيهم على الضلال الذي يكفل لها الطاعة والانقياد : (وقد أضلوا كثيرا) ككل قيادة ضالة تجمع الناس حول الأصنام . . أصنام الأحجار . وأصنام الأشخاص . وأصنام الأفكار . . سواء !! للصد عن دعوة الله ، وتوجيه القلوب بعيدا عن الدعاة ، بالمكر الكبار ، والكيد والإصرار ! (انظر : سيد قطب، في ظلال القرآن).

٧٢ – العنكبوت: ١٤

ثم لما ازداد الكفر ظهورا وانتشارا – ابتعث الله عز وجـل إبـراهيم(٧٣) – صلي الله عليه – فدعاهم إلي الله تعالي ، وكسر أصنامهم ، ونـبههم علـي خطـأ أفعالهم ، وجدد لهم الذكري ، وأنزل الله عز وجل عليه الصحف .

وبعث لوطا – صلي الله عليه – إلي قوم مخصوصين ، حين ازداد عتـوهم ، واستحدثوا من الفاحشة ما لم يكن قبلهم .

ثم كانت الفترة بينه وبين موسي – صلي الله عليهما – نحو أربعمائة سنة ، وإنما كانت كذلك – والله أعلم – لأن إبراهيم – صلي الله عليه – مـضي والكفـر باق بينهم – ، ظاهر ، ولم يكثر أتباعه الكثرة الظاهرة – علي ما بلغنا .

وبعث الله تعالي بعده : إسماعيل(٧٤) واسـحق(٧٥) ويعقـوب(٧٦) والأسـباط وشعيبا – صلوات الله عليهم – قبل مبعث موسي – صلي الله عليه – وقيـل : أن أيوب – صلي الله عليه – كان قد بعث قبل موسي .

---

٧٣ – هو إبراهيم بن تارح بن ناحور ، ينتهي نسبه عند الجد الثامن إلى سام بن نوح عليه السلام ، ولـد فـي بلدة أور من بلاد بابل قبل ميلاد المسيح عيسى عليه السلام بحوالي ١٩٠٠ سنة ، وقد ولد له فـي شـيخوخته إسماعيل من هاجر ، ثم إسحاق من سارة ، عاونه إبنه إسماعيل في بناء الكعبة ، وقد ورد اسم إبـراهيم عليـه السلام في القرآن الكريم ٦٩ مرة ، ويذكر في التوراة (العهد القديم) باسم أبرام ، مات في فلسطين ودفـن فـي مدينة الخليل (حبرون) ، (القاموس الإسلامي ١ : ١٢ ، قاموس الكتاب المقدس ص ٩).

٧٤ – هو النبي ابن النبي إسماعيل بن إبراهيم بن تارح (آزر) من نسل سام بن نوح ، وأمه هاجر المـصرية ، وهو الإبن الأكبر لأبيه ، فقد ولد وعمر إبراهيم ٨٦ سنة ، فأخذه أبوه مع أمه وأسكنهما في مكة حوالي سـنة ٢٧٩٣ ق.هـ ، وفي إحدى زيارات إبراهيم لهما في مكة امتحنه الله بذبح إسماعيل ، فاسـتجابا دون تـردد ، ولكن الله فداه بكبش عظيم وأمرهما ببناء الكعبة فبنياها ، وقد تزوج إسماعيل امرأة من جـرهم الثانيـة مـن قحطان فولدت له اثني عشر ذكراً هم آباء القبائل العربية ، ومنهم قيدار جد عدنان ، ولذلك يعتبـر إسـماعيل رأس السلالة العربية الثالثة المعروفة بالمستعربة ، فقد اصطلح النسابون علي جعل العـرب ثلاثـة أقـسام ، فالعرب البائدة كعاد وثمود وجرهم الأولي ، والعرب العاربة وهم عرب اليمن من ولد قحطان فهم القحطـانيون ، والعرب المستعربة وهم نسل إسماعيل بن إبراهيم وسكنوا في شمال الجزيرة ، وقد تـوفي إسـماعيل بمكـة وعمره ١٣٠سنة وقد ورد اسمه في القرآن الكريم ١٢ مرة . (الأعلام ٣٠٧/١ ، وقاموس الكتاب المقـدس ص ٧٠)

٧٥ – هو النبي بن النبي إسحاق بن إبراهيم عليهما السلام ، رُزق لوالديه فـي شـيخوختهما بعـد أن جـاوزا التسعين منت عمرهما ، وهو أصغر من أخيه إسماعيل ، توفي وعمره ١٢٨ سنة ، وقد ورد ذكره في القـرآن

فتغيرت أحوال بني إسرائيل وقل قبول الناس للحق وظهر الكفر ، وبلغ مبلغا لم يكن بلغ من قبل ، لأن فرعون(٧٧) اللعين أدعي الربوبية ، ﴿ **فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى** ﴾ (٧٨) واستعبد بني إسرائيل فعظم الأمر وازداد الكفر ، وأتسع الخرق ، ونسي الحق ، فلذلك قصرت مدة هذه الفترة ، حتى بعث موسي – صلي الله عليه – مع تلك الآيات العظام ، كالعصا ، واليد البيضاء ، ومجاوزة بني إسرائيل البحر بعد أن أنفلق البحر ﴿ **فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ** ﴾ (٧٩) وتغريق فرعون اللعين ،

الكريم ١٧ مرة ، وليس في شيء منها إشارة إلي أنه الذبيح ، بل يفهم من آيات القرآن الكريم أن الذبيح هو أخوه إسماعيل عليهم السلام. (البداية والنهاية ١/ ١٧٥)

٧٦ – هو النبي يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام ، ويطلق عليه إسرائيل وهي كلمة عبرية مكونة من مقطعين : اسرا بمعني عبد ، وايل : بمعني إله أو الله ، أي عبد الله ، وكان له اثنا عشر ابناً ليس فيهم نبي غير يوسف عليه السلام ، وهم : رأوبين ، شمعون ، لاوي ، يهوذا ، يساكر ، زبولون ، دان ، نفتالي ، جاد ، أشير ، يوسف ، بنيامين . ومنهم تناسل أسباط بني إسرائيل الاثنا عشر ، فبنو إسرائيل هم اليهود من ذرية يعقوب (إسرائيل) ، ولما انفصل الأسباط العشرة بمملكة مستقلة في السامرة وعاصمتهم نابلس ملكوا عليهم رحبعام بن سليمان . (قاموس الكتاب المقدس ص ١٤١) وقد ورد ذكره في القرآن الكريم بلفظ يعقوب ١٦ مرة ، وبلفظ إسرائيل مرتين .

٧٧ – فرعون في القرآن الكريم هي تعريب "برعا" المصرية القديمة ، وهي اسم مزجى مركب من شقين : بر + عا والشق الأول يعني البيت أو الدار ، والشق الثاني "عا" صفة بمعنى الكِبَر أو العِظَم ، فهو البيت الكبير أو البيت العظيم. وتدخل "بر" في تراكيب مزجية عديدة مثل : "بر + عنخ" أي بيت الحياة ، يعنون دار الكتبة ، وحين تأتي "برعا" المصرية القديمة على المزجية فهي تفقد معناها الأصلي كبيت كبير أو بيت عظيم ، وتصبح كُنية يُكنى بها عن شخص الملك مهابة وتفخيماً ، كما قال العثمانيون في خليفتهم "الباب العالي". والثابت لدى علماء المصريات أن "برعا" لم تصبح اسماً دالاً بذاته على شخص الملك بحيث تستطيع أن تقول : جاء "برعا" وقال "برعا" إلا منذ عصر الأسرة التاسعة عشرة ، عصر الرعامسة الذين كان منهم موسى. ومن إعجاز القرآن أنه يوم كانت اللغة المصرية القديمة ، وكان التاريخ المصري القديم طلاسم مطلسمة عند العالم أجمع ، بل وعند المصريين أنفسهم ، لم يعلم فقط معنى "برعا" في اللغة المصرية القديمة ، وإنما علم أيضاً منذ متى بدأ إطلاق هذه الكنية على ملوك مصر ، فخص بها فرعون موسى وحده ، أما حين يذكر ملوك مصر الذين سبقوا فرعون موسى – كما ترى في حديثه عن الملك الذي استخلص "يوسف" لنفسه وجعله على خزائن الأرض – فهو يقول : "الملك" لا يخطئ مرة واحدة فيقول فرعون (رؤوف أبو سعدة: من إعجاز القرآن، ص ٣٣-٣٤).

٧٨ – النازعات: ٢٣

٧٩ – الشعراء: ٦٣

ومن تبعه إلي غير ذلك من الحجر الذي انفجرت منه العيون ، وما كان ظهر قبل ذلك من الجراد والقمل والضفادع والدم ، وغير ذلك مما يطول ذكره .

وأنزل عليه التوراة(٨٠) ، وبين فيها أحكام الحلال والحرام ، وظهر أمره – صلي الله عليه – أتم الظهور . وإنما كانت أعلام موسي – صلي الله عليه – أكثر ، وآياته أظهر، لأن بني إسرائيل كانوا – والله أعلم – أجهل الأمم، وأغلظهم وأبعدهم عن الصواب ، وأبلدهم عن استدراك الحق .ألا تري أنهم بعدما جاوز الله تعالي بهم البحر . وغرق آل فرعون وهم ينظرون ،قالوا : لموسي – حين مروا علي قوم عاكفين على أصنام لهم –﴿ **يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ** ﴾ (٨١) واتخذوا العجل وعبدوه وظنوا أنه إلههم وآله موسي ، وأنه نسي ، فبحسب هذه الأحوال اقتضت الحكمة : إيضاح الآيات ، والأعلام وتكثيرها لهم .

ثم بعث يشوع ويونس .

ثم بعث داوود – صلوات الله عليهم – وأنزل عليه الزبور(٨٢) .

وبعث سليمان – صلي الله عليه – وآتاه الملك ، مع تلك الآيات العظيمة .

ثم بعث بعدهم زكريا ويحيى(٨٣) – صلي الله عليهما .

---

٨٠ – كلمة مستعربة أصلها العبري تورا . بمعنى القانون والشريعة والقانون ، وهي الكتاب الذي أنزله الله على موسى عليه السلام ، وهو خمسة أسفار : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر الأحبار ، وسفر العدد ، وسفر التثنية . وقد وردت كلمة التوراة في القرآن الكريم ١٨ مرة ، وتطلق التوراة مجازاً على العهد القديم المشتمل على أسفار موسى الخمسة وعلى كتب الأنبياء التي ألحقت بالتوراة خلال تسعة قرون (القاموس الإسلامي ١ : ٥٠٧).

٨١ – الأعراف: ١٣٨

٨٢ – الزبور Zabur : هو الكتاب الذي نزل على نبي الله داود ويسمى في التوراة " مزامير داود " ويحتوي على ١٥٠ مزموراً واشتق منها لفظة المزمار التي تصحب الاناشيد (أحمد عطية الله : القاموس الإسلامي ، مجلد ٣ ، ص ٢٤) وكان داود ــ عليه السلام ــ حسن الصوت ، جميل الإنشاد ، إذا قرأ الزبور تكف الطير عن الطيران ، وتقع على الأغصان ، ترجع بترجيعه ، وتسبح بتسبيحه

٨٣ – يحيى هو النبي الرسول يحيى بن زكريا عليهما السلام، وهو آخر أنبياء بني إسرائيل بعد أبيه وقبل المسيح عيسى عليهم السلام، وأمه اليصابات خالة مريم، رُزق لوالديه في شيخوختهما ، ويتصل نسبه من جهتهما بهارون بن عمران شقيق موسى عليهما السلام، وكان يحيى أكبر من عيسى بستة أشهر ، وقيل بثلاث سنين ، وقيل بخمس ، وهو الذي عمّ عيسى في نهر الأردن سنة ٣٠ م ، ولذلك يسميه النصارى يوحنا المعمدان ، قُتل قبل مقتل أبيه بقليل وقبل رفع المسيح عليهم السلام ؛ لأنه نهى الملك هيرودس عن الزواج

فكانت الفترة بين موسي وعيسي – صلي الله عليهما – نحو ألفـي سـنة ، لعظم آيات موسي ، وعظم الكتاب الذي أنزل معه ، ولما بعث بينهما من الأنبياء ، صلوات الله عليهم – وهذه المدة أطول المدد التي كانت من ذكرنا – عليهم السلام.

ثم لما تزايد الكفر ، وتغيرت أحوال بني إسرائيل ، وشاع الإلحاد بالفلاسفة ، وبعث الله تعالي عيسي – صلي الله عليه – وبقي فيهم ما بقي ، وقد أكرمـه الله تعالي ورفعه إليه ، ثم كانت الفترة بينه وبين نبينا محمد – صلي الله عليه وعلـي آله – نحو ستمائة عام .

فكانت هذه المدة أوسط المدد ، وذلك – والله أعلم – لأن حجـج الله تعـالي كثرت فيها لبقاء التوراة ، والزبور ، ونزول الإنجيل([٨٤]) ، ومع ذلك كثر الضلال ، وقيل في المسيح([٨٥]) – صلي الله عليه – قولان عظيمـان ، أحـدهما مـا قالـت اليهود([٨٦]) ، والثاني ما قالته النصارى .

بهيروديا ابنة أخيه ، فأمرتها أمها أن تطلب مهراً رأس يحيى عليه السلام ، فقتله وقدم رأسه لها علـى طبـق (أنظر إنجيل متى ١٤: ١-١٢) ، وورد اسم يحيى عليه السلام في القرآن الكريم خمس مرات. (البداية والنهايـة ٢: ٥٧ ، قاموس الكتاب المقدس ١١٠٦).

٨٤ – معنى الإنجيل "إيفانجليوس" في اليونانية ، وهي كلمة مكونة من مقطعين : إيف ، انجليـوس . ومعنـى "إيف" السرور ، ومعنى "انجليوس" الخبر . فيكون المعنى : الخبـر السـار . والكلمـة فـي القبطيـة تنطـق "ايفانجليون" ومعناها الخبر السار المفرح . يقول بطرس عبد الملك في قاموس الكتاب المقدس : "إنجيـل مـن اللفظ اليوناني انجليون ومعناه خبر طيب" .

٨٥ – مشتقة من الكلمة العبرية "هاماشياه" وفي الآرامية "مشيحا" وفي اللغات التـي لا تنطـق الحـاء تنطـق "مسيا"..ومعناها في الأصل: الممسوح بالدهن المقدس ، ومعناها مجازاً : المـصطفى مـن الله لأداء رسـالة مقدسة ، وكان معناها الحرفي : هو أن النبي يأخذ قنينة دهن مقدس ويمسح النبي الذي سـيخلفه أو العـالم أو الملك ، فتصير ذاته مقدسة ، ثم صارت كلمة المسيح تطلق على المصطفى من الله لأداء رسالة مقدسة ولو لـم يمسح بدهن مقدس.

٨٦ – اليهود : اسم قبيلة ، مأخوذ من الهود : أي التوبة ، ومعنى هاد يهود هودا وتهود : تـاب ورجـع إلـى الحق ، فهو هائد ، وفي سورة الأعراف يقول تعالى على لسان موسى عليه السـلام : " إِنَّـا هُدْنَـا إِلَيْـكَ " (الأعراف : ١٥٦) أي تبنا ورجعنا ، ويقول تعالى : " وَقَالُواْ لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلاَّ مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَارَى تِلْـكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ [البقرة : ١١١]" والمراد : يهودا ، فحذف الياء الزائدة ورجـع إلـى الفعل من اليهودية. وقد ورد ذكر اليهود في القرآن الكريم باسم (الذين هادوا) عشر مرات ، وباسـم (اليهـود)

ثم ابتعث الله عز وجل النبي محمدا – صلي الله عليه وعلي آلـه وسـلم – وختم به الرسالة ، ونحن من مبعثه علي نحو من أربع مائة عام ، فخل ذلك علـي قرب الساعة ، وأزف القيامة ، وتحقيق ذلك قول الله تعـالي : ﴿ **اقْتَـرَبَ لِلنَّـاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مَّعْرِضُونَ** ﴾ (٨٧) ، وقوله : ﴿ **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ** ﴾ (٨٨) وقول النبي – صلي الله عليه – : " بعثت أنا والـساعة كهـاتين " وأشـار بأصبعيه .

فانظروا رحمكم الله في حسن نظر الله – عز وجل – لعباده، بما ذكرنـاه ، واعتبروا به ، واستعدوا للدوام ، والبقاء ، فلها خلقتم . فكأن الواقعة قـد وقعـت ، والحاقة قد حقت ، ﴿ **فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ** ﴾ (٨٩) ولا يصدنكم عنهـا الشيطان(٩٠) ، وأتباع الشيطان ، كما قال تعالي: ﴿ **إِنَّ السَّاعَةَ ءاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَـا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ، فَلاَ يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لاَ يُـؤْمِنُ بِهَـا وَاتَّبَـعَ هَـوَاهُ فَتَرْدَى** ﴾ (٩١) .

وفقنا الله وإياكم ، لطاعته ، واتباع مرضاته .

وأقدم أمام العرض ، فصلاً أذكره من قبل علماء أهـل البيـت – علـيهم السلام – وهو : أن الله تعالي لما بعث موسي – صلي الله عليه – بعثـه بالآيـات التي بهرت ، ما كان هي ولوع الناس به في ذلك الزمان من السحر والتمويهات ، وأتاهم من العصي واليد البيضاء ، وفلق البحر ، ونحو ذلك ، مما لا تبقـي معـه شبهة في أن ذلك ليس من السحر في شئ ، إذ كان أولئك به أعـرف ، وبالفـصل بين السحر وبين ما ليس سحر ، أعلم ، لعلمهم بمبلغ قوة السحر ، وغاية أمره .

ثماني مرات ، وباسم (هوداً) ثلاث مرات . (لسان العرب ٣: ٣٤٠ ، تفـسير البيـضاوي ص ١٤ ، قـاموس الكتاب المقدس ١٠٨٥).

٨٧ – الأنبياء: ١

٨٨ – القمر: ١

٨٩ – الشورى: ٧

٩٠ – أنظر : إبليس .

٩١ – طه: ١٥-١٦

ولما بعث الله سبحانه المسيح – صلي الله عليه – آتاه من الآيات التي بهرت ما كان ولوع الناس به في ذلك الزمان من الطب ، فأيده – سبحانه – بإحياء الموتى ، وإبراء الأكمه ، والأبرص ، لئلا تبقي شبهة لأحد منهم ، لأنهم كانوا أعرف الناس بمبلغ قوة صناعة الطب ، ومنتهي غايته ، وما يكشف لهم من الأمر ما عساه كان لا ينكشف لغيرهم في تلك المدة اليسيرة .

ولما بعث الله تعالي نبينا محمدا صلي الله عليه في قوم هم الغاية في الفصاحة والبلاغة ، والنهاية في البيان ، والسلاقة . إذ حظ العرب من ذلك أوفر الحظوظ ، ولهم منه ما ليس لغيرهم من الأمم ، فأيده سبحانه بالقرآن ، وجعله معجزا له ، لأنهم يعرفون من حاله ، ما لا يعرف غيرهم ، ولأنهم إذا عجزوا عن معارضته ، لم تبق شبهة في أن غيرهم أعجز ، وأعجز ، ومع ذلك لم يخله – عز وجل – من سائر المعجزات علي ما نبينه من بعد . بل كثر ذلك ، وتواتر ، حتى لم يبق في أمره شبهة لمنصف .

والحمد لله علي نعمه السابغة ، ومنحه البالغة .

الباب الأول
البيان عن إعجاز القرآن

إن سأل سائل . فقال : ما الدليل علي أن القرآن([٩٢]) معجز ؟

قيل له : الدليل علي ذلك :أن النبي – صلي الله عليه – أدعي " النبوة ، وآتي بالقرآن ، وأدعي أنه معجز قد أنباه – عز وجل – به وجعله دلالة علي صحة دعواه ، وبرهانا علي صدقه ، وتحدي به العرب قاطبة ، وقرعهم بالمعجزة عن الإتيان بمثله ، بل بسورة مثله ، وفيهم الخطباء ، والشعراء والبلغاء ، وهم الغاية في البيان ، وأولوا المعرفة بمواقع الكلام وأجناسه وأساليبه من المنثور والمنظوم ، ولهم العادة المشهورة في التفاخر بالبلاغة والفصاحة ، والمعرفة بطرق المعارضات ، ومزايا المخاطبات مع ما كانوا عليه من الحمية والأنفة والعصبية ، ومع شدة حرصهم علي تكذيبه ، وتوهين أمره ، وإبطال دعواه ، حتى بذلوا لذلك ما عز وهان من النفس فما دونها . وهو – صلي الله عليه – يتحداهم ، ويقرعهم بالعجز ، ويدعي أنه حجته وبينته ، ويذم مع ذلك أديانهم ، ويسب آلهتهم التي اتخذوها من دون الله عز وجل ، ويدعوهم إلي طاعته ، والتصرف علي أمره ونهيه ، واستمر علي ذلك زمان بعد زمان فلم يعارضوه ، وعدلوا إلي الحرب التي هي أشق فقاتلوا حتى قتلوا ، وقتلوا ، فدل ذلك : علي أن عدولهم عن معارضة القرآن لم يكن إلا لتعذره عليهم ، إذ لا يجوز علي العقلاء ، إذا حاولوا أمرا أن يعدلوا لمحاولته من الأسهل إلي الأعضل ، ومن الأيسر إلي الأعسر، إذا كانوا متمكنين منهما – وإذا ثبت تعذرها عليهم ثبت أنها علي غيرهم أشد تعذرا.

---

٩٢ – القرآن في اللغة : مصدر على وزن فعلان : كغفران وحسبان ، وفعله : قرأ. والمصدر : قراءة وقرآناً. قال تعالى : "لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ [القيامة : ١٦-١٧]" أي : قراءته . والقرآن في الاصطلاح : هو كلام الله المنزل على سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – والمكتوب بين دفتي المصحف ، أوله سورة الحمد ، وآخره سورة الناس ، والمعجز بلفظه ومعانيه ، والمتعبد بتلاوته ، والمنقول بالتواتر (لسان العرب ، مادة : قرأ).

والمعجز([93]) هو الآمر الذي يتعذر مثله علي جميع البشر ، فثبت أنه معجز علي ما قلناه ، وهذه الدلالة مبنية علي أن التحدي بالقرآن قد وقع ، وأن المعارضة لم تقع ، وأن السبب الذي من أجله لم تقع هو التعذر ، وأن التعذر متي صح صح كونه معجزا .

ونحن نبين ذلك فصلا فصلا ، إن شاء الله سبحانه .

---

٩٣ – المعجزة أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي مع عدم القدرة على المعارضة ، فكل أمر خارق للعادة يجريه الله على يد النبي تصديقاً لنبوته وتحدياً للمنكرين يسمى معجزة ؛ لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها (المعجم الوسيط : ٨٥٨).

الفصل الأول

الكلام في أن التحدي قد وقع

إن قيل : أنكم بنيتم دلالتكم هذه علي أن النبي – صلي الله عليـه – تحـدي العرب بالقرآن ، فدلوا عليه ، وبينوه ، ليستتب غرضكم ، ويتم ما ذكرتموه .

قيل له : قد ذهب كثير من العلماء ، ومجيدو العلم ، بأنه صـلي الله عليـه تحدي به ضرورة : كالعلم بأنه ادعي النبوة ، وآتي بالقرآن ، وإن كان العلم بهذين أجل من العلم بالتحدي .

وقالوا : ولا يمتنع في العلمين ، وإن كانا ضروريين أن يكون أحدهما أجلي ، والآخر دونه في الجلاء ، ونحن لا نذكر هذه الطريقة ، إلا أنا لا نقتصر عليها ، ونوضح الأمر فيه إيضاحا نرجو أن تزول معه الشبهة .

وأن الخبر إذا كان في الأصل قويا ، وموجبا للعلم لا يمتنع مع تطاول المدة ، وتراخي الزمان أن يعرض فيه بعض الضعف ، سيما عند من يقل نظـره فـي الأخبار ، وسماعه لها ، وقد كان الأمر في التحدي ظاهرا في الأعصار الـسالفة ، حتى لم يبلغنا عن مخالف الإسلام من ملحد أو متهود أو متنصر إنكـاره ، حتـى حدث بالآخرة قول بلغنا عن بعض الملحدة والمتهودة . وهو أنهم قالوا : لم يحصل لنا العلم بأن النبي – صلي الله عليه – تحدي به ، ولظهور الأمر فيه حقق العلماء القول فيه .

فهذا الجاحظ(٩٤) مع بسطه الكلام في كتاب (الفرق بين النبي والمتنبـئ) حقق القول في التحدي لأنه رأي أن يتعذر أن ينكره منكر . وهذا ابن الراوندي(٩٥)

---

٩٤ – أبو عثمان عمرو بن بحر الملقب بالجاحظ لجحوظ عينيه . موسوعي وأديب ومعتزلي . ولد بالبصرة عام ٧٨٠م وتوفي فيها عام ٨٦٨م .وقد أحاط الجاحظ إحاطة جيدة بعلوم وآداب عصره ، واعتبر من الكتاب الواقعيين والمنهجيين ذوي الفكر الحر ، والملاحظة الدقيقة والمعالجة الطريفة.

٩٥ – هو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راونـد الواقعـة بـين أصـفهان و كاشان في فارس، ولد عام ٢١٠ هـ ، وتوفي في الأربعين من عمره شهدت حياته تحولات مذهبيـة وفكريـة كبيرة فقد كان في بداياته الفقهية واحد من أعلام المعتزلة في القرن الثالث الهجري ولكنه تحول عنهم وانتقـدهم في كتابه "فضيحة المعتزلة" ردا على كتاب الجاحظ "فضيلة المعتزلة" فتحول إلى المذهب الشيعي ولـه كتـاب

لما صنف كتابه الموسوم بـ (العزيز) واجتهد فيه وقعد ، وأورد الغث والمسلمين في الطعن علي نبوة نبينا محمد – صلي الله عليه – وأنكر كثيرا من روايات المسلمين ، لم ينكر التحدي وإنما تكلم فيما تكلم مع تسليمه ، ولم ينكر ذلك إلا لوضوح الأمر فيه ، وأنه استحيا لنفسه ، وأن تبلغ صفاقة وجهه إلي إنكاره ، ولهذا قال في الكتاب المسمي بـ (الزمرد) : " وقد أطنب محمد – يعني النبي صلي الله عليه وعلي آله – في الاحتجاج لنفسه بالقرآن ، وبعجز الخلق عنه ، ولم يقل ذلك إلا لشهرة الآمر فيه وبلوغه في الطعن " .

ونعود إلي ما وعدنا به من الزيادة وإيضاح ذلك فنقول : قد ثبت أن النبي – صلي الله عليه – لما أتي بالقرآن كان يقرأ علي المسلم والكافر ولا يكتم أحدا ممن قرب منه ، أو بعد عنه . وفي القرآن تحد كثير ظاهر ، ففي ستة مواضع منه قد تحدي حتى لم يبق للشبهة فيه موضع ، وفي مواضع أخرى نبه علي أنه يتحداهم ودل عليه ، وإن لم يكن لفظ التحدي ظاهرا في تلك الآيات ، وهذا كثير يطول ذكره ، وإحصاؤه .

فأما المواضع الستة :

فأحدها : في السورة التي يذكر فيها البقرة ، وهو قوله :﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (٩٦)

فانظروا رحمكم الله : هل يجوز أن يكون في التحدي والتقريع قول أشفي من هذا ، وأوضح منه ، وأدعي لأعدائه إلى الاهتزاز للإتيان بمثله لولا تعذره بها لأنه تعالي قال : ﴿ **فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ** ﴾ وهذا كاف في التحدي ، ثم قال ﴿ **وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ في إنكاركم أنه من عند الله ، وهذا أيضاً تحد ثان ، ثم قال : ﴿ **فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ** ﴾ تحد رابع مع أنه

"الإمامة" من آثار تشيعه القصير ولكن لقائه بأبو عيسى الوراق الملحد قد أخرجه من التشيع والإسلام وتحول بعده ابن الراوندي إلى أحد أهم الملحدين والزنادقة في التاريخ الإسلامي.

٩٦ – البقرة : ٢٣-٢٤

خبر عن المستقبل ، ومثله لا يجوز أن يقع من العاقل إذ لا يأمن أن يفعلوا ذلك فيظهر كذبه ، فدل ذلك علي أنه كان من عند علام الغيوب.

والموضع الثاني : في السورة التي يذكر فيها يونس – صلي الله عليه – وهو قوله عز وجل : ﴿ **وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ وَلَـكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لاَ رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ، أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٩٧)

فإن قوله : ﴿ **وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ تحد بهذا وأنه لا يأتي به أحد إلا من عند الله ، وفيه أيضا مع أنه تحد : خبر ، لا يقع مثله إلا من عند علام الغيوب ، وقوله : ﴿ **قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ** ﴾ تحد ثان ظاهر ، لا مرية فيه ، وكذلك قوله : ﴿ **وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ تحد ثالث .

والثالث : في السورة التي يذكر فيها هودا – صلي الله عليه – وهو قوله عز وجل : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ وَأَن لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ (٩٨)

فكان قوله عز وجل :﴿ **قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ تحديا ظاهرا ، وتقريعا بالغا ، أنه عز وجل فسح لهم في المعارضة ، وان كانت الأقاصيص التي يوردونها قد اقتربت لأنهم كانوا يحتجون عليه – صلي الله عليه – بأنه كان يعرف من أخبار الأمم وأيامها وأقاصيصها مالا يعرفون ، فأدحض الله تعالي حجتهم ، وكذب قولهم ، وفضحهم بقوله تعالي ﴿ **قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ** ﴾ ودل ذلك : علي أن الإعجاز تعلق بنظمه ، وان كان أيضا متعلقا بمعانيه ، وقوله ﴿ **وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ** ﴾ تحد ثان ؛ لأنه إخبار عن أن أحدا من دون الله لا يأتي بمثله . قال : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ** ﴾ وكان هذا تحديا ثالثا ، لأن جعل حجته في أنه أنزل بعلم الله :

---

٩٧ – يونس : ٣٧-٣٨

٩٨ – هود : ١٣-١٤

تركهم الاستجابة إلي إتيان عشرة سور مثله ، فهل يكون في التحدي أبلغ من هـذا ؟ وقوله عز وجل : ﴿ **فَهَلْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ** ﴾ أيضاً يتضمن معنـي التحـدي لأنـه دعاهم إلي الإسلام لظهور عجزهم .

والموضع الرابع : في السورة التي يذكر فيها بني إسرائيل ، وهو قوله : ﴿ **قُـل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَـوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (٩٩)

فانظروا رحمكم الله ، فهل يكون في التحدي شئ أبلغ منه ، وإخبـاره عـز وجل : ﴿ **لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ** ﴾ دليل : علي أنه خبر من عند علام الغيوب ؛ لأن الإنسان لا يعلم ما يكون بعده ، والعاقـل لا يرضي لنفسه أن يخبر خبرا ، لا يأمن أن يقع غيره علي خلاف ما أخبر فيظهر كذبه عند أوليائه وأعدائه ، سيما إذا كان أمره مبنيا علي الصدق ، وبأن أعظم مـا يرميه به أعداؤه : أنه كاذب في دعواه ، فوضح لما بيناه : أنه صدر عـن العـالم بما كان ربما يكون ، وهو الله رب العالمين ، وهذا مما يكون أن يعد دلالة برأسها ، وسنذكرها وما يوضحها من بعد ، بعون الله تعالي .

والموضع الخامس : في السورة التي يذكر فيها القصص ، وهـو قولـه تعـالي: ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّـمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْـرِ هُـدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (١٠٠)

كان قوله عز وجل ﴿ **قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِندِ اللَّهِ** ﴾ تحديا ظاهرا ، وقوله : ﴿ **فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ** ﴾ تحد ثان ، لأنـه قـرعهم بترك الاستجابة إلي ذلك ، ودل بذلك علي أنهم يتبعون أهواءهم ، وقوله : ﴿ **وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ** ﴾ تحد ثالثاً ، لأنه ذمهم ونسبهم إلي الضلال لإتباعهم الهوى الذي جعل تركهم الاستجابة إلي الإتيان به علما عليه ، وقولـه : ﴿ **إِنَّ اللَّـهَ لَـا**

---

٩٩ – الإسراء : ٨٨

١٠٠ – القصص : ٤٩-٥٠

يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ في هذا الموضع أيضا فيه معني التحدي لأنه أخبر أن الله لا يهديهم .

والموضع السادس : في الطور حيث يقول : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ** ﴾ (١٠١) وكان هذا تحديا ظاهرا .

فأما المواضع التي تتضمن معني التحدي ولو لم يكن اللفظ لفظ التحـــدي . فكثير كقوله تعالي : ﴿ **وَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ** ﴾ (١٠٢) وقوله : ﴿ **الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُـصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ (١٠٣) وقوله : ﴿ **الر كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّـاسَ مِـنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ** ﴾ (١٠٤) وقوله : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَـتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى** ﴾ (١٠٥) وقوله : ﴿ **لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَـى جَبَـلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ** ﴾ (١٠٦) وقوله بعد آية التحـدي : ﴿ **فَأَنـتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُواْ لاَ يَعْقِلُونَ** ﴾ (١٠٧) وقوله : ﴿ **أَفَأَنتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَـانُواْ لاَ يُبْصِرُونَ** ﴾ (١٠٨) لأن ذلك يحـرك الطبـع ، ويقـوي الـداعي إلـي التحكـك والمعارضة ، ونظائرها كثير .

فإن قيل : دلوا علي أن هذه الآيات هي من القرآن الذي تلاه النبي – صلي الله عليه وسلم – علي الناس وأنها ليست زيادة فيه .

قيل له : من العلماء من رأي أن العلم بكل آية من القرآن ، مما أتـي بـه النبي – صلي الله عليه وسلم – علي الناس وأنها ليست زيادة فيه .

---

١٠١ – الطور : ٣٣-٣٤

١٠٢ – العنكبوت : ٥١

١٠٣ – هود : ١

١٠٤ – إبراهيم : ١

١٠٥ – الرعد : ٣١

١٠٦ – الحشر : ٢١

١٠٧ – يونس : ٤٢

١٠٨ – يونس : ٤٣

قيل له : من العلماء من رأى أن العلم بكل آية من القرآن ، مما أتـــي بـــه النبي – صلي الله عليه وسلم – علم ضروري . كما أن العلم بجملته ضـــروري . قال : لأن القرآن كله آية آية ، فلو لم يكن العلم بكل آية علما ضروريا ، لم يكـــن العلم بجميع القرآن ضروريا ، لكنا لا نقتصر علي هذا القدر ، ونوضح الكلام فيه فنقول :

لا إشكال ، أن هذه الآيات كانت كلها في المـــصاحف التـــي كتبـــت أيـــام عثمان(١٠٩) وتلك المصاحف كتبت بمشهد أقوام لا يجوز التواطؤ عليهم لكثـــرتهم ، وفيهم الحفاظ ، منهم من كان يعرف الفرق بين ما هو من القرآن ، وما ليس مـــن القرآن ، بل كان أكثرهم – والله أعلم – بهذه الصفة ، كما أن عامة المسلمين اليوم وان لم يكونوا حفاظا ، يفصلون بين ما هو من القرآن وما ليس من القرآن ، فلـــم ينقل عن أحد أنه تكلم في ذلك ، وأنكر معرفتهم ، كما نقل مـــا كـــان مـــن ابـــن مسعود(١١٠) في (المعوذتين) وفي آي من سورة (القنوت) ومن عمـــر(١١١) فيمـــا

١٠٩ – عثمان : ذو النورين وهو ثالث الخلفاء الراشدين أبو عبد الله أو أبو عمرو : عثمان بن عفان بن أبـــي العاص القرشي الأموي ، يلتقي نسبه بنسب الرسول – صلى الله عليه وسلم – في عبد مناف ، ولد فـــي مكـــة سنة ٤٧ ق . هـــ وتزوج رقية ابنة النبي – صلى الله عليه وسلم – وبعد موتها تزوج ابنتـــه الثانيـــة أم كلثـــوم سنة ٣ هـــ فسمي ذو النورين ، ولم يتزوج أحد قط ابنتي نبي غيره ، وهو أحد العـــشرة المبـــشرين بالجنـــة ، وفي فضله أحاديث وأخبار كثيرة ، بويع بالخلافة بعد دفن عمر بثلاثة أيام يوم السبت غـــرة محـــرم ســـنة ٢٤ هـــ ، توسعت الفتوحات الإسلامية في زمنه ، وأثيرت ضده فتنة قتل فيها ظلماً وهو يقـــرأ القـــرآن فـــي داره بالمدينة يوم الجمعة ١٨ ذي الحجة سنة ٣٥ هـــ وكان عمره ٨٢ سنة ، ومدة خلافتـــه ١١ ســـنة و ١١ شـــهراً و١٧ يوماً ، وله في كتب الحديث ١٤٦ حديثاً (الإصابة ٢: ٤٦٢ ، الأعلام ٤: ٢١٠).

١١٠ – عبد الله بن مسعود (ـــــ ٣٢ هـــ) هو عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهـــذلي ، أبـــو عبـــد الرحمن من أهل مكة . من أكابر الصحابة فضلاً وعقلا . ومن السابقين إلى الإســـلام . وهـــاجر إلـــى أرض الحبشة الهجرتين . شهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلي الله علية وسلم وكـــان أقـــرب الناس إليه هدياً ودلاً وسمتاً . أخذ من فيه سبعين سورة لا ينازعه فيها أحد . بعثه عمـــر إلـــى أهـــل الكوفـــة ليعلمهم أمور دينهم . له في الصحيحين ٨٤٨ حديثاً . [الطبقات لابـــن ســـعد ١٠٦/٣ ؛ والإصـــابة ٣٦٨/٢ ؛ والأعلام ٤٨٠/٤] .

١١١ – هو أمير المؤمنين أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي ، ولد بمكة بعـــد عـــام الفيـــل بثلاث عشر عاماً (٤٠ ق.هـــ) ، وكان من تجار مكة ، أسلم قبل الهجرة بأربع سنوات بعـــد أربعـــين رجـــلاً

ذكره من (الرحمن) ومن عائشة[112] فيما ذكر من (الرضاع) وغير ذلك مما جري مجراه ، فلولا أن هذه الآيات بأن كونها من جملة القرآن ظاهرا مكشوفا لجري فيها التضاد ، وعرض فيها النزاع .

فإن قيل: ما تنكرون علي من قال لكم : أنهم جميعا سكتوا عنها ، لأنها كانت مقوية لأمرهم ، معلية لكلمتهم ، مصححة لنحلتهم .

قيل له : الاتفاق علي مثل ذلك لا يصح من العدد الكثير ، ولولا ذلك لم يصح أن يقع العلم بشئ من الأخبار التي تعلق بها الأغراض ، وذلك أن الطبائع مبنية علي نشر الأخبار إذا عرفتها الجماعة الكثيرة ، ضرتهم أو نفعتهم ، لأن الدواعي إلي النشر كثيرة مختلفة ، فيخرج المكتوم لأغراض مختلفة ، فلو كان الأمر علي ما ذكرتم ، والحال علي ما توهمتم ، لظهر ذلك ، ونقل ولم ينكتم ،

وإحدى عشرة امرأة منهن أخته فاطمة زوجة سعيد بن زيد ، فقوى المسلمون بإسلامه ، ولقبه النبي – صلى الله عليه وسلم – بالفاروق ، وتزوج ابنته حفصة بعد الهجرة ، وهو أول من بادر إلى بيعة أبي بكر بالخلافة بعد وفاة النبي – صلى الله عليه وسلم – وعهد إليه أبو بكر بالخلافة يوم وفاته فبويع بها بنفس اليوم سنة ١٣ هـ ، واصلت الجيوش الإسلامية في عهده الفتوحات فتم فتح الشام والعراق ومصر ومعظم بلاد فارس ، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين ، ودوّن الدواوين في العطاء ، ورتب الناس على سوابقهم ، وأرخ بالهجرة ، وقد عدّ بحق أعظم شخصية إسلامية عربية بعد وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وورد في فضائله أحاديث كثيرة . طعنه أبو لؤلؤة فيروز الفارسي المجوسي غلام المغيرة بن شعبة بخنجر في خاصرته وهو يهم بصلاة الصبح ليوم الأربعاء ٢٨ ذي الحجة سنة ٢٣ هـ ، فصلى بالناس عبد الرحمن بن عوف فقصّر جداً ، ثم حملوه إلى بيته ، فجعل الخلافة شورى في ستة توفي رسول الله وهو عنهم راض ، وهم : عثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وطلحة بن عبيد الله ، والزبير بن العوام ، وسعد بن أبي وقاص ، وعبد الرحمن بن عوف. عاش بعد الطعنة ثلاث ليال ، وتوفي وعمره ٦٣ سنة ، وقد دامت خلافته عشر سنين وستة أشهر ، له ٥٣٧ حديثاً (الإصابة ٢: ٥١٨ ، القاموس الإسلامي ٥: ٥٢٢).

١١٢ – عائشة (٩ ق هـ ـــ ٥٨ هـ) هي عائشة الصديقة بنت أبي بكر الصديق عبد الله ابن عثمان . أم المؤمنين ، وأفقه نساء المسلمين . كانت أديبة عالمة . كنيت بأم عبد الله . لها خطب ومواقف . وكان أكابر الصحابة يراجعونها في أمور الدين . وكان مسروق إذا روى عنها يقول : حدثتني الصديقة بنت الصديق . نقمت على عثمان رضي الله عنه في خلافته أشياء ، ثم لما قتل غضبت لمقتله . وخرجت على علي رضي الله عنه ، وكان موقفها المعروف يوم الجمل ثم رجعت عن ذلك ، وردها علي إلى بيتها معززة مكرمة . للزركشي كتاب ((الإجابة لما استدركته عائشة على الصحابة)). [الإصابة ٣٥٩/٤؛ وأعلام النساء ٧٦٠/٢؛ ومنهاج السنة١٨٢/٢ ــ ١٩٨]

لأن واحدا كان لديانته ، وسداد طريقته يذكره إنكارا وتوجعا ، وآخر كان لسخافة دينه ، وضعف عقيدته يذكره لبعض أعداء الدين تقربا وتوددا ، وآخر كان يورده ويحكيه لأهله ولولده تحيرا وتعجبا ،وآخر كان يري أن فيه ضربا من الجلادة[١١٣] والشهامة فيحكيه افتخارا وتبجحا ، وآخر يذكره لضيق عطنه عن حفظ الأسرار ، والأغراض في هذا الباب أكثر من أن تعد وتحصي ، ثم كان من يسمع منهم ، أو من واحد منهم ينشره بغير حساب ، فلا تلبث الأيام والليالي حتى ينتشر ويذيع . وبهذا تجد أسرار الملوك مع ما يتعلق بهم من عظيم الرهبة والرغبة متي جرت بين عشرين أو خمسة أو عشرة أو دون ذلك لم تنكتم وظهرت في أقرب زمان ، وأرخي مدة ..

لهذا قيل :

إذا جاوز الاثنين : سر فإنه يبث ، وإفشاء الوشاة قمين

علي أن مثل ذلك لو كان جائزا أن يكون الفرزدق[١١٤] ، كان ملجما لا يقول الشعر ، وإنما اجتمع عدة من الشعراء لأغراض كانت لهم علي أن يعطوا قصائد ، وينسبونها إليه ، وكان مثله علي كل مصنف في أي جنس من أجناس العلوم كان مثل ما كان من ذلك مما لا يستجيزه عاقل : ولا يرتاب فيه، لأنه لو كان أظهر ، كان ما سألوا فيه كذلك . وهذا الباب قد استقصاه : أبو عثمان الجاحظ في (الفرق بين النبي والمتنبئ) استقصاء شافيا ، وفيما أوردناه كفاية وبلاغ .

فإن قيل : ما أنكرتم أن هذا الاتفاق جري من عدد يسير نحو ثلاثة أو أربعة أو خمسة ، ومثلهم يجوز أن يقع منهم التواطؤ علي الكذب وحفظ السر .

---

١١٣ – الجلادة : شدة التحمل والصبر الجميل .

١١٤ – الفرزدق هو همام بن غالب بن صعصعة التميمي الدارمي وكنيته أبو فراس . وهو من سلالة مضر بن نزار . شاعر من النبلاء و عظيم الأثر في اللغة وسمي الفرزدق لضخامة وتجهم وجهه ولقبه الفرزدق ، ومعناها الرغيف ، لقب بذلك لجهامة كانت في وجهه ، وقيل لقبح ودمامة ، إذ كان وجهه كالرغيف المحروق.

قيل له : هذا سؤال من يغش نفسه عن علم منه بأحوال الصحابة أيام عثمان . أو يقول غير مراقب عن جهل منه بها . وذلك أن الحفاظ في ذلك الوقت كان فيهم كثرة نحو أمير المؤمنين علي(١١٥) – عليه السلام – وعثمان بن عفان ، وعبدا لله بن مسعود ، وعبدا لله بن العباس(١١٦) ، وعبدا لله ابن عمر بن الخطاب(١١٧) ، وأبي بن كعب(١١٨) ، وزيد بن ثابت(١١٩) ، وعبد الله بن عمرو ابن

---

١١٥ – علي (٢٣ ق هـ ـــ ٤٠هـ) هو علي بن أبي طالب ، واسم أبي طالب : عبد مناف بن عبد المطلب . من بني هاشم ، من قريش أمير المؤمنين . ورابع الخلاء الراشدين ، وأحد العشرة المبشرين بالجنة . زوجة النبي صلي الله علية وسلم بنته فاطمة . ولي الخلافة بعد مقتل أمير المؤمنين عثمان ، فلم يستقم له الأمر حتى قتل بالكوفة . كفرة الخوارج ، وغلا فيه الشيعة حتى قدموه على الخلفاء الثلاثة ، وبعضهم غلا حتى فيه حتى رفعه إلى مقام الألوهية . ينسب إليه ((نهج البلاغة)) وهو مجموعة خطب وحكم ، أظهر الشيعة في القرن الخامس الهجري ويشك في صحة نسبته إليه .

[الأعلام للزركلي ١٠٨/٥ ؛ ومناهج السنة ٢/٣ وما بعدها ؛ والرياض النضرة ١٥٣/٢ وما بعدها]

١١٦ – ابن عباس (٣ ق هـ – ٦٨ هـ) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب . قرشي هاشمي . حبر الأمة وترجمان القرآن . أسلم صغيراً ولازم النبي صلي الله علية وسلم بعد الفتح وروي عنه . كان الخلفاء يجلونه . شهد مع علي الجمل وصفين . وكف بصرة في أخر عمره . كان يجلس للعلم . فيجعل يوما للفقه ويوماً للتأويل ، ويوماً للمغازي ، ويوماً للشعر ، ويوماً لوقائع العرب توفي بالطائف { الأعلام للزركلي ، والإصابة ، ونسب قريش ص ٢٦ }.

١١٧ – ابن عمر (١٠ ق هـ – ٧٣ هـ) هو عبد الله بن عمر بن الخطاب ، أبو عبد الرحمن . قرشي عدوي . صاحب رسول الله صلي الله علية وسلم . نشأ في الإسلام ، وهاجر مع أبيه إلي الله ورسوله . شهد الخندق وما بعدها ، ولم يشهد بدرا ولا أحداً لصغره . أفتي الناس ستين سنة . ولما قتل عثمان عرض علية ناس أن يبايعوه بالخلافة فأبي شهد فتح أفريقية . كف بصره في آخر حياته . كلن آخر من توفي بمكة من الصحابة . هو أحد المكثرين من الحديث عن الرسول صلي اله علية وسلم . { الإعلام للزركلي ٢٤٦/٤ ، والإصابة ، وطبقات ابن سعد ، وسير النبلاء للذهبي ، وأحبار عبد الله ابن عمر لعلي الطنطاوي } .

١١٨ – أبي بن كعب (؟ – ٢١ هـ) هو أبي بن كعب بن قيس بن عبيد ، أبو المنذر من النجار لخزرج ، صحابي ، أنصاري كان من كتاب الوحي ، وشهد بدراً وأحداً والخندق والمشاهد كلها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يفتي على عهده ، وشهد مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه وقعة الجابية ، وأمره عثمان رضي الله عنه بجمع القرآن ، فاشترك في جمعه . وله في الصحيحين وغيرهما ١٦٤ حديثاً وآخى النبي صلى الله عليه وسلم بين أبي بن كعب وطلحة بن عبيد الله رضي الله عنهما ، وعن أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : أقرأ أمتي أبي بن كعب .

[الاستيعاب ٦٥/١،والإصابة ١٩/١،وأسد الغابة ٤٩/١ وطبقات ابن سعد ٤٩٨/٣ ،والأعلام ٧٨/١]..

١١٩ – زيد بن ثابت (١١ق هـ ـ ٤٥ هـ) هو زيد بن ثابت بن الضحاك . من الأنصار ، ثم من الخزرج . من أكابر الصحابة . كان كاتب الوحي . ولد في المدينة ،ونشأ بمكة ، وهاجر مع النبي صلي الله

العاص([120]) ، وغيرهم ، وكثير من هؤلاء كانت بينهم منافرات ، بحيث لو عثر بعضهم علي خيانة بعض في مثل هذا الأمر العظيم كان يسرع إلي التنديد به ، فأما من كان منهم يعرف القرآن ، أو كان يحفظ السور منه فكثير لا يحصون ، وكيف يصح اجتماع ما ذكرتم ؟ أم ما الذي يغني لو اجتمعوا ؟

فإن قيل : ما أنكرتم علي من قال : أني أسلم أن هذه الآيات كانت في جملة القرآن ، لكن ما تنكرون : أن تكون هذه الآيات لم تكن تلفت مشركي العرب ، ولم تكن قرعت أسماءهم ، ولا علقت بأفهامهم ، لأنها أو عامتها في السور الطوال . وكان الذي تعلق لحفظ مشركي العرب ، إنما هو الآية بعد الآية ، والكلمة بعد الكلمة ، أو السورة بعد السورة من السور القصار ، وكانت هذه الآيات مغمورة في جملة القرآن ، وفي السور الطوال ، فبهذا لم يهتموا بمعارضته .

قيل لهم : قد علمنا أن النبي – صلي الله عليه وسلم – كان يتلوا القرآن علي أصحابه ، وعلي من كان يفد عليه من المشركين من أحياء العرب ومدنها ، ثلاث وعشرين سنة حتى تحققه الخلق من الصحابة ، وكانوا يتلونه في المحافل والمجامع ، وبين أهليهم في صلواتهم ومدارسهم ومجالسهم ، وكان المشركون يسمعون ذلك ، ويقرع أسماعهم ، وإن لم يكونوا يحفظونه .

علية وسلم وعمره (١١)سنة . تفقه في الدين فكان رأساً في القضاء والفتيا والقراءة والفرائض . وكان أحد الذين جمعوا القرآن في عهد النبي صلى الله علية وسلم وعرضه علية . كتب المصحف لأبي بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار .

[الأعلام للزركلي ؛ تهذيب التهذيب ٣٨٩/٣؛ وغاية النهاية ٢٩٦/١]

١٢٠ – عبد الله بن عمرو : ر: ابن عمر

هو عبد الله بن عمرو بن العاص ، أبو محمد . صحابي قريشي . أسلم قبل أبيه . قال فيهم رسول الله صلى الله علية وسلم : نعم أهل البيت عبد الله وأبو عبد الله وأم عبد الله كان مجتهداً في العبادة غزير العلم . وكان أكثر الصحابة حديثاً . وروى عن عمر وأبي الدرداء وعبد الرحمن بن عوف وغيرهم من الصحابة ، وحدث عنه بعض الصحابة وعدد كثير من التابعين . استأذن النبي صلى الله علية وسلم في كتابة ما كان يسمعه منه فأذن له ، فكتب . وكان يسمى صحيفة تلك ((الصادقة)) . [طبقات ابن سعد ٨/٤؛ والإصابة ٣٥١/٢؛ وتهذيب التهذيب ٣٣٧/٥] .

وانتهي الإسلام في هذه المدة إلي اليمين ، وسائر نواحي العرب ، ويكفي في آية واحدة من آيات التحدي أن يقرع أسماعهم ، فكيف يصح أن يقال : أنها لم تبلغهم ، إلا أن يكون الله تعالي قد صرفهم عن سماعها ولئن جاز ذلك ، فالصرف من عظيم المعجزات .

علي أن عامة آيات التحدي إنما هي في السور المكية[١٢١] ، ولم يكن لرسول الله – صلي الله عليه وسلم وعلي أهله – وهو بمكة[١٢٢] شغل بالجهاد ،

---

١٢١ – للعلماء في بيان المراد بالمكي والمدني ثلاثة اتجاهات :

١– المكي : ما كان خطاباً لأهل مكة ، والمدني : ما كان خطاباً لأهل المدينة ، وعلى هذا : فما كان الخطاب فيه بـ (يا أيها الناس) يكون مكياً ، وما كان الخطاب فيه بـ (يا أيها الذين آمنوا) يكون مدنياً ، وعللوا ذلك بقولهم : لما كان الكفر غالباً على أهل مكة ، كان الأنسب أن يخاطبوا بعبارة (يا أيها الناس) ، ولما كان الإيمان غالباً على أهل المدينة كان الأنسب أن يخاطبوا بعبارة (يا أيها الذين آمنوا) . كما أنهم اعتبروا صيغة (يا بني آدم) ملحقة بـ (يا أيها الناس) في دلالتها على المكي .

٢– المكي : ما نزل بمكة ، ولو بعد الهجرة ، والمدني : ما نزل بالمدينة : وضواحي مكة لاحقة بها مثل : عرفات ومنى والحديبية ، كما أن ضواحي المدينة مثل : بدر ، وأحد ، لاحقة بها. وقد روعي في هذا الاصطلاح مكان النزول . لكنه غير جامع ولا مانع ، إذ لا يندرج تحته ما نزل في غير مكة والمدينة وضواحيها . مثال ذلك : قوله تعالى :" لَوْ كَانَ عَرَضاً قَرِيباً وَسَفَراً قَاصِداً لاَّتَّبَعُوكَ " التوبة : ٤٢ فإنها نزلت بتبوك ، وقوله تعالى : "وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا " الزخرف : ٤٥ فإنها نزلت ببيت المقدس ليلة الإسراء.

٣– المكي : ما نزل قبل الهجرة النبوية إلى المدينة ، ولو كان نزوله بغير مكة ، والمدني : ما نزل بعد الهجرة وإن كان نزوله بغير المدينة. وهذا الاصطلاح روعي فيه زمن التنزيل. وهو اصطلاح جامع مانع : فهو شامل لجميع آيات التنزيل ولا يتطرق إلى القصور ، وذلك لأنه قائم على الأساس التاريخي. ومن المعلوم أن مدة التنزيل كلها تنقسم إلى قسمين لا ثالث لهما : قبل الهجرة وبعدها ، بغض النظر عن تعدد الأماكن والبقاع .

وعلى هذا فقد اعتمده المحققون والعلماء ، وتظهر ثمرة ذلك : أن قوله تعالى : "إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا " النساء ٥٨ ، يعد من قبيل المدني على الرغم من نزوله بمكة – في جوف الكعبة – عام الفتح الأعظم . وكذلك قوله تعالى : "الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِيناً " يعد من المدني مع أنها نزلت بعرفة – يوم الجمعة – بحجة الوداع. (مناهل العرفان : ١: ١٨٨).

١٢٢ – بكة – مكة : Bakkah : البلد الحرام، موضع الكعبة، وزمزم، والمقام؛ سميت مكة لأنها تمكُّ الجبارين، أي تُذهب نخوتهم؛ وقيل: سميت مكة لازدحام الناس بها؛ وقيل: سميت مكة لأن العرب في الجاهلية

وبيان الأحكام ، وإنما كان أكثر شغله – صلي الله عليه – الدعاء إلي الله تعالي، وقراءة القرآن ، علي ما كان يستدعيه .

يؤكد ما ذكرناه ويوضحه : الآثار الواردة في اجتماع مشركي العرب علي التشاور والنظر في حال القرآن ، وتدبر آمره ، حتى قال الوليد بن المغيرة(١٢٣) – لعنه الله : " قد سمعت الأشعار والخطب ، وكلام الكهنة(١٢٤) ، وليس القرآن شيئا من ذلك " ثم قال ما حكي الله عنه في قوله : ﴿ **ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** ﴾ (١٢٥) فالتجأ إلي أن قال : أنه سحر ، لما بهره أمره .

كانت تقول: لا يتم حجنا حتى نأتيَ مكان الكعبة، ومن أسمائها: أم زحم، وأم القرى، ومعاد، والحاطمة، والبيت العتيق، والرأس، والحرم، وصَلاح، والبلد الأمين، والنسّاسة، والناسّة، والباسّة، والقادس، والعرش، والمُذهَب، وبكة ؛ وقال قوم: بكة، موضع البيت، ومكة: ما حول البيت؛ وفي التنزيل، قوله تعالى:] لتنذر أم القرى [(الشورى:٧) وقوله سبحانه:] وهذا البلد الأمين [(التين:٣)

١٢٣ – هو أبو عبد شمس الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو المخزومي ، عاش مابين ٩٥ ق.هـ – ١ هـ ، من قضاة العرب في الجاهلية ومن زعماء قريش وزنادقتها ، ويقال له (العدل) لأنه عدل قريش كلها ، فقريش جميعها تكسو البيت وهو يكسوه وحده ، حرم الخمر على نفسه في الجاهلية وضرب ابنه هشام على شربها ، وأدرك الإسلام وهو شيخ هرم فعاداه وقاوم دعوته ، وهو الذي جمع قريشاً ليوحد قولهم في محمد – صلى الله عليه وسلم – وفي القرآن الكريم ، فرأى أن أصلح ما قيل فيه إنه سحر ، فنزلت فيه آيات سورة المدثر "ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً وَبَنِينَ شُهُوداً وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ثُمَّ نَظَرَ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ [المدثر : ١١–٣٠]" ، وهو والد سيف الله خالد بن الوليد ، وقد هلك بعد الهجرة بثلاثة أشهر ودفن بالحجون (الأعلام ٨: ١٢٢).

١٢٤ – جمع كاهن ، وهو في اصطلاح اليهود الشخص المخصص لتقديم الذبائح ، وقد عيّن موسى رتبة الكهنوت في ذرية هارون ، وكانت لهم واجبات الذبائح اليومية والأسبوعية والشهرية والسنوية ، وخدمة الاحتفالات ، والتطهير ، والاعتناء بالآنية والنار والأثاث ، وحمل تابوت العهد ، والقضاء في الدعاوى ، وتفسير الناموس للشعب ، وكان تقديس الكاهن يجرى في احتفال عظيم لمدة سبعة أيام ترافقه أعمال معينة بثياب مخصصة لذلك ، ويحرم على الكاهن أشياء كثيرة هي حلال لغيره (قاموس الكتاب المقدس: ٧٩١).

١٢٥ – المدثر : ٢١–٢٥

وروي ، أنهم اجتمعوا وتشاوروا حوله في أمره ، أبو جهل(١٢٦) – لعنه الله – والملأ من قريش(١٢٧) ، قد التبس أمره ، فقالوا : فعليكم برجل يعرف السحر والكهانة والشعر ، فقال عتبة بن ربيعة(١٢٨) ، أنا لذلك ، فأتي النبي صلي الله عليه – فخاطب إلي أن تلا عليه رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله وسلم ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم . حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ** ﴾ (١٢٩) حتى انتهي إلي قوله: ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾

فقال عتبة : ناشدتك الله والرحم ، ألا كففت ، وقام جزعا ، دهشا ، مرعوبا ، ورجع إلي أصحابه ، وذكر لهم الحال ، وعرفهم أنه قد تحير فيه ، وأنه ليس من الشعر وكلام الكهنة في شئ .

١٢٦ – أبو جهل : هو عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومي القرشي ، أحد سادات قريش ودهاتها في الجاهلية ، ويكنى أبا الحكم ، أدرك الإسلام ولم يسلم ، بل كان من أشد الناس عداوة للنبي – صلى الله عليه وسلم – فدعاه المسلمون أبا جهل ، آذى الرسول والمسلمين في مكة كثيراً واستمر في عناده حتى قاد جيش المشركين في وقعة بدر سنة ٢ هـ فكان من قتلاها (الأعلام ٥: ٨٨).

١٢٧ – أكرم قبائل العرب ، منها وفيها بُعث خاتم النبيين محمد – صلى الله عليه وسلم – وكانت في الأصل متفرقة حول مكة ، فجمعهم قصيّ ووحدهم وحارب بهم خزاعة حتى أجلاها عن البيت وأسكن مكانهم قريشاً بمكة قبل ظهور الإسلام بحوالي قرن ، وتنقسم قريش إلى قسمين : قريش البطاح ، وكانت منازلهم حول البيت الحرام وفي الشعب بين أخشبي مكة ، وكانوا عشرة بطون أشهرهم بنو هاشم. قريش الظواهر : وكانوا خليطاً من الأحابيش والموالي ، وكانت منازلهم في ضواحي مكة وشعاب التلال المجاورة لها . وقد أجمع العلماء على أن قريشاً أفصح العرب ألسنة ، وأصفاهم لغة . وكان لقريش أصنام كثيرة أهمها هُبل ، وقد حاربت محمداً ودينه ، وكان أول صدامها المسلح مع المسلمين في غزوة بدر الكبرى في السنة الثانية من الهجرة (معجم قبائل العرب ٣: ٩٤٧).

١٢٨ – هو الوليد عتبة بن ربيعة بن عبد شمس ، كبير قريش وأحد ساداتها في الجاهلية ، كان موصوفاً بالرأي والحلم والفضل ، وكان خطيباً نافذ القول ، أدرك الإسلام ولم يُسلم ، شهد قتال بدر مع المشركين ولم يجد خوذة تسع هامته لضخامة جثته وهامته ، وقاتل قتالاً شديداً فأحاط به علي وحمزة وعبيدة بن الحارث فقتلوه سنة ٢ هـ (الأعلام ٤: ٢٠٠).

١٢٩ – فصلت : ١-٣

وقد حكي الله تعالي عن بعضهم أنه قال : ﴿ **سَمِعْنَا لَوْ نَشَاء لَقُلْنَـا مِثْـلَ هَـذَا** ﴾ (١٣٠) ويقال : أنه أمية بن خلف – لعنه الله .

وهذا دليل علي أنه عرف التحدي والتقريع فدفع عن نفسه بما قال في نفس الوقت والحال .

وأيضا . فإن النبي – صلي الله عليه وعلي آله وسلم – لما هاجر إلي المدينة(١٣١) ، كثر المنافقون ، واختلطوا بالمسلمين ، وحضروا الجماعات ، ومواضع الصلوات ، وكذلك أهل الكتاب اختلطوا بالمسلمين حتى لم يخف عليهم عامة أحوالهم ، فكيف يظن بأنه خفي عنهم آيات التحدي بواحدة ، وفي وقوف بعضهم عليها وقوف عامة المشركين ، لأنهم كانوا يهدونها إليهم ولو علي أجنحة الطير ، لأغراض مختلفة علي ما بيناه ، فيسقط بما قلنا ما سألوه .

فإن قيل : يجوز أن يكون النبي – صلي الله عليه وسلم – استكتمهم هذه الآيات فكتموها ،وأذاعوا سائر القرآن .

أحدهما : ما بيناه أن كتمان مثل هذا لا يصح ، ولا يتأتي ، ولا يجد المحاول إليه سبيلا .

والثاني : أنه كيف يستكتمهم النبي – صلي الله عليه وسلم – مع أنه يتلو عليهم : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَـئِكَ يَلعَنُهُمُ اللّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ** ﴾ (١٣٢) وقوله تعالي : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي**

١٣٠ – الأنفال : ٣١

١٣١ – المدينة المنورة تقع وسط غرب المملكة العربية السعودية شرقي البحر الأحمر بحوالي ١٧٥ كيلو متر ، وهي ثانية المدن المقدسة عند المسلمين ، وثانية أشهر مدن العالم بعد مكة المكرمة وأصغر منها بالمساحة والسكان ، وتبعد عنها إلى الشمال حوالي ٤٥٠ كيلومتر ، وقد هاجر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه إلى المدينة المنورة سنة ٦٢٢ م ، سُمّي أهلها الأنصار لنصرهم النبي – صلى الله عليه وسلم – وفيها دُفن ، وكثير من أصحابه (معجم البلدان ٥: ٨٢).

١٣٢ – البقرة : ١٥٩

بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١٣٣) وقوله تعالي : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (١٣٤) .

وكيف يظن بالعاقل : أنه يأمر أصحابه بكتمانه بعدما يدعيه وحيا نازلا من عند الله عز وجل ، ثم يتلو عليهم في الكتمان ما ذكرناه ؟ علي أنه كيف كان يأمن أن يكون فيمن يستكتم من يرتد ، وينافق ويذيع ما استكتم ؟ كما حكي من ارتداد عبد الله بن سرح (١٣٥) بعد ما كان رسول الله – صلي الله عليه – استكتمه كثيرا من الوحي معه ، وأملاه عليه ، علي أن المسلمين كانوا لا يقرون يسيرا لشبهة حتى تنحل عنهم ، والمنافقون يتعلقون بيسير ما يظنونه شبهة ، كما روي عن

---

١٣٣ – البقرة : ١٧٤

١٣٤ – النحل : ٤٤

١٣٥ – وكان عبد الله بن سعد بن أبي سرح يكتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي فربما أملى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم سميع عليم فيكتب عليم حكيم فيقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول كذلك الله ويقره . وافتتن وقال ما يدري محمد ما يقول إني لأكتب له ما شئت ، هذا الذي كتبت يوحى إلي كما يوحى إلى محمد . وخرج هاربا من المدينة إلى مكة مرتدا ، فأهدر رسول الله صلى الله عليه وسلم دمه يوم الفتح فلما كان يومئذ جاء ابن أبي سرح إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان أخاه من الرضاعة فقال يا أخي ، إني والله اخترتك فاحتبسني هاهنا ، واذهب إلى محمد فكلمه في ، فإن محمدا إن رآني ضرب الذي فيه عيناي إن جرمي أعظم الجرم وقد جئت تائبا . فقال عثمان انطلق معي ، فلا يقتلك إن شاء الله فلم يرع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعثمان أخذ بيد عبد الله بن سعد بن أبي سرح واقفين بين يديه فأقبل عثمان على النبي صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله إن أمه كانت تحملني وتمشيه وترضعني وتقطعه وكانت تلطفني وتتركه فهبه لي . فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وجعل عثمان كلما أعرض عنه النبي صلى الله عليه وسلم بوجهه استقبله فيعيد عليه هذا الكلام فإنما أعرض النبي صلى الله عليه وسلم عنه إرادة أن يقوم رجل فيضرب عنقه لأنه لم يؤمنه فلما رأى ألا يقدم أحد ، وعثمان قد أكب على رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبل رأسه وهو يقول يا رسول الله تبايعه فداك أبي وأمي فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم . ثم التفت إلى أصحابه فقال ما منعكم أن يقوم رجل منكم إلى هذا الكلب فيقتله ؟ أو قال " الفاسق " . فقال عباد بن بشر ألا أومأت إلي يا رسول الله ؟ فوالذي بعثك بالحق إني لأتبع طرفك من كل ناحية رجاء أن تشير إلي فأضرب عنقه . فكان يفر من رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما رآه فقال عثمان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بأبي [أنت] وأمي ، لو ترى ابن أم عبد الله يفر منك كلما رآك فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم فقال أو لم أبايعه وأؤمنه ؟ قال بلى أي رسول الله ولكنه يتذكر عظيم جرمه في الإسلام . فقال النبي صلى الله عليه وسلم الإسلام يجب ما كان قبله فرجع عثمان إلى ابن أبي سرح فأخبره فكان يأتي فيسلم على النبي مع الناس .

عمر وغيره يوم الحديبية[136] ، حين أراد النبي – صلي الله عليه – الانصراف عنها ، أنهم قالوا : " ألسنا وعدنا دخول مكة آمنين ؟ " فقيل : " هل عينت لكم هذه السنة بعينها ؟" قالوا :" اللهم . لا " فسكتوا واستقامت بصائرهم .

ولما روي أن ناقة رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – ضلت فتكلم المنافقون في ذلك ، حتى قال – صلي الله عليه – :" **إني لا أعلم إلا ما علمنيه الله تعالي** " وذكر لهم موضع الناقة وحالها حتى وجدوها علي ما وصف لهم .

والقوم الذين يراجعون هذه المراجعة ، من مستبصر يطلب بها مزيد الاستبصار ، ومنافق يحاول بها ما يجري مجري الطعن ، كيف يظن بهم اتفاقهم علي الكتمان ، لمثل هذا الأمر العظيم ؟ ثم يقال لهم : هبكم شككتم في وقوع التحدي بمكة والمدينة أيام رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – علي أنا قد بينا ما يزيل الشك فيه – ألستم تتيقنون وقوعه من أيام عمر وعثمان إلي يومنا هذا ، يكرر علي أسماع كل مخالف لدين الإسلام منحرف عن تصديق الرسول – صلي الله عليه وعلي آله – ينقلونه بالتقريع ، والعيب الوجيع ، للعجز الظاهر عن الإتيان بمثله ، وهذا كاف في التحدي ، ووقوعه .

فإن قيل : فالمروي عن الأكثر : أنهم أسلموا لغير سماع القرآن ، كما روي أن " العباس "[137] أسلم حين أخبره رسول الله – صلي الله عليه – بما كان من إيداعه المال زوجته " أم الفضل " لما أراد الخروج إلي " بدر " وما روي عن

---

١٣٦ – في يوم الاثنين الأول من ذي القعدة سنة ٦هـ (٦٢٨ م) ، والحديبية مكان غرب مكة المكرمة علي تسعة أميال منها ، (الحميري ، الروض المعطار ، ص ١٩٠ ، ياقوت ، معجم ٢ / ٢٣٣)

١٣٧ – العباس بن عبد المطلب (٥١ ق هـ – ٣٢ هـ) هو العباس بن عبد المطلب بن هاشم . عم رسول الله صلى الله علية وسلم ، وجد الخلفاء العباسين . كان في قريش سيداً مشهوراً بالرأي . وكانت إليه سقاية الحاج ، من مآثر قريش ، وأقرت له في الإسلام . قيل إنه أسلم قبل الهجرة . هاجر متأخراً . وشهد الفتح وحنيناً . وكان الخلفاء يجلونه . [الأعلام للزركلي ٣٥/٤ ؛ والإصابة ؛ وأسد الغابة]

" عمير بن وهب(١٣٨) " أنه أسلم حين عرفه – صلي الله عليه وعلي آله – ما جري بينه وبين " صفوان ابن أمية " بمكة ، إلي غير ذلك مما روي عن إسلام خلق

---

١٣٨ – إنه عمير بن وهب –رضي الله عنه–، كان واحدًا من قادة قريش، وبطلاً من أبطالها، كان حادَّ الذكاء، وداهية حرب، طلب منه أهل مكة يوم بدر أن يستطلع لهم عدد المسلمين الذين خرجوا مع الرسول للقائهم، ويعرف مدى استعدادهم. فانطلق هذا الداهية يترقب حول معسكر المسلمين، ثم رجع يقول لقومه: إنهم ثلاثمائة رجل، أو يزيدون قليلاً أو ينقصون قليلاً، وكان تقديره صحيحًا، ثم سأله قومه: هل وراءهم مدد أم لا؟ فقال: لم أجد وراءهم شيئًا، ولكنى رأيت قومًا وجوههم كوجوه الحيات، لا يموتون حتى يقتلوا منا أعدادهم، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلاً منكم، فإذا أصابوا منكم مثل عددهم، فما خير العيش بعد ذلك؛ فانظروا رأيكم. فتأثر عدد من زعماء قريش بكلامه، وكادوا يجمعون رجالهم ويعودون إلى مكة بغير قتال، لولا أن أبا جهل أيقظ في نفوس الكفار نار الحقد، وأشعل نار الحرب، ولما نشبت المعركة ، كان عمير بن وهب أول من رمى بنفسه عن فرسه بين المسلمين، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين على قريش، وعادت قوات قريش إلى مكة تجر خيبتها وراءها. وبعد بدر، أقبل عمير بن وهب على ابن عمه صفوان بن أمية وهو جالس في حجر الكعبة، وأخذا يتذكران ما حل بأهل مكة يوم بدر، فقال صفوان: قبح الله العيش بعد قتلى بدر، فقال عمير: صدقت، والله ما في العيش خير بعدهم، ولولا ديْن عليَّ لا أملك قضاءه، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى؛ لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لي عنده علة (سببًا) أعتكُّ بها عليه: أقول: قدمت من أجل ابني هذا الأسير، وكان ابنه وهب قد أسر يوم بدر، ففرح صفوان وقال له: عليَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم وأرعاهم. فقال عمير لصفوان: اكتم خبري أيامًا حتى أصل إلى المدينة، ثم جهز عمير سيفه وسنَّه، وجعله حادًا، ووضع عليه السم، ثم انطلق حتى وصل إلى المدينة، وربط راحلته عند باب المسجد، وأخذ سيفه، وتوجه **إلى رسول الله (، فرآه عمر بن الخطاب، فأسرع إلى رسول الله (وقال: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب جاء رافعًا سيفه، لا تأمنه على شيء، فقال (لعمر: (أدخله عليَّ). فخرج عمر، وأمر بعض الصحابة أن يدخلوا إلى رسول الله (ويحترسوا من عمير، وأمسك عمر بثياب عمير، ودخل به، فقال (لعمر: (تأخَّر عنه (أي اتركه وابتعد عنه))، وقال لعمير: (اقترب يا عمير)، فاقترب عمير من الرسول ، وقال: انعموا صباحًا (وهى تحية الجاهلية)، فقال له: (قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير، بالسلام تحية أهل الجنة). ثم سأله (: (فما جاء بك يا عمير؟) فقال عمير: جئت لهذا الأسير عندكم (يقصد ابنه وهبًا)، تفادونا في أسرانا، فإنكم العشيرة والأهل، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (فما بال السيف في عنقك؟) قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئًا؟! إنما نسيته في عنقي حين نزلت، ثم قال الرسول (: (أصدقني يا عمير، ما الذي جئت له؟) فقال عمير: ما جئت إلا في طلب أسيري. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: (بل قعدت أنت وصفوان بن أمية في حجر الكعبة، ثم قلت: لولا دين عليَّ وعيال عندي؛ لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان ذلك، والله حائل (مانع) بينك وبين ذلك)، فقال عمير: أشهد أنك رسول الله، وأشهد أن لا إله إلا الله، كنا يا رسول الله نكذبك بالوحي، وبما يأتيك من السماء، وإن هذا الحديث كان بيني وبين صفوان في الحجر، لم يطلع عليه أحد، فأخبرك الله به، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، ففرح المسلمون بإسلام عمير فرحًا شديدًا. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم**

كثير ، لأسباب مختلفة غير سماع القرآن ، وهذا يضعف تعلقكم بـالقرآن ، وبـأن التحدي به كان قد وقع .

قيل : هذا يلزم من قال : أنه لا معجز له – صلي الله عليه – سوي القرآن ، ولا أعرف مسلما يقول ذلك ، أو يعتقده ، وإذا كان هذا هكذا فليس ذلـك طعنـا فيما ذهب إليه ، وسنفرد أن يسر الله سبحانه وتعالي بابا من هذا الكتاب نذكر فيـه المشاهير من معجزاته – صلي الله عليه – التي هي سوي القرآن .

علي أنه قد روي عن جماعة أنهم أسلموا حين سمعوا القرآن ، ولو ثبت أن أحدا لم يسلم عنده ، كان ذلك مما يقدح في صحة كونه معجزا ، دالا علي صـدق رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – والدليل لا يقدح فيه الاستدلال به ، أو أن المستدل به لا يعرف بصحته ، وإنما يجب علينا : أن ننظر في حال الدليل ، هـل هو دليل صحيح أم لا ؟ وأما ما عدا ذلك فيما لا فكر فيه . فمن روي أنـه أسـلم حين سمع القرآن : عمر بن الخطاب ، وروي أنه أسلم حين سمع "طه" .

وروي أن جبير بن مطعم(١٣٩) أسلم حين سمع النبي – صلي الله عليـه – يقرأ : " والطور " وفيه آية التحدي الظاهر ، حيث يقول : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل**

لأصـحابه: (علمـوا أخـاكم القـرآن، وأطلقـوا أسـيره) [ابـن هـشام وابـن جريـر].
هكذا أسلم عمير بن وهب، وأصبح واحدًا من أولئك الذين أنعم الله عليهم بالهدى والنور.

١٣٩ – جبير بن مطعم (؟ – ٥٨ هـ) هو جبير بن مطعم بن عدي بن نوفل بن عبد منـاف ، يكنـى أبـا محمد ، وقيل أبا عدي ، صحابي . كان من علماء قريش وسادتهم ، وكان يؤخذ النسب عن أبي بكر الـصديق رضي الله عنه ، وقدم على النبي صلى الله عليه وسلم في فداء إساري بدر فقال : ((لو كان الشيخ أبوك حيـاً فأتانا فيهم لشفعناه)) وكان للمطعم عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يد . قال : فسمعته يقرأ الطور . فكـان ذلك أول ما دخل الإيمان في قلبي وأسلم جبير بين الحديبية والفتح ، له ٦٠ حديثاً .
[الإصابة ٢٢٥/١ ، والأعلام ١٠٣/٢ ، وأسد الغابـة ٢٧١/١ ، والاسـتيعاب ٢٣٢/١ ، وتهـذيب التهـذيب ٦٣/٢]

لَّا يُؤْمِنُونَ ، فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ"([١٤٠]) وروي أن سعد بن معاذ([١٤١]) قرئ عليه القرآن ، وأسلم . وكذلك : أسيد بن خضير([١٤٢]) .

فإن قيل : تلاوة آية التحدي لا تكون تحديا . وإنما التحدي أن يبتدئ مخاطبتهم بالتحدي .

قيل له: لا فرق بين الأمرين في حصول التحدي : بل إذا قرأ عليهم آية التحدي ، وعرفهم أنها من عند الله تعالي ، ربما كان أبلغ في التحدي ، علي أن آية التحدي في أوائلها الأمر بالتحدي ، لأنه تعالي يقول : " **فليأتوا بحديث** " ولا يجوز أن يظهر – صلي الله عليه وعلي آله – أن الله تعالي أمره أن يقول قولا إلا ويعرف منه أنه قال ذلك ، أو ما ينوب منابه ، بدل ذلك علي أنه لا بد من أن يكون تحديا ابتداء في المخاطبة .

---

١٤٠ – الطور : ٣٤

١٤١ – سعد بن معاذ (؟ – ٥ هـ) هو سعد بن معاذ بن النعمان بن امرئ القيس ، أبو عمر ، الأوسي ، الأنصاري . صحابي من الأبطال رضي الله عنه . من أهل المدينة ، كانت له سيادة الأوس ، وحمل لواءهم يوم بدر . وشهد أحداً ، فكان ممن ثبت فيها . وكان من أطول الناس ، وأعظمهم حيلة ، ورُمِي بسهم يوم الخندق، فمات من أثر جرحه ، وحزن عليه النبي ﷺ وفي الحديث : " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ " [الإصابة ٣٨/٢، وأسد الغابة ٢٢١/٢، وتهذيب التهذيب ٤٨١/٣ ، والأعلام ٣٩/٣] .

١٤٢ – أسيد بن خضير (؟ ــ ٢٠ هـ) هو أسيد بن خضير بن سماك بن عتيك ، أبو يحيى ، الأوسي ، صحابى . كان شريفا في الجاهلية والإسلام ، من أهل المدينة ، يعد من عقلاء العرب . زذزي الر؟ أي فيهم . روى عن النبي صلى الله علية وسلم . وعنه أبو سعيد الخدري وأنس وأبو ليلى الأنصاري وكعب بن مالك وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين . شهد العقبة الثانية مع السبعين من الأنصار ، وكان أحد النقباء الاثنى عشر ، وشهد أحدا فجرح سبع جراحات وثبت مع رسول الله صلى الله علية وسلم حين انكشف الناس ، وشهد الخندق والمشاهد كلها ، وفي الحديث : ((نعم الرجل أسيد بن الحضير)) . له ثمانية عشر حديثاً .

[أسد الغابة ١١٣/١ ، وتهذيب التهذيب ٣٤٧/١ ، والأعلام ٣٣٠/١]

الفصل الثاني

الكلام في أن معارضة القرآن لم تقع

فإن قيل : فما الدليل علي أن رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – لما تحداهم بالقرآن لم يعارضه أقوام ولم يأتوا بمثله ؟

قيل له : الدليل علي ذلك أنه لو كان لنقل : ولو نقل لوقع العلم فلما لم يقع العلم به ، علمنا أنه لم ينقل ، وإذا ثبت أنه لم ينقل ، ثبت أنه لم يكن.

فإن قيل : فلم ادعيتم أنه إذا لم ينقل يجب القطع علي أنه لم يكن ؟

قيل له : لأنا بمثل هذه الطريقة نعلم أنه لم تجر بين رسول الله – صلي الله عليه – وبين قريش من مبعثه – صلي الله عليه – إلى يوم بدر[١٤٣] وقعة ، مثل وقعة بدر وأنه لم يكن بين وقعة بدر ووقعة أحد[١٤٤] مثل واقعة أحد . وأن الأحزاب[١٤٥] لم يجتمعوا علي باب المدينة إلا مرة واحدة ، وأنه لم تجر بين أبي حنيفة[١٤٦] وابن أبي ليلي ومالك[١٤٧] نقائض في الشعر مثل ما جري بين الفرزدق

---

١٤٣ -بدر : مكان بين مكة والمدينة وبه ماء مشهور باسم بئر بدر والمكان خلده انتصار المسلمين فيه على قريش ، ويقال بدر اسم بئر لرجل اسمه بدر (ياقوت ، معجم البلدان (١ / ٣٥٧)

١٤٤ – منتصف شوال من السنة الثالثة للهجرة ، مكانها سفح جبل أُحد الذي يقع في الشمال من المدينة وسمي أحد لتوحده وانقطاعه عن جبال أخرى هناك ، (ياقوت ، معجم ١ / ١٠٩) ، وفيها أنظر : طبقات ابن سعد (٢ / ١٩٧) ، وسيرة ابن هشام (٣ : ٣) ، وصحيح البخاري (٥ / ٩٣) ، ومسلم بشرح النووي (١٢ / ١٤٧) ، وأنساب الأشراف للبلاذري (١ / ١٤٨) ، والسيرة الحلبية (٢ / ٢٨٤) ، والسيرة الشامية (٤ / ٢٧١).

١٤٥ - وكانت في شهر شوال من السنة الخامسة للهجرة ، وفيها أنظر ، الواقدي ، المغازي (٤ / ٣٦٢) ، وسيرة ابن هشام (٣ / ١٠٦) ، وتاريخ الطبري (٢ / ٩٠) ، وابن كثير ، البداية والنهاية (٣ / ٩٢)

١٤٦ – أبو حنيفة (٨٠–١٥٠ هـ) هو النعمان بن ثابت بن كاوس بن هرمز . ينتسب إلى تيم بالولاء . الفقيه المجتهد المحقق الإمام ، أحد أئمة المذاهب الأربعة ، قيل : أصله من أبناء فارس ، ولد ونشأ بالكوفة كان يبيع الخز ويطلب العلم ؛ ثم انقطع للدرس والإفتاء . قال فيه الإمام مالك ((رأيت رجلا لو كلمته في هذه

وجرير(١٤٨) والأخطل(١٤٩) والبُعَيث(١٥٠) . وأن جعفر ابن محمد – عليه السلام – لم يقع منه خروج مثل خروج زيد بن علي – عليهما السلام – وأن زيدا بن علي لم يكن له خروج بخراسان(١٥١) ،وأن أبا يوسف ومحمد لم يصنفا في النحو مثل كتابه

السارية أن يجعلها ذهبا لقام بجته)) وعن الإمام الشافعي انه قال : ((الناس في الفقه عيال علي أبي حنيفة ((مسند)) في الحديث ؛ و ((المخارج)) في الفقه ؛ وتنسب إليه رسالة ((الفقه الأكبر)) في الاعتقاد ؛ ورسالة ((العالم والمتعلم)) .

[الأعلام للزركلي ٤/٩؛ والجواهر المضية ٢٦/١ ؛ و ((أبو حنيفة)) لمحمد أبي زهرة ؛ والانتقاء لابن عبد البر ؛ ١٢٢ – ١٧١ ؛ وتاريخ بغداد ٤٣٣/٣٢٣/١٣].

١٤٧ -مالك (٩٣ – ١٧٩ هـ) هو مالك بن أنس بن مالك الاصبحي الأنصاري إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة . أ خذ العلم عن نافع مولي ابن نافع مولي ابن عمر، والزهري ، وربيعة الرأي ، ونظرائهم . وكان مشهورا بالتثبيت والتحري : يتحري فيمن يأخذ عنه ، ويتحري فيما يرونه من الأحاديث ، ويتحري في الفيتا : لا يبالي أن يقول : ((لا أدري)) . وروي عنه أنه قال : ((ما أفتيت حتي شهد سبعون شيخا أني موضوع لضلك)) . اشتهر في فقه باتباع الكتاب والسنة وعمل أهل المدينة . كان رجلا مهيبا : وجه إليه الرشيد فجلس بين يدي مالك . وقد امتحن قبل ذلك ، فضربه أمير المدينة ما بين ثلاثين إلى مائه سوط ومدت يداه حتي انحلت كتفاه وكان سبب ذلك أنه أبى إلا أن يفتي بعدم وقوع طلاق الكره . ميلاده ووفاته بالمدينة . من تصانيفه : ((الموطأ)) و((تفسير غريب القرآن) وجمع فقه في ((المدونة)) . وله ((الرد علي القدرية)) و((الرسالة)) إلى الليث بن سعد . [الديباج المذهب ص ١١ – ٢٨ ؛ وتهذيب التهذيب ٥/١٠؛ ووفيات الأعيان ٤٣٩/١].

١٤٨ – جرير هو أبو حرزه جرير بن عطية اليربوعي التميمي (ت.١١٠هـ) ينتمي إلى قبيلة كليب من بني تميم. ولد في اليمامة (في منطقة الرياض حاليا) في خلافة عثمان بن عفان ، اشتهر في المدح والهجاء توفي بعد موت الفرزدق بشهور سنة ١١٠هـ. و قد بقي لبنيه أملاك في بلدة أثيثية (منطقة الوشم شمال غرب الرياض حالياً) إلى زمن ياقوت الحموي في القرن السابع الهجري. كان من فحول شعراء الإسلام، وكانت بينه وبين الشاعر الفرزدق صولات وجولات، ولكنه رثاه بعد مماته.

١٤٩ – هو غياث بن غوث بن الصلت بن طارقة التغلبي ويكنى أبو مالك ولد عام ١٩هـ، الموافق عام ٦٤٠م، وهو شاعر عربي ينتمي إلى بني تغلب، وكان نصرانياً ، وقد مدح خلفاء بني أمية بدمشق في الشام ، وأكثر في مدحهم، وهو شاعر مصقول الألفاظ، حسن الديباجة، في شعره إبداع. وهو أحد الثلاثة المتفق على أنهم أشعر أهل عصرهم: جرير والفرزدق والأخطل.

١٥٠ – و هو من قوم الفرزدق.

١٥١ – منطقة جغرافية واسعة. من الناحية التاريخية: يشمل إقليم "خراسان الإسلامي" شمال غرب أفغانستان (مثل مدينة هيرات) وأجزاء من جنوب تركمانستان، إضافة لمقاطعة خراسان الحالية في إيران. من مدنه التاريخية: هراة و نيسابور و طوس (تعرف باسم مشهد اليوم) و بلخ و مرو.

سيبويه([152]) ، وأنه لم يظهر عنهما من الطب مثلما ظهر عن جالينوس([153]) ، إلــى نظائر ما ذكرنا . أكثر من أن تعد وتحصي ، ولم يتحصل لنا العلم بكل ما ذكرنــا إلا من حيث علمنا أن شيئا من ذلك لو كان لنقل . ولو نقل العلم . فبأن بما ذكرنــا ، أن القرآن لم يعارض ، لأنه لو كان عورض لنقل ، ولو نقل لحصل لنا العلم .

فإن قيل : أن جميع ما استشهدتم به ، قد وقع العلم بصحته ، ولا ننكــره ، ولكن من أين وجب أن يكون حكم معارضة القرآن حكم ما استشهدتم به ؟

قيل له : لأن ما ذكرنا من الطريقة أمر عام ليس يختص شيئا دون شــئ ، فيجب أن يكون جميع الطرق التي تتعلق بها الدواعي إلى نشرها وذكرها وتقــوي البواعث عليها ، جارية في هذا الباب مجري واحدا .

فإن قيل : فكأنكم تقولون : أن كل ما لم ينقل من الأحوال الماضــية نقــلا متواترا يجب القطع علي أنه لم يكن ، ولئن قلتم ذلك لزمكم أن تقطعوا علي أنه لا معجز للنبي – صلي الله عليه – إلا ما يكون الخبر بــه متــواترا ([154])، ويلــزمكم

---

١٥٢ – أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، المعروف بـسيبَوَيه (بالفارسـية: سـيبويُه أي: "رائحــة التفاح") (١٤٠ هــ/٧٦٠ م–١٨٠ هــ/٧٩٦ م) إمام العربية وشيخ النحاة الذي إليه ينتهون، ولــه كتــاب فــي النحو يسمى "الكتاب" وهو أول كتاب منهجي ينسق ويدون قواعد اللغة العربية، «لم يكتب النــاس فــي النحــو كتاباً مثله».. وسيبويه فارسي الأصل، ولد في مدينة البيضاء قرب شيراز في بلاد فارس، كــان مــولى بنــي الحارث بن كعب، ثم مولى آل الربيع بن زياد الحراثي وقدم إلى البصرة غلاما، وقدا اختلف في موعد قدومــه تحديدا، ونشأ فيها وأخذ عن علمائها، وعلى رأسهم الخليل بن أحمد الفراهيدي. له وصــف لمخــارج حــروف اللغة العربية هو الأدق حتى الآن.

١٥٣ – جالينوس : هو كاتب وطبيب إغريقي شهير تخصص في علم التشريح، أثرت دراساته وكتاباته تــأثيرا كبيرا في الطب الغربي لمدة ١٣٠٠ عام، ولد في العام ١٣٠م وتوفي في العام ٢٠٠م. ولــد لأب وأم يونــانيين في مدينة بيرغاموم القديمة والمسمية حاليا برغاما في تركيا.

١٥٤ – معنى التواتر التتابع ، ومنه قول الله تبارك وتعالى : " ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُــلَنَا تَتْــرَا " (المؤمنــون : ٤٤) ، والتواتر هو ما رواه جماعة يستحيل في العادة أن يتواطؤا على الكذب. فالخبر المتواتر كالمعــاين المــسموع منه صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنه يرويه قوم لا يحصى عددهم ولا يتوهم تواطؤهم على الكــذب لكثــرتهم وعدالتهم وتباين أماكنهم.

القطع علي أن كل خبر يروى عنه – صلي الله عليه – من طريق الآحاد[١٥٥] : كذب ، لا أصل له . وهذا خلاف ما بين المسلمين ، ويلزمكم في أحوال الدنيا والمعاملات : أن كل مالا يتواتر الخبر به من المجوزات فهو مقطوع علي أنه لم يكن ، وفي هذا من الفساد مالا يخفي .

قيل له : نحن لا نقول أن كل مالا يتواتر الخبر به يجب القطع علي أنه لم يكن علي الإطلاق ، وهذا لا يقوله محصل ، وإنما نقول : إن الأمر إذا كان مما يكون وقوعه لو وقع ظاهرا لا خفاء به ، ثم كانت الدواعي إلى نشره قوية ، والبواعث علي ذكره شديدة ، ما لم يعرض ما يوجب تغير حال الدواعي والبواعث ، ومتي لم يكن له نقل يوجب العلم فيجب القطع علي أنه لم يكن ، وشيء مما ذكرتم لا يلزم علي هذا – علي ما نبينه – بأن كثيرا من معجزات

١٥٥ – الآحاد هو ما لم يجمع شروط التواتر . فسواء كان الراوي واحداً أو اثنين أو ثلاثة أو أربعة أو غير ذلك من الأعداد التي لا يبلغ النقلة في الكثرة حد التواتر فيحكم على الخبر بأنه خبر آحاد. وخبر الآحاد ظني الثبوت ويفيد العلم النظري الذي يتوقف على النظر والاستدلال ، ولا يفيد العلم اليقيني ، وهذا عند كثير من العلماء ، ففيه المقبول والمردود وما يتوقف فيه .. ويرى بن حزم في كتابه "الإحكام" أنه يفيد القطع لا الظن ويوجب العلم والعمل ، حكى ذلك أيضاً رواية عن مالك : فإذا كان الحديث صحيحاً كان قطعي الثبوت ولو كان خبر آحاد . وقد اتفق جمهور المسلمين من الصحابة والتابعين وغيرهم على وجوب العمل بخبر الواحد وأنه حُجة ويفيد الظن ، يقول تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ [الحجرات : ٦]" والنبأ هو الخبر ، وهو نكرة في سياق الشرط فيعم كل خبر ويدخل فيه الخبر الذي يتعلق بالرسول – صلى الله عليه وسلم – وقد أوجب الله تعالى التثبت فيه لوجود الفسق ، فإذا انتفى هذا السبب بأن كان المخبر ثقة عدلاً قُبل الخبر . يقول تعالى : " وَجَاء رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَى قَالَ يَا مُوسَى إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ [القصص : ٢٠]". ففي هذه الآية قبِل موسى خبر الناصح وزكى الله هذا العمل من موسى – عليه السلام – وقال تعالى : " فَجَاءتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاء قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ [القصص : ٢٥]" ، وفي هذه الآية قبِل موسى – عليه السلام – خبر المرأة . وعن عبد الله بن عمر – رضي الله عنه – قال : "بينا الناس بقباء في صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد أُنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوا ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة" (متفق عليه). وهنا صحابة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبلوا خبراً عظيماً من واحدٍ واستداروا إلى الكعبة .

رسول الله – صلي الله عليه – يجوز أن يكون ظهـر للواحـد ، أو الاثنـين ، أو الثلاثة ، دون العدد الكثير ، ومثل هذا مما لا يصح أن يتواتر به الخبر .

وكثير من معجزاته – صلي الله عليه – وإن كانت ظهرت ، بشهادة العـدد الكثير ، يجوز أن تقوي الدواعي إلى نشرها ، والبواعث عليها تعويلا علي غيرها ، ويجوز أن تضعف الدواعي علي نقلها علي مر الأيام ، لقيام غيرها مقامه ، وان كانت الدواعي والبواعث في أول الأمر قوية ، وكل هذا يجوز أن يكـون الأصـل صحيحا ، وإن لم يتواتر النقل به ، وعلي هذه الطريقة يجري الكلام فـي أحـوال الدنيا والمعاملات لأنا نجوز في السلطان أن يفعل أفعالا كثيرة مما تخصه فلا تنقل نقلا متواترا . ولا يجوز أن يفعل فعلا يعم نفعه أو ضرره ظـاهرا ذائعـا ، فـلا يتواتر في المدة بعد المدة إلى أن يعرض ما يوجب ضعف الدواعي والبواعث إلي نقله ، ولهذا جاز أن تخفي كثيرا من معجزات الأنبياء المتقـدمين – صـلوات الله عليهم – لأن التكليف بمعرفتها زال ، أو عرف حالهم من جهـة نبـي بعـدهم ، فضعفت الدواعي إلي نقله ، وإذا ثبتت هذه الجملة ، فان معارضة القرآن لو كانت ووقعت كان وقوعها علي وجه يظهر للولي ، المصدق برسـول الله – صـلي الله عليه– والعدو المكذب له ، وكانت الدواعي إلي نقلها والبواعث علي نشرها قويـة مستمرة إلي يومنا هذا بل إلي آخر الدهر ، لأن الإسلام مـا بقـي ، والاحتجـاج بالقرآن ما استمر ، فيجب أن تكون الدواعي ثابتة حاصلة إلى نقـل المعارضـة ، لأن المكذب به – صلي الله عليه – كان يذكرها احتجاجا والمصدق بـه يـذكرها طالبا للكلام عليها ، كما يذكر الخصم حجة خصمه أو شبهته الكلام عليها . وآخـر كان يذكرها لفصاحتها ومزيتها كما يؤثر ، ويحفظ كلام الفصحاء ، وكانت الملحدة والباطنية من بينهم خصوصا يهتفون بها لما في أنفسهم علي رسول الله – صـلي الله عليه .

فكل ما ذكرناه يوضح أنها لو كانت وقعت كان وقوعها معروفا ، والدعاوي إلي نقلها تكون مستمرة ، ومتي كان الأمر علي ما وصفنا ، ولم نجد النقل الـذي ذكرنا ، فيجب القطع علي أنها لم تكن ، كما نقول في سائر ما جري مجـراه فـي

الظهور ، وقلة الدواعي إلي نقله من أمــور الــدين والــدنيا ، وأحــوال الملــوك وسياساتهم .

ولمثل هذا نقول : أن ما تدعيه الإمامية([١٥٦]) من النصوص ، لا أصل لهــا ، لأنها لو كانت لوجب أن يتواتر بها النقل ، ويظهر .

ولخص بعض العلماء القول في ذلك ، فقال :" كل أمرين كانا فــي زمــان واحد ، أو زمانين متقدمين ، وكانت الدواعي إلي نقلها متساوية أو متقاربة ، فــلا يجوز أن يظهر أحدهما ، ويظهر نقله ، ويخفي الآخر ، ويخفي نقله ، لأنهمــا إذا اجتمعا في السبب لموجب الظهور ، فيجب اجتماعهما في الظهور " قــال :" وقــد علمنا : أن القرآن لو كانت له معارضة من مشركي العــرب كانــت تكــون فــي الزمان المتقارب ، وكانت الدواعي إلي نقلها كالدواعي إلي نقل القرآن وأقوي منه علي ما أوضحناه ، ولأن المعارضة لو كانت ، لكانت هــي الحجــة دون القــرآن وكان القرآن هو الشبهة ، وكان ذلك مما يزيد في قوة الدواعي إلي نقلهــا ، وهــذا بين واضح لمن تأمله بعين النصفة " .

على أن أحداً لا يدعي أن أحداً من العــرب انتــدب لمعارضـــة القــرآن ، فعارضه ، أو عارض بعضه ، فلا وجه لتطويل الكلام في هذا الباب.

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون خوف السيف ، وعلو كلمة الإســلام أوجــب خفاء نقل المعارضة ، أو منع ابتدائها .

---

١٥٦ – **الإمامية** اسم يطلق على طوائف من الشيعة تؤمن بأن إمامة المسلمين تأتي نصاً لكل إمام من إمام معصوم سابق له، فيخالفون بذلك طوائف أخرى ويسميهم خصومهم بالرافضة أو الروافض، إما لرفضهم إمامة زيد بن علي، أو لرفضهم خلافة أبي بكر وعمر والإمامية جناحان كبيران في عصرنا الحالي الشيعة الإثني عشرية وهم يشكلون غالبية الشيعة اليوم الشيعة الإسماعيلية بجناحيها النزارية والمستعلية .

قيل له : أما ابتداؤها والإتيان بها لو لم يتعذر عليهم كان لا يجوز أن يكون ما ذكرتم مانعا لهم منها لأن الأحوال كانت علي خلاف ذلك ، وسنشبع القول فيه ، ونوضحه في الفصل الذي نذكر فيه : أن كفهم عن المعارضة لم يكن إلا للتعذر ، وأما النقل فلا يجوز أن يخفي لما ذكرتم . ألا تري أن عامة الأحوال مع قوة جملة الإسلام ، وظهور أمره لم يسلم من أن يكون فيها من كان يطعن علي النبي – صلي الله عليه وعلي آله – ويروم القدح في الإسلام .

فهذا يزيد بن معاوية – لعنه الله – لما حمل إليه رأس الحسين ابن علي(١٥٧) – صلوات الله عليه – جعل يقول :(١٥٨)

---

١٥٧ – الحسين بن علي (٤ هـ وقيل بعدها ـ ٦١ هـ) هو الحسين بن علي بن أبي طالب ، أبو عبد الله ، الهاشمي ، سبط رسول الله صلى الله علية وسلم وريحانته من الدنيا وأحمد سيدي شباب أهل الجنة . ولد بالمدينة وكانت إقامته بها إلى أن خرج مع أبيه إلى الكوفة ، فشهد معه الجمل ثم مع أخيه إلى أن سلم الأمر إلى معاوية فتحول مع أخيه إلى المدينة . روى عن جده وأبيه وأمه وخاله هند بن أبي هالة وعمر بن الخطاب . روى عنه أخوه الحسن وبنوه على زين العابدين وفاطمة وحفيدة الباقر والشعبي وآخرون . أخرج له أصحاب السنن أحاديث يسيرة . كان فاضلاً عابداً. قتل بالعراق بعد خروجه أيام يزيد بن معاوية .
[الإصابة١/٣٣٢؛وأسد الغابة٢/١٨؛ وتهذيب التهذيب ٢/٣٤٥، صفة الصفوة ١/٣٢١، والأعلام الزركلي٢/٢٦٣] .

١٥٨ – يروى أن يزيد دمعت عيناه لما حُمل إليه رأس الحسين وقال لحامله : لقد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . لعن الله ابن عبيد الله . أما والله لو أني صاحبه لعفوت عنه ، فرحم الله الحسين. أما والله يا حسين لو أنا صاحبك ما قتلتك ، ثم دعا بعلي الصغير بن الحسين ونسائه ، فأدخلوه عليه وعنده أشراف الشام . فقال لعلي : أبوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ، ونازعني سلطاني ، فصنع الله به ما رأيت . ثم أمر بإنزالهم في داره وأمر لهم بما يصلحهم ، وكان لا يأكل إلا وعلي معه . ثم أمر النعمان بن بشير أن يجهزهم بما يصلحهم ويسيرهم إلى المدينة مع أناس صالحين . ولما أرادوا الخروج دعا علياً فودعه وقال له : لعن الله ابن مرجانة أما والله لو أني صاحبه ما سألني خصلة إلا أعطيتها إياه ، ولدفعت عنه الحتف بكل ما استطعت ، ولو بذلت بعض ولدي ، ولكن الله قضى ما رأيت ، فكاتبني ، وانه إلّي كل حاجة تكون لك . ويروي ابن قتيبة أنه لما أدخلوا عليه رأس الحسين وأهله بكى حتى كادت نفسه تفيض . وبكى معه أهل الشام حتى علت أصواتهم . يروي المسعودي أن ابن زياد قال لقاتل الحسين : أنه كان خير الناس أما وأبا ، وخير عباد الله ، فلم قتلته ؟ ثم أمر بضرب عنقه (مروج الذهب ج٣ : ١٤١) وذكر الطبري أنه لما دخل على ابن زياد عشاء آل الحسين ، أمر لهم بمنزل وأجرى عليهم رزقاً وأمر لهم بنفقة وكسوة ثم سيرهم إلى يزيد.

وهذا يجعل الروايات الواردة في حسن معاملة عبيد الله ابن زياد ، ثم يزيد لابن الحسين الصغير وبناته ونسائه واستياء يزيد لقتله ، وبكائه عليه ومشاركة أهله نساء ورجالا في ذلك أصح من تلك التي تذكر

قسوتها وجفائها إزائهم ، ولا سيما أنه لم يكن هناك قتال شديد يثير نقمة وانفعالاً يمتد أثرهما إلى النساء والأطفال . وكان ما وقع على غير إرادتهم بل وعلى مضض منهم.

ولعل من الدلائل على ذلك ما رواه الطبري وابن قتيبة معاً من استمرار الصلات الحسنة ، والمكاتبات بين يزيد وعلي ابن الحسين ، وما كان من موقف هذا إبان ثورة المدينة حيث رووا أنه لا علي ولا أقاربه اشتركوا في هذه الحركة . وأن يزيد وصى قائد جيشه وأمره بأن يدنى مجلسه وأن يبلغه أنه وصل إليه كتابه ، وأن هؤلاء الخبثاء شغلوه عنه ، وأن القائد رحب به وأجلسه على السرير وبلغه رسالة يزيد (تاريخ الطبري ج ٤ : ٣٧٩) .

فأين هذه المعاملة الحسنة من افتراء المفترين من سبي أهل البيت وحملهم على الجمال بعد استشهاد الحسين ؟! فهذا من الكذب الواضح ، ما استحلت أمة محمد – صلى الله عليه وسلم – سبي هاشمية ، وإنما قاتلوا الحسين خوفاً منه ومن أن يزيل عنهم الملك . فلما استشهد فرغ الأمر وبعث بآله إلى المدينة . ولكن جهل الرافضة إليه المنتهى . ولا ريب أن قتل الحسين من أعظم الذنوب ، وفاعله والراضي به مستحق للعذاب ، ولكن ليس قتله بأعظم من قتل أبيه ، ولا قتل زوج أخته عمر ، وقتل زوج خالته عثمان .

والغريب أن هؤلاء المغرضين من أهل الكوفة الذين دعوا الحسين لتوليته هم الذين خذلوه وتخلوا عن نصرته ، وتسببوا بقتله ثم خرجوا يبكون عليه.

وختاماً لهذا الموضوع الخطير نقول كما قال المؤرخ المحقق "دروزة" : ونشهد الله على أننا لم نكتب ما كتبناه عن هوى أو بغض للحسين – رضي الله عنه – وعلى أننا نكن لهم أشد الاحترام والمحبة لصلتهم الشريفة برسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولكننا لا يسعنا أن نكتب غير ذلك إذا أردنا أن نلتزم المنطق والإنصاف والحق ؛ لأن الروايات التي تطمئن بها النفس لا تسمح بغيره . ولم ننفرد بهذه النتائج التي استنتجناها من الروايات . فهناك كثيرون غيرنا يشاركوننا فيها ، بل وإنه ليشاركنا فيها كل منصف متجرد عن الهوى من المسلمين على اختلاف طوائفهم . ونورد هنا قولين في ذلك أحدهما للإمام ابن تيمية ، والثاني للمؤرخ المحقق الشيخ محمد الخضري رحمهما الله .

وقد أورد الإمام ابن تيمية خبر ما تلقاه الحسين من نصائح كثيرة بعدم الخروج والتحذير من العواقب ثم قال : إنه لم يكن في الخروج مصلحة لا في دين ولا دنيا . وكان في خروجه وقتله من الفساد ما لم يحصل لو قعد في بلده . فإن ما قصده من تحصيل الخير ودفع الشر لم يحصل منه شيء بل زاد الشر بخروجه وقتله ، ونقص الخير بذلك ، وصار سبباً لشر عظيم ، وكان قتل الحسين مما أوجب الفتن (أنظر المنتقى من منهاج السنة ص ٢٨٧-٢٨٨) ، أما الشيخ الخضري فإنه عقب على حادث قتل الحسين قائلاً : وعلى الجملة أن الحسين أخطأ خطأ عظيماً في خروجه هذا الذي جر على الأمة وبال الفرقة والاختلاف وزعزع عماد ألفتها إلى يومنا هذا . وقد أكثر الناس من الكتابة في هذه الحادثة لا يريدون بذلك إلا أن تشتعل النيران في القلوب ، فيشتد تباعدها . وغاية ما في الأمر أن الرجل طلب أمراً لم يتهيأ له ولم يعد له عدته ، فحيل بينه وبين ما يشتهي وقتل دونه . وقبل ذلك قتل أبوه فلم يجد من أقلام الكاتبين من يبشع أمر قتله ، ويزيدون نار العداوة تأججاً . والحسين قد خالف يزيد ، وقد بايعه الناس ، ولم يظهر عنه ذلك الجور ولا العسف عند إظهار الخلاف حتى يكون في الخروج مصلحة للأمة (محاضرات الخضري : تاريخ الأمم الإسلامية ح ٢ : ٢٣٥) .

أنظر بتوسع العواصم من القواصم للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي ، بتحقيق محمود مهدي الاستانبولي ومحب الدين الخطيب .

لیت أشیاخي ببدر شهدوا　　جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلوا ، واستهللوا فــرحا　　ولقالوا : یا یزید ، لا شلل
لست من عتبة أن لم أنتقم　　من نبي أحمد ما كان فعل

فمن لا یتحاشى أن یقول ذلك ، أي مانع یكون في زمانه من نقل معارضته القرآن ، وهو السلطان المنتصب للخلافة(١٥٩) ؟

ثم الولید بن یزید بن عبد الملك بن مروان(١٦٠) علي ما روي یظن في أیـــام خلافته في المصحف ، وقیل حرقه ، ثم أنشأ یقول :

أتوعد كل جبار عنید　　فهل أنا ذاك جبار عنید ؟
إذا ما جئت ربك یوم حشر　　فقل : یا رب حرقني الولید

وهو القائل :

تلعب بالبرید هاشمي　　بلا وحي أتاه ولا كتاب

---

١٥٩ – الخلافة : یعرفها الماوردي " خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدین وسیاسة الدنیا.
والهدف منها هو إقامة الدین والالتزام بأحكامه سواء ما اتصل منها بأمور الدین المتعلقة بالعقیدة والعبـــادة ، أو تلك الأحكام المتعلقة بحیاة الناس ومعاملاتهم

١٦٠ – هو الولید بن یزید بن عبد الملك بن مروان و كان یلقب أبو العبـــاس (٧٠٦ – ٧٤٤ م). حكـــم ســـنة موادة من ٧٤٣ إلى ٧٤٤ م. أمه بنت محمد بن یوسف الثقفي أخي الحجاج. تولى الخلافة بعد وفاة عمه هـــشام بن عبد الملك كان من فتیان بني أمیة وظرفائهم وشجعانهم وأجوادهم، وكان یعاب علیه الانهمـــاك فـــي اللهـــو وسماع الغناء. له شعر رقیق وعلم بالموسیقى، وكان یضرب بالعود ویوقع بالطبل ویمشي بالدف على مـــذهب أهل الحجاز. ساءت القالة فیه، كثیر من الناس نفوا عنه ذلك وقالوا إنها شائعات أشاعها الأعـــداء وألـــصقوها به. نقم الناس علیه حبه للهو. قال الذهبي:لم یصح عن الولید كفر ولا زندقة بـــل اشـــتهر بـــالخمر والتلـــوط. فخرجوا علیه لذلك فبایعوا سرا لیزید بن الولید بن عبد الملك فنادى بخلع الولید، وكان غائبا عن دمشق ففاجـــأه النبأ، وقصده جمع من أصحاب یزید وعلى رأسهم محمد بن خالد القسري البجلي فقتلوه في قصر النعمان بـــن بشیر بالبخراء، وكان قد لجأ إلیه وحمل رأسه إلى دمشق فنصب بالجامع، وعرضت رأسه على أخیه ســـلیمان بن یزید فقال: بعداً له أشهد أنه كان شروباً للخمر ماجناً فاسقاً ولقد راودني على نفـــسي وكـــان الولیـــد أمـــر بالقبض على خالد بن عبد الله القسري البجلي وتعذیبه حتى مات ، فكان توجه ابنه محمد على رأس الجماعـــة التي قتلت الولید ، إنما كان انتقاما لوالده (خالد القسري) وأخذا بثأره. مات الولید وعمره ٣٨ سنة ومدة حكمـــه سنة واحدة.

فكيف يظن بأن نقل المعارضة للقرآن يخفي في زمانه ، أو كان يقع الكـف عنها ، لولا التعذر ، ثم كان في آخـر أيـام بنـي أميـة[١٦١] ، وأول أيـام بنـي العباس[١٦٢] ، مثل ابن المقفع[١٦٣] الذي تهوس : وأوهم الأغمار أنه ممن يعـارض القرآن ، ولم يتحاش ذلك .

---

١٦١ – الخلافة الأموية : (٤٠-١٣٢ هـ/٦٦١-٧٥٠ م) : بعد الصراع بـين علـي ومعاويـة رضـي الله عنهما واستشهاد علي تنازل الحسن بن علي رضي الله عنهما عن الخلافة، وأسس الخلافة الأموية ، وكان لـه جملة من الإصلاحات الإدارية منها: أنه نظم البريد، والشرطة، وأقام ونظّم ديوان الخاتم، وغيـر ذلـك مـن الإصلاحات، فكان أول من وضع أساس الإدارة المتقدمة للدولة الإسلامية الموحدة وتنسب إلى بني أميـة وقـد أقام الأمويون خلافتين سنيتين إحداهما في المشرق وعدد خلفائها ثلاثة عشر ، وكان قيام الخلافة سـنة إحـدى وأربعين للهجرة الموافق لسنة إحدى وستين وستمائة للميلاد ، وكان سقوطها على أيـدي بنـي العبـاس سـنة إثنتين وثلاثين ومائة للهجرة ، الموافق لسنة تسع وأربعين وسبعمائة للميلاد ، أما الخلافة الثانيـة فكانـت فـي بلاد الأندلس.

١٦٢ – الخلافة العباسـية (١٣٢-٦٥٦ هــ/٧٥٠-١٢٥٩ م)-Abasid Caliph (١٣٢-٦٥٦ A.H./٧٥٠-١٢٥٩ A.D.)

يرجع أصل العباسيين إلى العباس بن عبد المطلب عم الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم بذلك من أهـل البيت. بمساعدة من أنصار الدعوة العلوية إستطاع أبو العباس السفاح (٧٤٩-٧٥٤) و بطريقة دموية القـضاء على الأمويين و مظاهر سلطتهم، قام هو و أخوه أبو جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥) باتخـاذ تـدابير صـارمة لتقوية السلطة العباسية، في عام ٧٦٢ تم إنشاء مدينة بغداد. بلغت قوة الدولة أوجها و عرفت العلـوم عـصر إزدهار في عهد هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٩) الذي تولت وزارته أسرة البرامكة (حتى سنة ٨٠٣) ثم في عهـد ابنه عبد الله المأمون (٨١٣-٨٣٣) الذي جعل من بغداد مركزاً للعلوم و رفع من مكانـة المـذهب المعتزلـي حتى جعله مذهباً رسمياً للدولة.ويعد العصر العباسى الأول العصر الذهبى لبنى العباس، فقد سـيطر الخلفـاء العباسيون خلاله على مقاليد السلطة، ورغم ظهور بعض الدول المستقلة وأهمهـا الدولـة الأمويـة بالأنـدلس ودولة الأدارسة بالمغرب والدولة الرستمية في الجزائر ودولة الأغالبة فى تونس، إلا أن الدولة ظلت متماسـكة حتى نهاية هذا العصر. ثم بدأت في الضعف حتى سقطت على ايدي المغول ٤ مـن صـفر ٦٥٦ هــ= ١٠ فبراير ١٢٥٨م وانتقلت الى القاهرة وظلت خلافة اسمية هناك الى أن سقطت على يد العثمانيين بعد دخـولهم مصر ١٥١٧ م

١٦٣ – أبو محمد عبد الله المعروف بابن المقفع،(٧٢٤ ــ ٧٥٩ م) مؤلف وكاتب من البـصرة تقـول بعـض المصادر أن والده كان من أصل فارسي مجوسي لقب أبوه بالمقفع لأنه اتهم بالاختلاس لمال الخراج، فـضرب على يده فتشنجت، أمر المنصور بقتله لأسباب سياسية، وكان الوالي يكره فأمر بقتله.رافق الأزمات الـسياسية في زمن الدولتين الأموية والعباسية درس الفارسية وتعلّم العربية في كتب الأدباء واشترك في سـوق المربـد. نقل من البهلوية إلى العربية كليلة ودمنة. وله في الكتب المنقولة التي وصلت إلينـا الأدب الكبيـر والـصغير والأدب الكبير فيه كلام عن السلطان وعلاقته بالسلطان وعلاقته بالرعية وعلاقة الرعية بـه والأدب الـصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة من أعماله مقدمة كليلة ودمنة.

وفي أيام المأمون(١٦٤) ظهر الإلحاد ، وظهر الكلام في نصرة " المانوية"(١٦٥) و " الديصانية"(١٦٦) وبالأخيرة صنف " الدامغ " في " مطاعن القرآن " واختلف في مصنفه .

وصنف ابن الروندي " الفريد " في الطعن علي نبوة نبينا – صلي الله عليه – والقدح في معجزاته ، غير خائف ولا متحاش .

وصنف " التاج" في قدم العالم ، و " الزمرد " في إبطال النبوات ، وإذا كانت الأحوال علي ما وصفنا ، فكيف يظن : أن معارضة القرآن لو كانت يخفي نقلها ، سيما في زماننا هذا ، والباطنية(١٦٧) قد اتسعت أحوالهم ، وكثر بذلهم

---

١٦٤ – عبد الله المأمون بن هارون الرشيد. ولد عام ١٧٠هـ في الليلة التي مات فيها الهادي واستخلف أبوه وتوفي عام ٢١٨هـ. فترة الخلافة بالهجري: ١٩٨ –٢١٨. فترة الخلافة بالميلادي: ٨١٣ –٨٣٣.

١٦٥ – المانوية –أو المنانية كما ذكر ابن النديم في الفهرست – ديانة تنسب إلى ماني بن فتك المولود في عام ٢١٦ م في بابل. وقيل أن الوحي أتاه وهو في الثانية عشر من عمره حاول ماني إقامة صلة بين ديانته والديانة المسيحية وكذلك البوذية والزرادشتية، ولذلك فهو يعتبر كلاً من بوذا وزرادشت ويسوع أسلافاً له، وقد كتب ماني عدة كتب من بينها إنجيله الذي أراده أن يكون نظيرا لإنجيل عيسى. أتباع المانوية هم من تعارف عليهم أولا بإطلاق لقب الزنادقة.

١٦٦ – نسبة إلى أبي شاكر الديصاني، وهي من فروع الثنوية بوالديصانية بكسر الدال المهملة وسكون المثناة التحتية وتخفيف الصاد قوم يقولون بالنور والظلمة كالمانية إلا أن المانية يقولون النور والظلمة حيان والديصانة يقولون النور حى والظلمة ميت.

١٦٧ – يقول البغدادي في الفرق بين الفرق (٣٨٢) : " اعلموا أسعدكم الله أن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل وأعظم من الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم"، فالباطنية ليست مذهبا إسلاميا أو فرقة من فرق أهل الإسلام، وإنما هي مذهب وطريقة أراد بها واضعوها هدم الإسلام وإبطاله عقيدة وشريعة، كما ذكر ذلك الإمام الغزالي في كتابه "فضائح الباطنية". اختلف الباحثون في تحديد زمن ظهور مذهب الباطنية وهو خلاف مبرر، إذ من أصول مذهبهم عدم نشر عقائدهم وأفكارهم، فهم يأخذون العهود والمواثيق على من يدخل في مذهبهم ألا يظهر شيئا منها، ويعدون ذلك من أصول دينهم وأركانه التي لا يجوز الإخلال بها، ويرى الإمام السيوطي أن أول ظهور للباطنية كان في سنة اثنتين وتسعين للهجرة، وذهب البعض إلى أن ظهورهم كان سنة ٢٠٥هـ وقال آخرون سنة ٢٥٠ ، ويرى البعض أن ظهور مذهب الباطنية كان سنة ٢٧٦هـ حينما قام زعيمهم ميمون القداح بإنشاء هذا المذهب ولقبوا به لدعواهم أن لظواهر القرآن وأخبار النبي صلى الله عليه وسلم بواطن تجرى في الظواهر مجرى اللب من القشر، وتلك البواطن رموز وإشارات إلى حقائق معينة، وأن من تقاعس عقله عن الغوص

الأموال علي الاستدعاء إلي ما هم عليه من الجحد للتوحيد والنبوات ، فلو وجدوا سبيلا إلي ذلك لحصلوه بما لهم من طارف أو تليد .

وبمثل هذه الطريقة : يتبين أن معارضة القرآن لو كانت ممكنة في شئ من الأعصار التي هي بيننا وبين النبي – صلي ا لله عليه وآله – لأتي بها ، ولم يكن دونها مانع و لا حاجز .

فإن قيل : فقد حكي عن مسيلمة(١٦٨) ، وطليحة الأسدي(١٦٩) ، وبالأخير عن ابن المقفع : فصول عدة أدعي أنها معارضة للقرآن فما قولكم فيه ؟

قيل له : أول ما في هذا أنه مما يدل علي أن المعارضة للقرآن لم تقع ، لأنها لو وقعت لنقلت ، كما نقلت هذه الفصول التي ذكرتها ، ولم يمنع منها مانع ، كما لم يمنع من نقل هذه الفصول مع ما فيها من الركاكة والسخافة في النظم(١٧٠) والوضع.

في الخفايا والأسرار والبواطن، أبتلي بالأغلال والآصار التي يعنون بها التكليفات الشرعية، التي تنحل عمن ارتقى إلى علم الباطن فيستريح من أعبائه.

١٦٨ – مسيلمة الكذاب : هو أبو ثمامة مسيلمة بن ثمامة بن كبير بن حبيب الحنفي الوائلي ، ولد ونشأ باليمامة في القرية المسماة اليوم (الجبيلة) قرب العيينة بوادي حنيفة في نجد ، وفد على النبي – صلى الله عليه وسلم – مع قومه بني حنيفة عام ٩ هـ فأسلم متردداً ، ولما عاد ارتد وادّعى النبوة وأبطل جميع فرائض الإسلام ، وتفي النبي – صلى الله عليه وسلم – قبل القضاء على فتنته فانتدب له أبو بكر رضي الله عنه خالد بن الوليد سنة ١٢ هـ ، فهاجم ديار بني حنيفة فصمدوا له حتى استشهد من المسلمين ١٢٠٠ منهم ٤٥٠ صحابياً ، ثم انتهت المعركة بمقتل مسيلمة الذي صار مضرب المثل في الكذب (الأعلام ٧: ٢٢٦).

١٦٩ – طليحة بن خويلد الأسدي من قادة حروب الردة بعد وفاة النبي محمد سنة ١١ هـ (٦٣٢ م). ادّعى النبوة في قومه بني أسد وتبعه بعض طيء وغطفان في أرض نجد، إلا أنه هزم مع أتباعه على يد خالد بن الوليد في معركة بزاخة ودخل الإسلام على إثر ذلك. شارك طليحة في الفتوحات وقتل في معركة نهاوند سنة ٢١ هـ (٦٤٢ م).

١٧٠ – على العكس من ذلك تجد إحكام النظم وتناسبه في القرآن الكريم ، حيث يتناسب صدر الآية مع ختامها ، وتتسق الآية مع سابقتها ولاحقتها ، وتتناسب الكلمات مع حروفها في المقام الذي سيقت فيه حسب موقعها ودلالتها كأنما فُصلت لذلك تفصيلاً ، بل سيقت له على قدر يستدعيه المقام ويقتضيه المعنى ؛ هادئة في موضع التعقل ، رقيقة في معرض اللين ، قوية عند الشدة ، حانية عند الرحمة ، مناسبة في التذكير ، رقراقة في التبشير .. مع حسن السبك في جميعها. قف معنا عند قوله تعالى : "وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي

وجملة الكلام في هذا : أنها تنقسم قسمين : إما أن تكون كلاما مسترذلا لا ينحط عن كلام المتوسطين ، في العربية من أهل هذا العصر والأعصار التي كانت قبله . فكيف أن تبلغ مرتبة كلام فصحائهم ما جري هذا المجري . لا يخيل علي أحد أنه ليس يجوز أن يظن به أنه معارض للقرآن ، كما لا يجوز أن يظن أن أشعار الحبر الوردي تصلح أن تكون معارضة لأشعار امرئ القيس(١٧١) ، والنابغة(١٧٢) أو الأعشى(١٧٣) ، أو يكون المورد له أخذ ألفاظ القرآن فقدم منها البعض ، وأخر البعض وزاد فيها ونقص منها . ومثل هذا لا يعد معارضة ، لأنه لو عد معارضة لكان لا يتعذر علي المفحم إذا عرف وزن الشعر أن يعارض ديوان امرئ القيس وسائر الشعراء الفحول من القدماء والمحدثين – علي ما نبينه من بعد – ونحن نذكر تلك الفصول ونبين صحة ما قلناه :

الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ [الرحمن : ٢٦]" ثم ابحث معنا عن مرجعية الضمير في (عليها). علام ؟ .. لا شك أنها الأرض .. فأين هي ؟

إن المذكور قبلها : الجواري .. أي السفن .. فلماذا لم تذكر الأرض ؟ هل تعرف لماذا ؟ لأنها هي نفسها جارية .. إنها تجري في فلكها ، في فضاء السماء الدنيا ، ولكنا لا ندرك ذلك لأننا في داخلها .. إنها تجري بنا كما تجري السيارة بمقاعدها الداخلية فلا يتجاوز مقعد مقعدا ، ولا يختلف موضع إنسان عن آخر في داخلها .. ولولا جريانها ما جرى ليل وراء نهار ، ولا نهار وراء ليل "يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً " لأنهما يجريان معها جري الثوب مع صاحبه. أرأيت كيف تعانقت الآيتان ؟ وكيف تناسبت السابقة مع اللاحقة ؟ وكيف تناسبتا في سياق الامتنان ؟ .. ثم انظر كيف تناسب ذلك المعنى مع الامتنان بالعلم في صدر السورة: "الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ" وكيف تناسب مع ختامها : "تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ " بل انظر كيف تناسب قول : "الرحمن" في مستهل السورة مع ختام السورة قبلها : "مليك مقتدر" لتعرف أن المليك المقتدر هو الرحمن .. فتأمل كيف تعانقت السورتان ..!

١٧١ – هو امرؤ القيس بن حُجر بن الحارس الكندي من بني آكل المُرار ، يماني الأصل ينتهي نسبه إلى قحطان ، ولد بنجد أو بمخلاف السكاسك باليمن حوالي عام ١٣٠ ق . هـ ، اشتهر بلقبه واختلف في اسمه . وهو أشعر شعراء العرب على الإطلاق ، مات في أنقرة عام ٨٠ ق . هـ (الأعلام ٢: ١١).

١٧٢ – هو أمامة (ثمامة) زياد بن معاوية بن ضباب الذبياني الغطفاني المضري ، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى من أهل الحجاز ، وهو من أصحاب المعلقات . وقد عمّر النابغة طويلاً وكانت وفاته عام ١٨ ق . هـ (الأعلام ٣: ٥٥).

١٧٣ – هو الأعشى الكبير أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل بن شراحيل ، ينتهي نسبه لنزار ، يعرف بأعشى قيس ؛ لأنه من بني قيس بن ثعلبة الوائلي ، ويقال له أعشى بكر بن وائل ، مولده ووفاته بمنفوحة بالرياض ، وهو من شعراء الطبقة الأولى في الجاهلية وأحد أصحاب المعلقات ، أدرك الإسلام ولم يُسلم ، وقيل كان نصرانياً ، وكانت وفاته سنة ٧ هـ (الأعلام ٧: ٣٤٢).

فمن ذلك ما حكي عن مسيلمة الكذاب أنه قال : " والليل الأطخم ، والديب الأدلم ، والجزع الأزلم ، ما هتكت أسيد من محرم " وقال : " والليل الدامس ، والذئب الهامس ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس " وكان يقول : " والشاء وألوانها ، وأعجبها السود ، وألبانها والشاة السوداء ، واللبن الأبيض ،أنه لعجب محض ، وقد حرم المذق ، فما لكم لا تجمعون " وقال : " ضفدع بنت ضفدعين ، نقي ما تنقين ، أعلاك في الماء ، وأسفلك في الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين . لنا نصف الأرض ، ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون " .

وقال : " والمدريات ذرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما ، أهالة وسمنا ، لقد فضلتم علي الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ، ربعكم فامنعوه ، والمعتر فأووه ،والباغي فناوؤه " .

وهذه الفصول أبين سخافة ، وأظهر ركاكة من أن يحتاج إلي ذكرها في كتابنا هذا ، علي أنها ليست مما فيه شبهة علي أحد سمعها ، لكنا ذكرناها ليتعجب منها المتعجب ، وليعلم أنه لو كانت للقرآن معارضة في الحقيقة لنقلت ، كما نقل هذا الكلام السخيف الذي لو أراد بعض المتعلمين الذين تكون بضاعتهم في اللغة مزجاة ، إيراد أسجاع في هذا المعني لم يرض لنفسه بمثل هذا .

والرجل – أعني مسيلمة – وإن كان كذابا وقحا، فإنه كان رجلا من العرب ، ولم يبلغ به جهله إلي أن يدعي أنه يعارض بمثل هذا الكلام القرآن ، لأنه لو فعل ذلك كان يفتضح بين قومه ، وهو لم يوردها علي أنها معارضة ، وإنما كان يوردها علي أنها منزلة عليه ، وليس كل ما يقصد أن يدعي فيه أنه منزل من عند الله يمكن أن يقال فيه : أنه معارضة للقرآن ، لأنا لا ندعي إعجاز القرآن من حيث أنه منزل من عندا لله تعالي فقط ، بل لأوصاف أخر تخصه ، ألا تري أنه لا شك أن التوراة والإنجيل والزبور كانت منزلة من عند الله ، وان لم يثبت فيها الإعجاز .

ومن كلام هذا المهرص الكذاب : " ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى " وحكي " لقد من الله علي الحبلى ، أخرج منها نسمة تسعي ، من بــين صــفاق وحــشا ، وأحل لها الزنا ". وهذا الكلام ، وان كان سخيفا ، فإنه أسف مما تقدم من كلامــه ، والعلة فيه : أنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن ، لأنه أخذ الابتداء من قولــه : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ (١٧٤) فجعل " الحبلي " مكــان " أصــحاب الفيل " وكذلك فيما حكي من قوله : " لقد من الله علي الحبلي " أخذه من قــول الله عز وجل ﴿ **لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ** ﴾ (١٧٥) فجعل " الحبلي " مكان " المؤمنين " وقوله : " أخرج منها نسمة تسعي " من ألفاظ القرآن إلا قوله : " نسمة " فاكتــسي هذا الفصل ضربا من الزبرج(١٧٦) ، لما فيه من ألفاظ القرآن .

واعلم أن الشاعر يدخل لفظة من القرآن في بيت من الشعر ، أو يدخلها الكاتب في فصل من كتابه ، والمحاور في فصله من محاورته ، فيكتسب ذلك البيت ، وذلــك الفصل من العذوبة والرونق ما يصيره غرة في سائره ، وهذا مــن عجيــب مــا اختص به القرآن وفيه دلالة واضحة : أنه مباين لكلام البشر – والحمد لله .

وقد رأيت بعض من كان يتعاطى الفصاحة ، ويدعي البلاغــة مــن أهــل عصرنا هذا يعجب بفصل يحكيه عن طليحة الأسدي ، وهو :

"ما يفعل الله بتعفير خدودكم ، وفتح أدباركم ،أذكروا الله أعفة قياما " وكان يقول : ما هذا بكلام رذل ، وكان يوشح به ما كتب ، أقدره أنه منطوي عليه .

وهذا الفصل إنما صار له يسير من الرونق ، لأنه أدخل فيه شيئا من ألفاظ القرآن ، لأن الله تعالي يقول : ﴿ **مَّا يَفْعَلُ اللّهُ بِعَذَابِكُمْ** ﴾ (١٧٧) فأخذ هو أخذا " أذكــروا الله

---

١٧٤ – الفيل : ١

١٧٥ – آل عمران : ١٦٤

١٧٦ – الزبرج، بالكسر: الزينة، من وشي أو جوهر ونحو ذلك؛ هذا نص الجوهري. وقال غيــره: الزبــرج الوشي. والزبرج: زينة السلاح. وفي حديث علي، رضي الله عنه: حليت الدنيا في أعيــنهم وراقهــم زبرجهــا زبرج الدنيا: غرورها وزينتها. والزبرج: النقش. و الزبرج: الذهب

١٧٧ – النساء : ١٤٧

أعفة " من قوله تعالي : ﴿ **يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً** ﴾ (١٧٨) ومن قوله تعـالي : ﴿ **اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً** ﴾ (١٧٩) .

علي أن هذا القدر ، وبأضعافه لا يمكن أن يعرف حـال الكـلام ، وحـال المتكلم ، كما أن بالبيت الواحد ، وبالبيتين لا يمكن أن يعـرف حـال الـشاعر ، وبالفصل الواحد وبالفصلين وبالثلاثة لا يمكن أن يعرف حال الكاتـب والكتابـة ، وإنما يمكن أن يعرف ذلك إذا امتد نفس الكلام ،وظهر التصرف فيه ، ولهذا نقـول : أن بهذا القدر من القرآن لا يمكن أن يعرف إعجازه ؛ لأن هذا القدر وأضعافه قد يتفق فيه ما لا يمكن لصاحبه الاستمرار عليه .

فأما ما ذكر عن ابن المقفع في هذا الباب فهو أكثر ، ونحن نذكر طرفا منه وننبه به علي نمطه ، فإني رأيت كثيرا من الجهال يدخلون به الشبه علي أنفسهم ، فمن ذلك: " وأما الذين يزعمون : أن الشك في غير ما يفعلون ، وتنتهي الثقة إلـي ما يقولون ، أولئك ممن غضب عليهم ربهم ، إنه خبير بما يعملون ، الذين اتخذوا من دوني نصيرا ، أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون ، ومنهم من يتخذ أنـدادا من دون الله رجما بالغيب ، أولئك وراءهم شر ما يظنون " .

فانظروا – رحمكم الله – إلي صفاقة هذا الإنسان ، كيف جاء إلـي ألفـاظ القرآن، فحرفها عن مواضعها ، وأوهم أنها من كلامه ، فأفسد وضـعه ونظمـه ، وما أشبهه ، إلا بما حكي لي بعض أهل الأدب أنه أنشد قول المتنبئ(١٨٠) :

بقائي شاء ليس هم ارتحالا   وحسن الصبر زموا ، لا ، الجمالا

---

١٧٨ – آل عمران : ١٩١

١٧٩ – الأحزاب : ٤١

١٨٠ – أبو الطيب أحمد المتنبي، شاعر حكيم، وأحد مفاخر الأدب العربي، له الأمثال السائرة والحكم البالغـة المعاني المبتكرة. في شعره اعتزاز بالعروبة، وتشاؤم وافتخار بنفسه. و تدور معظـم قـصائده حـول مـدح الملوك. ترك تراثاً عظيماً من الشعر، يضم ٣٢٦ قصيدة، تمثل عنواناً لسيرة حياته، صور فيهـا الحيـاة فـي القرن الرابع الهجري أوضح تصوير. قال الشعر صبياً. فنظم أول أشعاره و عمره ٩ سنوات . اشـتهر بحـدة الذكاء واجتهاده وظهرت موهبته الشعرية باكرا وأبو الطيب كنيته أما لقبه فهو المتنبـي واسـمه أحمـد بـن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد الجعفي الكوفي الكندي ولد سنة ٣٠٣ هـ الموافق ٩١٥ م بـ الكوفـة فـي محلة تسمي كندة (وهم ملوك يمنيون) التي انتسب إليها وقضى طفولته فيها (٣٠٤-٣٠٨ هـ الموافـق ٩١٦-٩٢٠م). قتله فاتك بن أبي جهل الأسدي غربي بغداد سنة ٣٥٤ هـ الموافق ٩٦٥ م.

فقال : أخذ قول أبي تمام ، فنسخه ، وفسخه ، ومسخه ، يعني قوله :

قالوا : الرحيل . فما شككت بأنه نفسي

عن الدنـــيـــــا تريد رحيـــــــــلا

فأبلغت الحكاية المتنبئ ، فقال : هلا وهبه لقولي :

وحسن الصبر زموا والجمالا ؟

وابن المقفع أسوأ حالا من المتنبئ : لأنه ليس لكلامه مـــن الحـــسنات مـــا يوهب له السيئات . فتأملوا رحمكم الله كيف جاء إلي ألفاظ القرآن ، لأن " **غضب عليهم**" من ألفاظ القرآن ، وأنه " **خبير بما يعملون** " من ألفاظ القـــرآن ، وكـــذلك قوله : " أولئك لا يجدون وليا ولا هم ينصرون " كله من ألفاظ القـــرآن ، إلا أنـــه حرف وغير وأفسد اللفظ وسلبه حسنه بتغيير النظم ، وكذلك قوله : " ومنهم مـــن يتخذ من دون الله أندادا رجما بالغيب أولئك وراءهم " كل ذلك من ألفاظ القـــرآن. وليس له من الزيادة في هذا ألا قوله في أوله : " يزعمون أن الشك في غيـــر مـــا يفعلون " وهذا كلام مستدل من ألفاظ العامة والسوقة ، لأن إرادتهم نفو الشك عمـــا كانوا يفعلون ، فلم يصرح به ، وإنما أثبته في غير ما يفعلون .

ولعمري أن الفصيح قد يعدل عن التصريح إلي التلويح لكن علي وجه يكون أبلـــغ من التصريح ، وبألفاظ تكون أجزل من ألفاظ التـــصريح ويكـــون ذلـــك لغـــرض صحيح ، وذلك مثل قول الله تعالي : ﴿ **وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ (١٨١) أراد أني علي الهدي وأنتم في ضلال مبين ، فعدل عن ذلك إلـــي الإيجـــاز والتلويح بلفظ هو أشرف وأجزل وكان الغرض في هذا : بيان ذلك بما يكون أجمل ، والتنبيه عليه بما يكون ألطف ، وكلام هذا المختلف لا يحتمل ذلك لأنـــه أردفـــه بقوله: " عليهم غضب من ربهم " وهذا نبو في المعني الـــذي لـــه ، يعـــدل عـــن التصريح إلي التلويح ومن ذلك قوله تعالي : ﴿ **مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِـــنكُم مَّـــن يُرِيدُ الآخِرَةَ** ﴾ (١٨٢) فعاتبهم بألطف عتاب ، وجعل خطابهم أجمل خطاب ، ثم عقبه بقوله : ﴿ **وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ** ﴾ فكان عجز الكلام مطابقا لصدره ، واستمر الغـــرض

---

١٨١ – سبأ : ٢٤

١٨٢ – آل عمران : ١٥٢

فيهما علي منهاج واحد ، ومن زيادته أيضا قوله :" أولئك وراءهم شر ما يظنون " وهذا وان كان اللفظ لغو فإنه أخذه من معني قول الله تعالي : ﴿ **وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّـهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ** ﴾ (١٨٣) وكساه من لفظه الخسيس ما أزال رونقه وبهجته .

ومن كلام هذا الجاهل وأوهم أنه عارض : " قل أعوذ برب الناس المعاذ بصاحب البلد ، مالك البلد ، وباني البلد ، وساكن البلد ، من شر العاربة وأهل الطاغية الذي أضل صاحبه ، ومنع جانبه ، وحمي جاره من سكان المدر وخلاف العذر والعرر ".

تأملوا – رحمكم الله – حال هذا الجاهل في ادعائه أنه أورد معارضة ، ومن جاء إلي كلام فصيح شريف الوضع أو كلام متوسط ، أو مسترذل ، فأبدأ كل كلمة منه بكلمة نافرة أو غير نافرة ، هل يكون معارضا ؟ وهل يستحق ذلك أن يسمي معارضة ؟

فأما قوله : " أضل صاحبه ومنع جانبه " إلي آخر الفصل : فكلام لا يلاحن بعضه بعضا ؛ لأن قوله " أضل صاحبه " : ذم ، وقوله : " حمي جاره " : مدح . وقوله : " سكان المدر وخلاف العذر والعرر " لا ملاءمة بين بعضه والبعض ، وإنما طلب به السجع من أقبح الوجوه . علي أن سكان المدر لا مزية لهم في الشر علي غيرهم فلا وجه لتخصيص الاستعاذة من شرهم لولا عمي قلبه .

وقلنا أن هذا الفصل لا يصح بته علي وجه من الوجوه أن يسمي معارضة . لأنه جار مجري أن يقول الإنسان : " ونظنهم منتبهين وهم نيام ".

ويدعي أنه عارض قوله :

﴿ **وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظاً وَهُمْ رُقُودٌ** ﴾ (١٨٤) فلا يستحق أن يسمي معارضة بتة ؛ لأنه أبدل كل لفظة منه بلفظة ، وأتي بألفاظ وضيعة بدل ألفاظ شريفة .

ولئن جاز أن ذلك معارضة فلم لا يكون معارضا لقول امرئ القيس .

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا

لدي وكرها العناب والحشف البالي

---

١٨٣ – الزمر : ٤٧

١٨٤ – الكهف : ١٨

بأن يقول :

تخال الوحش في طل أرضنا

وفي بيتنا : التفاح والعنب البالي

ولم لا يكون معارضا لقوله :

خليلي مرا بي علي أم جندب

لنقضي حاجات الفؤاد المعذب .

بأن يقول :

حبيبيا سيرا بي علي أخت زينب

لنقضي أوتار الفؤاد المعذب ؟

ولم لا يكون معارضا لقول الكميت :

طربت وما شوقا إلي البيض أطرب

ولا لعبا مني وذو الشيب يلعب

بأن يقول :

لعبت وما ميلا إلي السمر ألعب

وما لهوا مني وذو السن يطرب ؟

أتري هذا الجاهل لم يعرف شيئا من نقائض جرير والفرزدق ولا معارضات امرئ القيس وعلقمة[١٨٥] ؟ ولم يتصور كيف كانت تجري المعارضات بين العرب ؟ وما عندي أنه خفي عنه ذلك لكنه أراد أن يسخر بما أتاه من بعض الجهال أو الأغمار.

علي أن كلام ابن المقفع إذا لم يدع أنه يعارض القرآن ليس من هذا الجنس ، بل هو من كلام الفصحاء .

١٨٥ – علقمة بن عَبَدة بن ناشرة بن قيس (توفي نحو ٢٠ ق.هـ/٦٠٣ م) معروف بعلقمة الفحل وهو من بني تميم، شاعر جاهلي من الطبقة الأولى. عاصر امرؤ القيس، وله معه مساجلات. أسر الحارث ابن أبي شمر الغساني أخا له اسمه شأس فشفع به علقمة ومدح الحارث بأبيات، فأطلقه. له ديوان شعر شرحه الأعلم الشن.

فإن قيل : فكيف يجوز أن يجود كلامه إذا قصد غير معارضـــة القــرآن، ويسقط إذا أرادها ، إلا أن يقولوا بالصرف .

قيل له : هذا ما نبينه ونوضحه في الفصل الذي نبين أن الأعجــاز تعلــق بالنظم والفصاحة جميعا ، وستجده أن شاء الله هناك شافيا كافيا .

ومن كلام هذا الجاهل – أعني ابن المقفع – : " ألا إن الذين اتخــذوا إلهــا من دون الواحد القهار ، لبئس ما يصنعون ، ولا تكونوا كالذين آمنوا ،ولــم يثمــر إيمانهم ، لظلمهم ، أولئك عليهم غضب من ربهم وهم لا يهتدون " والكلام في هذا كالكلام فيما تقدم ، الألفاظ كلها ألفاظ القرآن حرفها وأفسدها بالتقــديم والتــأخير ، والتبديل والتغيير ، ثم جاء إلي قوله تعالي : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَــانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ (١٨٦) فغيره بأن قال : " الذين آمنوا ولم يثمر إيمانهم لظلمهم " فجــاء إلــي ذلك النظم الشريف الرائع فنقله إلي النظم العامي .

ألا تري أن قوله تعالي : ﴿ **الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ** ﴾ جري علي منهاج ، وطريقة واحدة . فإنه جعل الفعل في الأول والآخــر للــذين آمنــوا فاتسق الكلام أحسن الاتساق ، وانتظم أحسن الانتظام . وهذا الغبي جعــل الفعــل الأول للذين آمنوا ، والفعل الثاني لإيمانهم ؛ لأنه قال : " لم يثمر إيمانهم " فحصل في الكلام بعض الاضطراب .

ولست أقول : أن هذا القدر لا يحتمل أن يقع في كلام الفصحاء ، ولكــن إذا أتي كلاما فصيحا فرام أخذ معناه بلفظ من عنده يكسوه ، فأقل مــا فــي بابــه أن يساويه ، وإن لم يجاوره ، فأما أن يسقط دونه فهو من أمارات الخذلان ، علي أنــا قد بينا : أن هذا الجنس من الكلام لا يستحق اسم المعارضة . ومــن أتــي بــه لا يصح أن يسمي معارضا علي مذهب العرب والعجم . فإن للعجم أيضا معارضــات

---

١٨٦ – الأنعام : ٨٢

علي مقادير لغاتهم ، وضربنا لصحة ما قلناه الأمثال بالأبيات التي أبدلنا كل لفظة منها بلفظة ، فاتضح الكلام فيه بحمد الله ومنه .

ومن كلام هذا الجاهل – وقيل : انه أوهم به معارضة قول الله تعالي : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ، إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ** ﴾ (١٨٧) تأمل صنيع الله بأهل الشام ، وقد شملتها الآثام ،وكثر فيها الإجرام ،فيومئذ حين أظلتهم الآكام ، والقادمين من السوق بالخيام ، أن ربك صب عليهم سوء العذاب ، انه لا يعجل العقاب ، ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب " .

تأملوا رحمكم الله هذا الفصل وما فيه من الخلل لتعلموا بعد هذا الإنسان عما تحراه ، وسقوط كلامه دون الغرض الذي رماه ، فإن أول الكلام من كلام الكتاب المقلين في البضاعة ، المتكلفين للصناعة ، وفي كتاب عصرنا من لا يلحق هذا الكلام شيئا وكلامه . فقوله : " شملتها الآثام ، وكثر فيها الإجرام " تطويل لا يفيد آخره ، إلا ما أفاد أوله ، ولعل ظانا يظن أنه مثل قول الله عز وجل :
﴿ **الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ، فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ** ﴾ (١٨٨) وليس ذلك كذلك ، لأن الطغيان هو مجاوزة الحد في الترفع والتكبر ، ومنه قوله تعالي : ﴿ **إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاء حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ** ﴾ (١٨٩) والخنا والفساد ليسا من ذلك في شئ .

وهذا الجاهل أخذ هذا من قول الله تعالي : ﴿ **وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ** ﴾ (١٩٠) فانظروا في حال الكلامين في جزالة اللفظ واختصاره مع أن فيها المعاني ليعلم أن ما بين الكلاميين ، ما بين الثرى والثريا ، وقوله : " إن ربك صب عليهم سوء العذاب " وقوله : " الجزاء الأوفى " كله من ألفاظ القرآن ؛ لأنه أفسد الوضع حين

---

١٨٧ – الفجر : ٦–٧

١٨٨ – الفجر : ١١–١٢

١٨٩ – الحاقة : ١١

١٩٠ – البقرة : ٨١

عقب " صب عليهم سوء العذاب " بقوله : " أنه لا يعجل العقاب " لأنه لا يحسن أن يقال : عذبهم . ثم يقال : لا يعجل العقاب ، لأن الإخبار بأنه لا يعجل العقاب إنما يحسن أن يكون توعدا مع المهل ، أو توعدا قبله ، أو بعد ذكر العفو ، فأما مع الأخبار بنزول العذاب فانه لا يحسن ، لكن يد الخذلان تصرفه كيف شاءت ، ولهذا لم يذكر الله عز وجل ترك تعجيل العقاب ألا مع ذكر المهل أو العفو ، وهما كقوله تعالي : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلاً** ﴾ (١٩١) . وكقوله : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ (١٩٢) وكقوله : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ** ﴾ (١٩٣) وكقوله تعالي : ﴿ **وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُم مَّا يَشَاءُ كَمَا أَنشَأَكُم مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ** ﴾ (١٩٤) إلي قوله : ﴿ **إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لآتٍ** ﴾

وقول هذا الجاهل : " ولهم الجزاء الأوفى يوم الثواب " كلام مختل ؛ لأن جزاء المخرج لا تعلق له بالثواب ، ومن كلام هذا الجاهل بعد هذا الفصل " يا أيها الناس قد نسب أهل العراق إلي الشقاق والنفاق ، وفي مائها الزعاق ،ويظهرون طاعتهم للخلاق ، وأن ربك هو أعلم بمن حاد عن طريقهم ، وهو أعلم بالمعتدين ، وأوفي للمهتدين " .

أما ابتداء هذا الكلام فهو أسجاع باردة ، لا فائدة فيها وهو من جنس كلام مسيلمة ، ولهذا قال أبو بكر لما بلغه شئ من كلام مسيلمة : " أنه كلام لم يخرج من اله " يعني من عند الله تعالي ﴿ **إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ** ﴾ (١٩٥) فأفسد النظم لأن قول الله تعالي اشتمل علي قسمة حسنة ؛

---

١٩١ – الكهف : ٥٨

١٩٢ – النحل : ٦١

١٩٣ – فاطر : ٤٥

١٩٤ – الأنعام : ١٣٣

١٩٥ – النحل : ١٢٥ ، القلم : ٧

لأنه بين أنه أعلم بمن ضل عن سبيله ، وبمن اهتدي ، وهذا الجاهل غيـــر ذلـــك، وأزال حسنه ، وجعله تطويلا غير مفيد ، لأن الحائد عن الطريق والمعتدي واحـــد ، مع أن فيه إبدال لفظة بلفظة ، وقد بينا أن ذلك لا يصح أن يسمي معارضة .

ثم قال هذا الجاهل :" ولئن أكرمه ، وأفاء من النعمة عليه ليتم لها شكره ،ثم يعرف بذلك ربه ، أنه رب عليم ، ورءوف حليم " وهذا كلام كما تري ركيك مـــن كلام الكتاب الذين لم يتقدموا في الصناعة ، ولم يؤتوا حظا من البراعـــة . ولهـــذا الجاهل كلام كثير يجري هذا المجري ، ولا فائدة في إطالة الكتاب بـــذكر جميعـــه بعد أن نبهنا علي نمطه وطريقه ، لئلا يغتر به مغتر .

ثم قال بعد فصول من كلامه : " وبقي أن تستوي حالة الكلامـــين بـــأن لا يتفاضل الاعتقاد فيهما ، فيعظم أحدهما ، ويصغر الآخر ، ثم تكثر تلاوة أحـــدهما كما كثرت تلاوة الآخر ، فيستعذب ألفاظ أحدهما كما يـــستعذب ألفـــاظ الآخـــر ، ويستفصحه كما استفصح الأول فبـــالألف ، يعـــذب المتلـــو ، ويـــستلذ المـــأكول والمشروب والمنكوح ، وبالتنكر والاستغراب ، ينفر عنه ، ،يبعد عن الـــصواب ، ولتمد به الحنجرة سخفاء الكتاب المتأخرين في البلاغة كتب كتابا يطن اللفظ ساقط المعني ، ثم يذكر أنه عارض به رسائل المتقدمين في صناعة الكتابة ، ثم اعتـــذر بما اعتذرت به ، فقال : يجب أن لا يتفاضل الاعتقـــاد فيهمـــا فـــيعظم كلامـــه ، ويصغر كلامي ، هل يكون جوابه عند أهـــل المعرفـــة بهـــذا الـــشأن إلا التبـــسم والاستسخاف لعقله ومعرفته ؟

وأما قوله : " وليكثر من تلاوته كما أكثر من تلاوة الآخـــر " إلـــي آخـــر الفصل ، إلي ذكره المأكول والمشروب والمنكوح ، كلام جاهـــل بالعبـــارات ، أو متجاهل ؛ لأن المعلوم من أحوال الناس وعـــاداتهم التـــي لا تكـــاد تخفـــي علـــي

المراهقين[١٩٦] فضلا علي البالغين المحصلين : أن الإكثار من الشئ تلاوة ، كانت فيما يتلي ، أو شربا فيما يشرب ، أو غير ذلك يوجب الملال ، ويسبب السآمة ، ويصور المتلو والمشروب والمأكول والمنكوح يصوره بما يستقل ، لهذا يعدل الانسان في هذه الأمور من شئ إلي شئ مستريحا إلى الثاني عند الملال من الأول ، ولهذا يستكثر من ألوان الطبيخ ، ولهذا يعدل في النكاح عن الحلال الحاصل إلي الحرام المستحدث ، وربما كان من يتمكن الانسان منها أصبح وجها ممن لا يتمكن ، وليس الغرض فيه إلا الاستلذاذ للجديد ، فالأمر فيما ذكره إذن علي العكس مما قاله .

فإن قيل : فنحن نعلم أن بعض أهل البلدان يستلذون من الأطعمة والملابس ما لا يستلذه أهل بلد آخر ، وليس ذلك إلا للألف .

---

١٩٦ – المراهق: من أَرْهقَنا الليلُ: دنا منا. وأَرهقْنا الصلاةَ: أَخَّرناها حتى دنا وقت الأُخرى. ورهِقَتْنا الصلاة رَهَقاً: حانت. ويقال: هو يَعْدُو الرَّهَقَى وهو أَن يُسرِعَ في عدْوه حتى يَرْهَقَ الذي يطلبُه. وراهق الغلامُ، فهو مراهِق إِذا قارب الاحتلام. والمُراهِق: الغلام الذي قد قارب الحُلُم، وجارية مراهِقة. ويقال: جارية راهِقة وغلام راهِق. (ابن منظور، مادة : رهق). ويوضح حسين عبد القادر وزملائه (١٩٩٣: ٧٠٤) أن مرحلة المراهقة من مراحل التطور تبدأ من البلوغ، وتتسم بحشد من التغيرات الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية بجنباتها المختلفة، وتدخل دراستها في إطار علم نفس النمو، وهي تقع بين الطفولة والرشد. وأصلها في اللاتينية الفعل Adolescere والذي يعني التدرج نحو الرشد بكافة أوجهه .. بينما يأتي اشتقاقها في اللغة العربية من الفعل "رهق" وهو ما يعني الحمق والجهل بقدر ما يعني دخول الوقت والدنو واللحاق والقرب، ويقال رهق الغلام أي قارب الحلم. وإذا كان من السهل تحديد بداية المراهقة ببدء البلوغ الجنسي، إلا أنه من الصعب الاتفاق على نهايتها التي يمكن أن تتحدد في جماع Synthese جديد يأتلف من عدة أبعاد منها: استقرار كل من الحياة الوجدانية والنفسية بعامة والاجتماعية بما يضمنه من تحمل المسئولية والاستقلالية والوعي بالذات ليكون المراهق (والمراهقة) هو نفسه كهوية مستقلة موجبة. والمراهقة بهذا المعنى – من وجهة نظر البعض – إنما هي صدمة أو هي مصدر لإحباطات شتى باعتبارها ميلاداً جديداً قد يؤدي إلى زملة من الأعراض تختلف باختلاف درجة النكوص إلى أي من مراحل التطور السابقة، وذلك عندما لا يستطيع الأنا شحذ طاقاته المتبقية في مواجهة هذا الصراع الفريد والممتد معاً (ضد الداخل والخارج)، وتخطي هذه المرحلة الحاسمة في البناء النفسي. آنئذ يكون النكوص للمراحل المبكرة أمراً محتوماً وخاصة عندما تفشل الصور الإعلائية أو الحلول الإفراغية التي يقوم بها الأنا فلا يملك غير الدفاعات المرضية في مواجهة الأخطار الناشئة.

قيل له : ذلك يكون إذا اختلفت الأجناس ، كما أن أهـل(طبرسـتان) (١٩٧) يستلذون خبز الأرز ، فوق ما يستلذون خبز البر ، فأما إذا كان الجـنس واحـدا ، فلا شك في مزية المستحدث الجديد . ولهذا قيل في المثل ، " لكل جديد لذة " .

ولهذا قالوا في القرآن : " **أنه لا يخلق ولا يمل علي كثرة الـرد** " فجعلـوا ذلك من آياته . ولا يكسب الملال إذا كثر ترديده ،ودامت تلاوته ، يجـري الأمـر فيه علي خلاف المعتاد ، علي أن ما ذكره لو كان صحيحا لبطـل التفاضـل بـين الأشياء في ذواتها ، وكان الفضل يرجع إلي المعتاد المتقادم ، وكان المكثر لإنشاء شعر الحبرزي إذا أنشد في النادر شعر امرئ القيس ، وكـان عارفـا بالـشعر ، ومحاسنه ومساوئه ، وبالفرق بين الكلام الفصيح وغير الفصيح ، يجـب أن يـري شعر الحبرزي علي طبقة من شعر امرئ القيس ، وهذا لا يرتكبـه إلا جاهـل ، فكان يجب علي هذا أن يكون الذي يكثر عنده الجواري الزنجيـات القبـائح ، إذا

---

١٩٧ – طَبَرِستانُ: معنى "الطبر" الآلة التي يشق بها الحطب، و"استان" الموضع أو الناحية كأنه يقول: ناحيـة الطبر. وهي بلدان واسعة كثيرة يشملها هذا الاسم، خرج من نواحيها من لا يُحصى كثـرة مـن أهـل العلـم والأدب والفقه، والغالب على هذه النواحي الجبال .وطبرستان في البلاد المعروفة بمازَنْدَران، ولا أدري متـى سميت بمازَندران فإنه اسم لم نجده في الكُتب القديمة، وإنما يُسمَع من أفواه أهل تلك البلاد، ولا شـك أنهمـا واحد. وهذه البلاد مجاورة لجيلان وديلمان، وهي بين الري وقومس والبحر وبـلاد الـديلم والجيـل. رأيـت أطرافها وعاينتُ جبالها وهي كثيرة المياه متهدّلة الأشجار كثيرة الفواكه، إلا أنها مخيفة وخِمَة قليلـة الارتفـاع كثيرة الاختلاف والنزاع. وفيما روى ثقات الفرس قالوا: اجتمع في جيوش بعض الأكاسرة خلـق كثيـر مـن الجُناة وجب عليهم القتل فتحرج منه وشاوَرَ وزراءه ثم قال: اطلبوا لي موضعاً أحبسهم فيه، فساروا في البلاد حتى وقعوا بجبال طبرستان فأخبروه بذلك فأمر بحملهم إليه وحبسهم فيه، وهو يومئذ جبل لا سـاكن فيـه، ثـم سأل عنهم بعد حول فأرسل من يخبر بخبرهم فأشرفوا عليهم فإذا هم أحياء لكن بالسوء فقيل لهم: ما تـشتهون؟ وكان الجبل أشِباً كثير الأشجار فقالوا :طَبرها طَبرها، والهاء فيه بمعنى الجمع في كلام الفرس يعنـون نُريـد أطباراً نقطع بها الشجر ونتخذها بيوتاً. فلما أخبر كسرى بذلك أمر أن يعطوا ما طلبوا فحمل إلـيهم ذلـك، ثـم أمهلهم حولاً آخر وأنفذ من يتفقدهم فوجدهم قد اتخذوا بيوتاً فقال لهم: ما تريدون فقالوا: زَنان زَنان، أي نريـد نساء فأُخبر الملك بذلك فأمر بحمل من في حُبُوسه من النساء أن يُحمَلن إليه فحُملن فتناسلوا فسميت طبرزنـان أي الفؤوس والنساء ثم عربت فقيل: طبرستان. هذا قولهم، والذي يظهر لي وهو الحق ويعضده مـا شـاهدناه منهم أن أهل تلك الجبال كثيرو الحروب، وأكثر أسلحتهم بل كلها الأطبار حتى إنك قل أن تـرى صـعلوكاً أو غنيا إلا وبيده الطبر، فكأنها لكثرتها فيهم سميت بذلك ومعنى طبرستان من غير تعريب موضع .

وجد رومية حسناء أن يكون استلذاذه للزنجيات القباح أشد ، وهــذا هــوس([198]) لا يظنه عاقل .

فأما مد الحنجرة به ، فأي تأثير له في مواقع الكلام ؟ أما يعلم هذا الجاهــل :أن الانسان قد يسمع كثيرا من الأبيات الملحنة من المغنين والقوالين ، ثم لا يخفي عليه إذا كان من أهل الصناعة : الفرق بين جيدها ورديئها وفصيحها ومسترذلها ، ثم لا يخفي عليه الفرق بين الردئ الذي سمعه ملحنا ، وبين الذي لم يــسمعه قــط ملحنا ؟ فأي تأثير في هذا الباب لمد الحنجرة ؟ لولا أنه كما قال عــز وجــل : ﴿ **فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ** ﴾ .

فإن قيل : فهبكم قد عرفتم التفاوت الذي بين القرآن ، وبــين كــلام هــذا الانسان ، وعلمتم أنه لا يصح أن تكون معارضة القرآن للوجوه التي ذكرتموهــا ، والأمثال التي ضربتموها ، فكيف تعرفه العامة والذين لا يعرفون ما ذكرتم وبينتم

قيل لهم : طريق معرفتهم ، هو أنهم يعرفون الأخبار التي تتواتر علــيهم ، أن مثلا أهل العراق ، ومن نحا نحوهم ، وكذلك الفرس وأشباههم تقصر فصاحتهم وبلاغاتهم في منثور الكلام ومنظومه عن فــصاحة العــرب مــن أهــل الباديــة وبلاغاتهم . إذا عرفوا ذلك وعرفوا عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن بما نبينه عرفوا عجز من دونهم ، لأنه لا يجوز أن يعجز عن الشئ من يكون فــي الطبقــة

---

١٩٨ – يعتبر الهوس من الذهان الوظيفي ، الهوس – شأنه شأن الاكتئاب – حالة مرضية تبدو أوضــح مــا تكون في الجانب الانفعالي للشخص ، والشخص في حالة الهوس يكون مناقضاً تماماً لحالة الاكتئــاب ، حيــث يكون مملوء بالنشاط والانشراح والسرور والبهجة والرضا عن النفس والسعادة بــالظروف التــي يعيــشها ، ويكون نشاطه الحركي وأيضاً الفكري سريعاً ومتعجلاً ، ويصرف انتباهه ويحوله مــن موضــوع لموضــوع بسرعة دون أن يتمها ، وعادة ينقص نشاطه التحكم والضبط ، ويكثر ضحكه وإلقاؤه للنكت حتى البذيء منهــا دون تحرج. وكثيراً ما يتعرض المهووس للهلاوس والأفكار الهذائية التي توحي بامتيــازه وبعظمتــه وتــساند حالة الانشراح والانبساط التي تميز انفعالاته وتنعكس على تصرفاته. ويرى التحليل النفسي في تفسيره لحالــة الهوس أنها رد فعلى لحالة أعمق في نفسية المريض هي حالة الاكتئاب. وحالة الهوس – كحالــة الاكتئــاب – أكثر احتمالاً للشفاء عن بقية الأمراض النفسية الأخرى ، ويندر أن تصيب الوظائف الذهني باضطراب ، كمــا لا يتخلف عنها تدهور عقلي واضح. (فرج طه وآخرون ، ١٩٩٣: ٨٢٩).

العليا من التمكن ، ولا يعجز عنه من يكون في الطبقة الدنيا فيحصل لهم العلم بهذا الاعتبار .

إن ما أتي به هذا الجاهل لا يصح أن يكونه معارضا للقرآن . وأن القــرآن معجز . والحمد لله رب العالمين علي ذلك .

الفصل الثالث

الكلام في بيان أن الإعراض عن المعارضة إنما كان للتعذر

فإن قيل : ولم ادعيتم أن العرب كفت عن معارضة القرآن لتعذرها عليهم ، وما أنكرتم أن يكونوا كفوا عنها وتركوها لبعض أغراض كانت لهم ، فإن الناس قد تصرفهم الصوارف عن كثير مما يتمكنون من فعله ؟

قيل له : قلنا ذلك لأنهم كفوا عن المعارضة وتركوها وعدلوا عن الاشتغال بها مع ما كان من النبي – صلي الله عليه وعلي آله – من التحدي لهم علي ما بيناه مع توفر دواعيهم لتوهين أمره ، وإظهار ما كانوا يدعون من اقترابه – صلي الله عليه – وحاشاه من ذلك . وقد علمنا : أن العقلاء إذا دعوا إلي أمر يكرهونه ، يهون عليهم لدفعه وأبطاله بذلك أموالهم وأنفسهم . وكان من يدعوهم إلي ذلك يدعوهم لحجة يبرزها ويدعيها وكانوا متمكنين من إيراد ما يدحضها ويبطلها ، ويكشف عن ضعفها ووهنا من غير ضرر يمسهم ،أو مشقة عظيمة تلحقهم ، فلا بد من أن يأتوا به ، ومتي لم يأتوا به ، دل علي أنهم غير متمكنين من الإتيان به ، ألا تري أن واحدا لو جاء وادعي النبوة في قوم ، وهم له كارهون، ولتكذيبه مجتهدون ، فقال لهم : معجزي أن من كلمته منكم في هذا اليوم لا يمكنه أن يجيبني ، ثم أخذ يكلمهم طوال النهار من غير أن يجيبه أحد منهم ، مع وفور بواعثهم علي توهين أمره ، وتنفير أصحابه عنه بإظهار كذبه ، دلنا ذلك علي أن جوابه قد تعذر عليهم ، وأن ذلك معجز له ، وهذا مما لا يخيل علي أحد أنصف نفسه أنه علي ما قلنا .

وجملة هذا الباب : أن كل من علمنا من حاله أنه لا يفعل فعلا ما ، مع توفر الدواعي إليه ، وقوة البواعث عليه ، ومع ارتفاع الموانع عنه ، وفقد الحواجز دونه، يعلم أنه لم يفعله إلا لتعذره عليه . ولولا ذلك ، لم يكن لنا طريق

من جهة الاكتساب يتوصل به إلي العلم بتعذر شئ علـــي أحـــد ، وفيمـــا ذكرنـــاه وأوضحناه دليل علي أن معارضة القرآن كانت متعذرة علي العرب .

فإن قيل : فأنتم بنيتم كلامكم هذا علي أن دواعيهم كانت متوفرة إلـــي مـــا ذكرتموه ، فدلوا عليه .

قيل له : من أوضح ما يدل علي قوة دواعي المرء إلي أمر من الأمـــور ، يعرف من حاله أنه قد بذل لطلبه ونيله ، والتوصل إليه أعز الأشياء عليه ، وقـــد علمنا أن أعز الأشياء علي الانسان : الـــنفس ، والمـــال ، والأرحـــام ، ووجـــدنا مشركي العرب من قريش وغيرهم قد بذلوا الأنفس والأموال . وقطعوا الأرحـــام لمعادة رسول الله – صلي الله عليه وسلم – ولإدخال الوهن عليه ، وإبطال ما كان يدعيه من النبوة ، وبذل هذه الأمور ، ولا تصح من العاقل ، لابتغاء أمر ، وطلب حال ، إلا إذا كانت دواعيه إليه ، وبواعثه عليه ، تكون قد بلغت في القـــوة مبلغـــا عظيما، حتى قاربت حد الإلجاء ، وإن لم يكن بلغته ، علي أن الأســـباب المقويـــة للدواعي والبواعث كانت حاصلة ، فلا بد من حصول قوتها لأن أقوي الدواعي أن ينظر الإنسان إلي نظرائه في النسب ، ويدعي عليهم الرياسة ، وأنه يجـــب لهـــم الانقياد له ، والخضوع لأوامره ونواهيه فيما يحكم عليهم ولهم في أنفسهم وأموالهم وأهاليهم وذراريهم . مع ذمه من خالفه منهم فلم يتبعه ، ولم ينقد لـــه ، وتكفيـــره إياهم . وذم أديانهم ، وما كان عليه آباؤهم وأسلافهم من غير رياسة بل يكون فيـــا لقوم من يزيد عليه في كثير من الأحوال ، ثم تكون أحواله مع ذلك فـــي ضـــمان القوة ، وأخذة في المزيد ، وأحوال القوم آخذة في جانب التراجع ، ماضية في حيز التهافت مع حصول تلقيهم بالإمكان لجميع ما ادعاه ، ودعاهم إليه وشدة امتعاضهم لذلك مع أن القوم يعرفون بالعصبية ، وشدة الحمية ، والقرآن مما كانوا يعتقـــدون أن عليهم فيه سبة وعارا ، وكل ما ذكرناه كانت أحوال القوم مع رسول الله صـــلي الله عليه وسلم ، فدل ذلك علي قوة دواعيهم إلي ما ذكرنا ، ولم يجز مع ذلك أن لا ينفع منه معارضه القرآن ، لولا تعذرها عليهم .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون القوم خفي عليهم أن معارضة القــرآن أبلــغ الأشياء في إبطال دعواه وأزالته عما كان يتوخاه ، فأعرضوا عنها إلي ما سواها ، واشتغلوا بما عداها .

قيل له : هذا لا يجوزه من عرف أحوالهم ؛ لأنهم كــانوا أعــرف الأمــم بمواقع المخاطبات ، ومذاهب المعارضــات ، إذ تلــك مــن عــاداتهم الــسالفة ، وسجاياهم الحالفة ، ولا يجوز أن يكون خفي عليهم ، أن معارضته لو تمكنوا منها تكون أبلغ الأشياء في توصلهم إلي مرادهم فيه ، لأنه – صلي الله عليه وآله – لــم يكن يدعي ما كان يدعيه لتمكنه من مال أو سلطان أو اقتدار أو تعــزز بــشريعة يصدرون عن أمره فيما يمثله لهم من محاربة عدو أو معاونة ولي ، وإنمــا كــان يدعي أنه رسول الله – صلي الله عليه – وأن شعاره ودثــاره الــصدق ومجانبــة الكذب ، ومن يكون كذلك لا يخفي علي العقلاء أن أبلغ الأشياء في تبديل حالــه ، وتفريق أصحابه ورجاله عنه إظهار كذبه فيما يدعيه ، ويقوله .

وهب أن ذلك يخفي علي الواحد والاثنين لغفلة تعرض – مع تعذر ذلــك – كيف يجوز أن يخفي ذلك علي العدد الكثير والجم الغفير ؟وهب أن ذلك يخفي مدة من الزمان يسيرة كيف يجوز أن يخفي ذلك ثلاثا وعشرين سنة ؟ وهب أنهم ظنوا في أول الأمر أنهم يقمعونه بالحرب والقتال . كيف يظنون ذلك بعد ما كشفت لهــم تلك الحروب عن قوة أمره . وضعف أمرهم ، بل قتــل كثيــر مــن صــناديدهم وساداتهم حربا وصبرا ، وسبي كثيرا من ذراريهم ، ونفي كثير منهم عن أوطانهم وهذا أوضح من أن يحتاج له إلي تطويل الكلام .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون ذلك خفي علــيهم ، لأنهــم كــانوا أخــوان الحروب ، وأصحاب الفارات ، ولم يتواتر أن ضربوا في الجدل وطرائقه بــسهم ، ولا ثبت لهم في ذلك قدم ، ولم يكن النظر في الديانات ، والبحث عــن صــحيحها وسقيمها ، والتنقير عن الطرق المؤدية إلي الفصل بين الحجج والشبه من عاداتهم.

قيل له : هذا ما لا يجوز أن يخفي عليهم ؛ لأن علمهم بالمعارضات وطرقها كان أقوي علومهم ، ومعرفتهم بها أكثر معارفهم ، و ما يجري هذا المجري يكون العلم به ضروريا ، ثم العلم بأن من ادعي حالا من الأحوال واعتصم لصحته بأمر من الأمور ، فأقوي الأشياء في إيضاح كذبه ، والإبانة عن افترائه وتقوله ، هو تبيين فساد ما اعتصم به ، وسقوط ما التجأ لتصحيح دعواه إليه من العلوم الضرورية التي يشترك فيها العقلاء ، والمراهقون الذين قارنوا كمالا لعقل ، وان لم يكونوا بلغوه ، ولهذا تري المختلفين في قيمة سلعة إذا ذكر المغالي بها سلعة علي صفة ، يجب أن يغالي بقيمتها من أجل تلك الصفة التي تحد المخالف له في ذلك أن يطعن في تلك الصفة ، وينازع فيها ، ولا يشتغل بغير ذلك ، وتجد الصبيين إذا ادعي أحدهما أمرا ، أحسن صراعا من الآخر لوجه يورده تري المباري له ينازعه في تلك الصفة يحاول إيراد ما يمنعه من الاحتجاج بها ، ثم تجد أحوال أصحاب المهن من الصناعات ، والمشتغلين بالزراعات يستوون فيما ذكرناه ، ويتبارون فيما حكيناه ، فإذا ثبت ذلك بأن ما ادعوا خفاءه علي العرب من أحوال المعارضات باطل ، لا يدعيه عاقل .

علي أنهم بعد مهاجرة النبي – صلي الله عليه – إلي المدينة قد خالطوا أهل الكتاب ، واستعانوا بهم ولهذا انضم قريش وغطفان(١٩٩) بعضها إلي بعض ، وانضم إليهم اليهود الذين كانوا حول المدينة ، يوم الأحزاب ، واجتمعوا وتناصروا ، وكان الساعي في ذلك والجامع لشملهم ، والمؤلف بينهم " حيي بن أخطب(٢٠٠) " وهو القائل لرسول الله – صلي الله عليه – يوم قريظة(٢٠١) حين قدم لضرب عنقه " يا محمد ما لمت نفسي في عداوتك " .

---

١٩٩ – بنو غطفان بن سعد أو غطفان قبيلة عربية من قبائل الجاهلية وصدر الإسلام ينتسبون إلى غطفان بن سعد بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معدّ بن عدنان سكنوا بادية نجد إلى الحجاز جهة وادي القرى و بوادي المدينة المنورة تفرقوا في البلدان بعد الفتوحات الإسلامية.

٢٠٠ – حيي بن أخطب بن سعية ، من سبط اللاوي بن نبي الله إسرائيل.

٢٠١ – بنو قُرَيْظة: قبيلة يهودية كانوا حلفاء الأوس، وكانت ديارهم بضواحى المدينة (سيرة ابن هشام ٣ / ١٤١ ، تاريخ الطبري ٢ / ٥٨١)

واليهود كانوا يتعاطون النظر في الديانات ، وكذلك النصارى ، فهلا تهيأ لهم من ذلك ما خفي علي مشركي العرب ؟ وهلا اهتم بها – أعني اليهود والنصارى – إذ كان فيهم الفصحاء والبلغاء وأرباب الألسن ، لولا علمهم بتعذرها عليهم .

علي أن ما روي عن الوليد بن المغيرة ، وعتبة بن ربيعة ، وأمية بن خلف فيما تقدم لذكره ، يدل علي أن القوم كانوا فطنوا لذلك ولم يكن خفي عليهم ، وكانوا قد صرفوا هممهم إلي الاشتغال به ، فبان أن الذي أوجب كفهم هو التعذر . وإنما كان لسهو عرض لهم . وخطأ في التدبير أتفق عليهم ، فقد يعرض السهو فيما يكون العلم به ضرورة ، ويتفق الخطأ والذهاب عن الرأي في كثير من التدبير .

ولهذا تجد الخطأ يكثر في تدبير العقلاء في الحروب والسياسات والأمور العامة والخاصة .

قيل له : أن الذي يجري هذا المجري من الخطأ والانحراف عن الصواب أن اتفق يتفق للواحد والاثنين ، والمرة بعد المرة . فأما أن يكون العدد الكثير من العقلاء ، تمر عليهم السنون ، وتكر عليهم الأعوام ، وهم علي ضرب من السهو فيما يكون العلم به ضرورة ، ولا يتنبهون عليه ، ولا يتنبه عليه واحد منهم ، علي مر الزمان ، وتطاول الأعوام ، فذلك مما يستحيل ، ولا يجوز توهمه .

فإن قيل : أن القوم كانت لهم صوارف صرفتهم عن الاشتغال بالمعارضة . فقابلت تلك الصوارف تلك الدواعي التي دعتهم ، ولا يمتنع في الدواعي والبواعث أن يقابلها الصوارف ، فلا يحصل الفعل الذي دعت الدواعي إليه ، وإن كان ممكنا غير متعذر .

قيل له : لا سبب إلي إدعاء صوارف مجهولة ، ولا صوارف غير معلومة . لأن ذلك يؤدي إلي أن لا يمكن الفصل بين ما يتعذر فعله علينا ، وما لا يتعذر . فإذا ثبت ذلك . فالصوارف المعلومة لا تخلو من وجوه نذكرها ، أما أن

تكون طلبتهم الراحة ، وفرارهم من التعب الذي يلحقهم بالإتيان بالمعارضة أو إيثارهم الإبقاء عليه – صلي الله عليه – حشمة له ، وكراهة لمكاشفته ، واستشعارهم خوفه ، وخشيته ، واستهانتهم به ، واشتغالهم بالحروب ، أو ظنهم أن غير المعارضة أجدي عليهم ، وأدني إلي مرادهم .

ولا يصح أن يقال : أن القوم مالوا إلي طلب الراحة ، من الاشتغال بالمعارضة ؛ لأنهم قد باشروا بمعاداته – صلي الله عليه – أمورا ، هي أكثر تعبا وأشد نصبا ، وأعظم خطرا ، من المعارضة .

فإنهم بذلوا الأموال والمهج ، وحاربوا حتى قتلوا وقتلوا وفرقوا كلمة العشيرة ، وقطعوا الأرحام القريبة ، وواصلوا أولي الأسباب البعيدة ، ولا يخفي علي أحد من العقلاء : أن المعارضة لو أمكنتهم كانت تكون أقوي مشقة، وأقرب متناولا ، وأيسر مطلبا ، وأذهب مع الراحة ، وأدني إلي السلامة .

ولا يصح أن يقال : أنهم آثروا الإبقاء علي رسول الله – صلي الله عليه – واحتشموه وكرهوا مكاشفته ؛ لأن القوم لم يدعوا من قبح معاملته – عليه السلام – بابا إلا قرعوه ، بل ولجوه ، حتى حملوا أختانه علي طلاق بناته – صلي الله عليه – فقالوا : نشغله بهن حتى لا يتفرغ إلي ما هو فيه ، فأجابهم إلي ذلك عتبة وعتيبة ابنا أبي لهب ، وردهم أبو العاص بن الربيع[٢٠٢] ، وقالوا لأبي طالب: ندفع إليك فتي قريش وأصبحهم وأفصحهم : عمارة بن الوليد بن المغيرة[٢٠٣] لتتبناه ، وتدفع إلينا محمد فنقتله ، فقال أبو طالب : بئس الرأي رأيتم لي ، آخذ ولدكم للتربية ، وأسلم ولدي للقتل ؟ وكتبوا الصحيفة علي بني هاشم وبني المطلب علي

٢٠٢ – أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي. الذي اشتهر بالأمانة في المعاملات التجارية التي كان يقوم بها، راعيا للتجارة في رحلاته إلى الشام صيفاً وشتاءً.

٢٠٣ – هو عمارة بن الوليد بن المغيرة المخزومي . إبن الوليد بن المغيرة من أكثر الذين أظهروا العداء للنبي وللإسلام وأخو سيدنا خالد بن الوليد سيف الله المسلول وفارس فرسان الإسلام الذي تدرس خططه العسكرية حتى الآن حيث انه من القادة المعدودين في التاريخ الذي لم يخسر معركه في حياته سواء في الجاهلية أو بعد إسلامه .

ألا يؤوهم ، ولا ينكحوهم ، ولا ينكحوا إليهم ، وأحلوا كثيرا من أصحابه – صلي الله عليه – إلي المهاجرة إلي الحبشة([204]) وإلي المدينة . واجتمعوا في دار الندوة يدبرون عليه.

كما حكي الله تعالي ذلك عنهم بقوله تعالي : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللّهُ وَاللّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ ([205])

وهذا يسير من كثير مما عاملوه به – صلي الله عليه – بل طل من وابل . بل وشل من بحر . فكيف يظن بهم أنهم آثروا الإبقاء عليه ؟

ولا يصح أن يقال : أن القوم تركوا المعارضة خوفا عليه ولأصحابه ، وخشية لهم ؛ لأن جميع ما قدمنا يدل علي أن القوم لم يخافوه ، ولم يحذروا جانبه . ولا يصح أن يقال : أنهم أعرضوا عن حديث المعارضة ، استهانة به – صلي الله عليه – وقلة اكتراث بأحواله ؛ لأن جميع ما قدمناه يبين أن القوم كانوا مهتمين بأمره ، بل كانوا قد جعلوا الاشتغال أوكد مهماتهم ، ثم الحروب التي جرت بينهم

---

٢٠٤ – أرض الحبشة : هضبة مرتفعة غرب اليمن بينهما البحر ، وعاصمتها أديس أبابا ، ولهم صلات قديمة مع العرب ، ولملكهم موقف يذكر ويشكر مع المسلمين الأوائل الذين هاجروا إليه فوجدوا في كنفه ملجأ وحسن جوار. حيث كانت الحبشة المكان الأول الذي ضم وأحتضن المسلمين الأوائل عند هجرتهم الأولى وهربهم بدينهم الحنيف وفرارهم من كفار مكة. وبالرغم من أن الصلات بين الأحباش والمسلمين كانت في عهد الرسول الكريم طيبة وودية ، إلا أنه بدأت بعض الاحتكاكات بين الأحباش والدول الإسلامية بعد ذلك منذ عهد عمر بن الخطاب . ويذكر أن ميناء جدة تعرض لغارات الأحباش مما أضطر المسلمين لرد هذا العدوان ، وقد سجل لنا التاريخ مراحل متعددة بين ممالك الطراز الإسلامي ومملكة حبشه المسيحية فقد طمع الأحباش في مد سلطانهم لهذه الممالك التي تتحكم بحكم موقعها في منطقة القرن الأفريقي في التجارة الخارجية عبر المحيط .وقد أرسلت الملكة " هيلانة " ملكة الحبشة في عام ١٥١٠ رسولاً إلى الملك " عمانويل" ملك البرتغال بهدف الاتفاق على عمل مشترك ضد القوى الإسلامية ، لكنها أيضاً كانت تنوي مهاجمة مكة وهي في هذا بحاجة لمساعدة الأسطول البرتغالي الذي أحرز انتصارات حاسمة على الأساطيل الإسلامية في المحيط الهندي.وقد استجابت البرتغال لهذا الطلب الحبشي وأرسلت قوة على رأسها أحد أبناء فاسكوداجاما ، وقد منيت القوات البرتغالية بخسائر فادحة وقتل قائدها – لكن لم تستطع القوارب الإسلامية أن تحقق نصراً على الحبشة والقوات المؤازرة لها.

٢٠٥ – الأنفال : ٣٠

وبينه – صلي الله عليه – بعد مهاجرته إلي المدينة ، توضح جميع ما قلناه من أنهم لم يحتشموه ، ولم يخافوه خوفا يصرفهم عن ايحاشه ، ولم يستهينوا به استهانة دعتهم إلي ترك الفكر فيه ، والانشغال بأحواله .

ولا يصح أن يقال : إن اشتغالهم بالحروب صرفهم عن المعارضة ، وأقطعهم دونها ، وصدهم عنها لأنه كان بين مبعثه – صلي الله عليه – وأول وقعة عظيمة ، وقعت بينه وبينهم وهي وقعة بدر نحوا من خمسة عشر سنة . فأين كانوا طول هذه المدة ؟ ثم كان بين وقعة بدر ووقعة أحد نحو سنة ، ثم من بعد ذلك أيضا لم تكن الوقائع بحيث لا تنفس ، ولا ترجئ من الأعنة ، وكثير من تلك الوقائع هم الذين كانوا يبتدؤنها فهل عدلوا عنها إلي المعارضة لو كانت ممكنة لهم ؟ علي أن الحروب لا تمنع من المعارضات .وهذا واضح .

ولا يصح أن يقال : أنه خفي عليهم أن المعارضة أجدي عليهم وأدني إلي ما طلبوه من توهين أمره ، لما بيناه من قبل أن ذلك مما لا يجوز أن يخفي علي المراهقين فضلا عن العقلاء ، وأن العلم بذلك من علوم الضرورة .

فإن قيل : ما أنكرتم أن تكون الدواعي دعتهم إلي تكذيبه وإبطال دعواه ، وتوهين أمره دون معارضة إذ كان ذلك غرضهم ومرادهم ، فمن أين لكم أن الدواعي دعتهم إلي المعارضة ؟

قيل : قد علمنا أن الداعي إلي الشرع داع إلي أبلغ ما به يتوصل إلي سبحانه ،إذا كان ذلك من أيسر الأمور وأسهلها في التوصل إليه ، ألا تري أن من دعاه عطشه إلي شرب الماء ، فإنه يدعوه إلي استدعائه ، إن كان ذلك أخف وأيسر أو استعبابه إن كان ذلك أدني وأسهل ، أو اشترائه إن كان ذلك أهون وأقرب . فإذا ثبت ذلك ثبت أن الداعي لهم إلي إبطال أمره وتكذيب دعواه ، وإفساد حاله – صلي الله عليه – كان داعيا لهم إلي المعارضة لعملهم بأنهم لو أتوا بها كانت أبلغ الأشياء في التوصل إلي مرادهم ، مع أنها أسهل الأمور في ذلك وأيسرها ، ويمكن أن يورد هاهنا أسئلة ضعيفة تركنا ذكرها ، لوجهين ، أحدهما :

ما كان من كراهتنا لتطويل الكتاب. والثـــاني : أن مـــا قـــدمناه مـــن الابتـــداءات والأجوبة يأتي عليها ، إذا تأملها المتأمل ، ونظر فيها الناظر .

علي أن القرآن لا بد من أن يكون قد وقع علي وجه يكون بوقوعــه عليــه ناقضا للعادة ، أو يكون وقع خلاف ذلك الوجه بأن يكون وقع كما يقع سائر الكلام المعتاد ، فلا بد من أن تكون العرب عارفة بذلك ، لأن أحوال الكلام لم تكن تخفي عليهم ، فأن كانوا عرفوه ناقضا للعادة ، فقد بأن أنهم تركوا معارضـــته لتعـــذرها عليهم ، وأن عرفوه جاريا مجري الكلام المعتاد ، فلا وجه مـــن أجلـــه يكونـــون تاركين لمعارضته ، وإذا لم يعارضوه فقد صح أنهم تركوهـــا للتعـــذر ، لوقـــوع القرآن علي وجه يكون ناقضا للعادة ، ولا يصح أن يقال أنهم شكوا في حال ، لأن علمهم بمثل هذا علم ضرورة ، علي أنهم لو شكوا كان أقل مـــا يكـــون مـــنهم أن يجربوا أنفسهم ، ليحصل لهم العلم به بذلك فيعود الأمر إلي ما قلناه ، من أنه لا بد من أن يكونوا عرفوا ذلك ، وتحققوه ، ولا يصح أن يقال : تركـــوا معارضـــته ، لأنهم وجدوه كسائر الكلام المعتاد الذي كان يجري بينهم دائمـــا فـــي محـــاوراتهم ومخاطباتهم ، لأن العلم بأنه بخلاف ذلك علم ضروري . ولأن ذلك لو كان كـــذلك لجري مجري أن يدعي النبوة ، ويتحداهم بأنـــه يأكـــل ويـــشرب ويقـــوم ويقعـــد ويتصرف كما يتصرف غيره ، ويجعل ذلك معجزته – صلي الله عليه – وهـــذا لا يجوز أن يقع من العاقل الذي يكون غرضه أن يعظم في الصدق ، ويعتقد فيه أنـــه ممن يجب أن يطاع ، وأن يأتمر الخلق لأوامره ، وينزجروا عند زواجـــره ، لأن ذلك مما يجري مجري التسوية بالنفس إليه يؤدي إلي أن يسخر منه ويستهزأ بـــه ، ويسقط بإيراده من العيون ، وتنحط منزلته ، لأن ذلك مما ينفر عنـــه أصـــحابه ، ويمكن أعداءه من التسلق عليه ، ولأن ذلك لو كان كـــذلك لاحـــتج بـــه الأعـــداء وقرعوه ،وقرعوا أصحابه ، وهذا يوضح بطلان قول من يتعلق بذلك .

الفصل الرابع

الكلام في بيان أن القرآن يجب أن يكون معجزا إذا تعذرت معارضته

فإن قيل : فلم قلتم أن تعذر المعارضة إذا ثبت يكون القرآن معجزا ؟

قيل له : لأنه قد ثبت أن المعجز هو ما يظهر علي بعض الناس مما يتعذر الإتيان بمثله علي جميع البشر ، لحسنه أو لصفة تخصه ، فإذا ثبت ذلك ، ثبت أن الإتيان بمثل القرآن قد تعذر علي جميع البشر ، وثبت أنه معجز ، وأنه جار مجري إحياء الموتى ، وفلق البحر ، وقلب العصا حية ، والمشي علي الماء .

فإن قيل : ولم ادعيتم تعذره علي جميع البشر ، وإنما بينتم حال العرب ، وتعذره عليهم ؟

قيل له : قد علمنا أن البشر أجمع ثلاث طبقات .

أحدها : عوام الفرس ، والهند والروم والزنج[٢٠٦] ، ومن جري مجراهم من سائر الأمم ، الذين لا علم لهم بشئ من لغات العرب بتة ، ولا سبيل لهم إلي نظم سطر واحد منها علي وجه من الوجوه .

والثانية : هم الذين تعلموا اللغة وتكلفوا معرفتها ، وهم طبقات : فمنهم من لم يتعلق منها إلا باليسير الذي لا تأثير له ، ومنهم من تجاوز ذلك إلا أنه لم يبلغ مبلغا يعد به في الفصحاء ، ولا يتأتي له التصرف في شئ من أقسام الكلام علي وجه يعد فصاحة وبلاغة ، ومنهم من تجاوز ذلك إلي أن كاد يناطح فصحاء العرب ، ويباريهم في أقسام المنظوم ، وأصناف المنثور .

---

٢٠٦ – الزنج : اسم اطلقه جغرافيو العرب على ما يعرف اليوم بالمحيط الهندي الجنوبي المجاور لشاطئ افريقيا الشرقي (القاموس ، ج٣ ، ص ٨٩)

والثالثة : هم فصحاء العرب الذين حصلت لهم مزايا الفصاحة طبعا لا تكلفا ، وسجية لا تعملا ، ولا إشكال علي أحد في أن الإتيان بمثل القرآن متعذر علي الطبقة الأولي ، الذي لا معرفة لهم بشئ من لغات العرب ، والطبقة التي يلونهم ، وهم الذين أخذوا منها يسيرا لا يؤبه لمثله ، والطبقة الذين يجاوزونهم ، إلا أنهم لم يلحقوا بشأن الفصحاء ، ولم يحلوا بواديهم ، وهؤلاء لا يتعذر عليهم صياغة بيت من الشعر لكن لا يعد في الفصاحة ، وإنشاء رسالة ، أو خطبة لكن لا يحكم لهم بالبلاغة ، وإنما يقع الاشتباه في حالة الطبقتين الأخريين ، وهم الذين بلغوا من هؤلاء مرتبة الفصحاء ، ولحقوا بدرجة البلغاء ، وتصرفوا في أقسام الكلام ، ثم فصحاء العرب الذين جاوزوا الفصاحة والبلاغة طبيعة وجبلة .

وقد بينا تعذر الإتيان به علي هاتين الطبقتين بما تقدم بما لا فائدة في إعادته ، فإذا ثبت ذلك وثبت أن جميع البشر لا يعدون الأقسام التي ذكرناها ، ثبت تعذره علي جميع البشر ، وإذا ثبت تعذره علي جميع البشر ثبت أنه معجز علي ما بيناه . علي أنه إذا ثبت أنه قد تعذر علي فصحاء العرب . وهم الطبقة العالية في هذا الباب فتعذره علي الطبقة التي هي دونهم ، وهم سائر الفصحاء مما لا شبهة فيه ، علي أنه يمكننا أن نعرف تعذره علي هؤلاء بمثل ما أمكن تعذره علي العرب ؛ لأن الأزمنة كلها لم تخل ممن كان يعادي النبي – صلي الله عليه وآله – ويناوئ الإسلام – إما اعتقادا أو تقربا إلي من كان يعتقد ذلك ، أو تكسبا به ، حتى استفرغوا في ذلك جهدهم ، واستنفذوا وسعهم علي ما تقدم طرف من ذكرهم .

فإذا لم يأتوا به صح تعذره عليهم . ولا يجب أن يظن ظان أن المتأخرين أشد تمكنا في هذا الباب من المتقدمين ، من حيث فرعوا التحسين والتطبيق ، وعطف أعجاز الكلام علي صدره ، والاستطراد والتشبيه ، والاستعارة ، وما جري مجري هذا مما يعد فصاحة . وذلك أن المتقدمين كانوا أعرف بجميع هذه المحاسن من المتأخرين ، وكانوا أشد تمكنا من إيرادها مواردها ، ووضعها في مواضعها ، وان لم يكونوا لها ولا تعمل . وذلك مما يزيد الكلام حسنا ويكسبه

رونقا ، والمعرفة بهذه الأمور علي حدها يعرفه المتأخرون ، ووضع الأسماء لهـا مما لا يصير الانسان به أفصح ولا أشعر ولا أخطب ، وإنما يصلح بـه الانـسان الفاسد ، ويضم المتشعب ، ويسدد المختل .

لهذا تجد من يعرف كل ما ذكرنا ونعتنا ، ويتصوره ويتحققه ، ويفصل بين غثه وسمينه ، ومستحسنه ومسترذله ، ثم إذا أراد أن يعمل قصيدة أو يبتدئ خطبة ، أو ينشئ رسالة ، عجز عن إنشائها ، والمتقدم الذي لم يحصل لـه العلـم بهـذه الأسماء والأوصاف . وهذا يجري مجري العلم بالعروض وألقابـه ، ألا تـري أن التقدم في ذلك لا يوجبه التقدم في الشعر . ألا تري أن الـشعراء المتقـدمين مـن جاهي أو مخضرمي أو إسلامي ، كان قبل " الخليل " لم يعرف شيئا من ذلك ، ثـم من جاء بعدهم لم يلحق شأوهم من حيث عرف ذلك ، بل أن ينـشأ بعـدهم مـن ضرب في جنس الشعر بسهم فلطبع أوتي ، لا لمعرفة بهذه الأمور ، فبان بجميـع ما بينا أن المتأخر الذي تكلف العلم باللغة ، وتعلم المحاسن والمساوئ بالتعمل ، لا يجب أن يوفي في هذا الباب المقصود علي المتقدمين من فصحاء العـرب الـذين جروا علي طريقة الفصاحة في منظوم كلامهم ومنثوره ، طبعا وسـجية ، ولهـذا تجد فيمن يعد في الشعر مفلقا من إذا ترسل اختل اختلالا ظاهرا ، وفي المتقدم في الرسائل ، من إذا حاول النظم بعد بعدا متفاوتا ، وهذا يكشف أن التكلف والتعمـل لا يبلغان المرء طبقة الفصحاء ، ولا يلحقانه شأو البلغاء ، ولهذا تجد المكثر فـي اللغة والعلم بأقسام الفصاحة والمعرفة بمحاسن النظم والنثر ومساوئهما إذا لم يكـن له طبع في الشعر والترسل يسقط إذا حاول الشعر أو الترسل عن درجة المطبـوع فيهما وان كان مقلا في جميع ذلك وبضاعته منها مزجاة سقوطا ظاهرا أو يهـبط عن رتبته هبوطا بينا ، كالخليل بن أحمد(٢٠٧) ، ومن نحا نحوه من العلماء الذين لم يكونوا أولي طبع .

---

٢٠٧ – الخليل بن أحمد (٢٨٩ – ٣٧٨ هـ) هو الخليل بن أحمد بن محمد بن الخليل ، أبو سـعيد الـسجزي ، المعروف بابن جنك فقيه ، حنفي ، قاض . كان شيخ أهل الرأي في عصره ، وكان صـاحب فنـون فـي العلوم . طاف الدنيا شرقاً وغرباً وسمع الحديث . ومات قاضياً بسمرقند .

فإن قيل : لو كان القرآن معجزا لأنه لم يعارض ولم يؤت بمثله لوجب أن يكون المجسطي(٢٠٨) وإقليدس(٢٠٩) والعروض(٢١٠) كل واحد منه معجزا يدل علي نبوة من أوتي به ، وإذا قد ثبت بطلان كون هذه الكتب معجزا ، فيجب أن يبطل كون القرآن معجزا علي ما ادعيتموه .

قيل له : هذا كلام من لم يعرف وجه استدلالنا فحرمه ، ولم يذكره علي جهته ، وألزم عليه مالا يلزم ، ونحن نبين ذلك بعون الله عز وجل ، ونكشف عن سقوط هذا السؤال .

إعلم . أنا لم نقل أن القرآن معجز لأنه لم يؤت بمثله قط ، بل لأنه تحدي به ، ولم يؤت بمثله ، مع سائر الشروط التي ذكرناها ، وكتاب المجسطي وأقليدس ، وما جري مجراهما من الكتب ، لا يصح أن يقع التحدي به ، لأنه إن تعذر علي غير من آتي به يكون تعذره لأحد وجهين :

إما أن يكون قد استنفذ الطرق ، فلم يبق هناك طريق آخر لذلك الشئ ، وما جري هذا المجري الإتيان به مستحيل لا تصح القدرة عليه ، ومالا تصح

[النجوم الزاهرة ١٥٣/٤ ، شذرات الذهب ٩١/٣ ، والأعلام ٣٦٣/٢] .

٢٠٨ – المجسطي: موسوعة فلكية ورياضية ألفها بطلميوس حوالي العام ١٤٠ للميلاد.كانت مرجعا رئيسيا لعلماء الفلك العرب والأوروبيين حتى مطلع القرن السابع عشر تقريبا.ترجمت إلى العربية، نقلا عن السريانية، عام ٨٢٧ للميلاد، ثم ترجمت إلى اللاتينية، نقلا عن العربية، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وهي تقع في ثلاثة عشر كتابا.

٢٠٩ – إقليدس (٣٢٥ ق.م – ٢٦٥ ق.م) هو رياضي يوناني عاش في مدينة الإسكندرية ويعتبر أبو الهندسة وقد كانت أعماله بشكل عام تشكل أهمية كبيرة في تاريخ الرياضيات وقد كتب في الرسم المنظوري والمقاطع المخروطية والسطوح ثنائية البعد.

٢١٠ – العروض هو ميزان الشعر يعرف به مكسوره من موزونه وهو علم يبحث فيه عن أحوال الأوزان المعتبرة وإستقرأ علم العروض الخليل بن أحمد الفراهيدي ويقال إنه أحدث أنواعا من الشعر ليست من أوزان العرب، ويعرف علم العروض بأنه علم بمعرفة أوزان الشعر العربي، أو هو علم أوزان الشعر الموافق أشعار العرب، التي اشتهرت عنهم وصحت بالرواية من الطرق الموثوق بها، وبهذا العلم يعرف المستقيم والمنكسر من أشعار العرب والصحيح من السقيم، والمعتل من السليم.

القدرة عليه لا يصح التحدي به ، ألا تري أن إنسانا لو أتي بشعر مركب من هذه الحروف التي هي ثمان وعشرون ، ثم تحدي به فقال : ائتوا بمثله من غير هذه الحروف لم يصح التحدي به ، لأنه ليس في المقدور ، وكذلك لو قال : أني أضرب واحدا في واحدا فيكون واحدا . أو اثنين في واحد ، فيكون اثنين ، واثنين في اثنين فيكون أربعة ، واثنين في ثلاثة فيكون ستة ،واثنين في أربعة فيكون ثمانية ، واثنين في خمسة فيكون عشرة ، وثلاثة في ثلاثة فيكون تسعة ، وثلاثة في أربعة فيكون اثنا عشر ، وثلاثة في خمسة فيكون خمسة عشر ، وأربعة في أربعة فيكون ستة عشر ، وأربعة في خمسة فيكون عشرين ، وخمسة في خمسة ، فيكون خمس وعشرين ، ثم تحدي ، وقال :اضربوا بعض هذا العدد ببعض ، وأتوا بكامل غير ما أتيت به ، كان ذلك لا يصح لأن ما تحدي به يكون مستحيلا ، أو جري مجري أن يفعل حركة في جسم فيقول : افعلوا في غير جسم أو جوهر .

أو يكون التعذر الآن غيره ، لم نعمل فيه العكس ، ولم نمتحن ولم نتعلم ، وهذا أيضا لا يصح التحدي به ، لأن ذلك يجري مجري تعذر الصياغة علي النجار ، والنجارة علي الخياط .

ألا تري أن كل من أفكر فيه فكره ، وتعمل له تعمله ، يأتي منه مثل ما يأتي به المتحدي حتى لا يكون بينهما من التفاوت إلا مقدار ما يكون بين الصانعين من الذكاء والبلادة . فإذا ثبت ما بيناه ، وثبت أن المجسطي وأقليدس والعروض ، وما أشبههما من الكتب يمكن التوصل إليه بالفكر والتعمل والتعلم والامتحان ، ثبت أنه ما لا يصح التحدي به ، وإذا ثبت ذلك ثبت أنه لا يصح أن يلزم كونه معجزا علي قولنا : أن القرآن معجز . لأن الإتيان بأسلوب من الكلام في أعلي طبقات الفصاحة أو في الطبقة العالية بالفكر والتعمل مما لا يصح علي وجه من الوجوه . بل لا بد فيه من طبع لا طريق إليه للتكلف والتعمل .

ألا تري – ولا نشك – أن الخليل بن أحمد كان أكثر في اللغة والعلم بأوزان الشعر وعيوبه ومحاسنه من امرئ القيس ؛ لأن امرئ القيس كان الظاهر

من أمره كان يعرف لغة قومه ، والقوم الذين قاربوهم ، والخليل تعلم اللغة حتى أحاط بها ، ومع ذلك فلا يشك أن الخليل كان لا يمكنه أن يقول من الشعر ما يماثل شعر امرئ القيس أو يقاربه ، ولهذا نري ما بيننا المكثر من علم اللغة . ومحاسن الشعر ومساوئه إذا لم يكن مطبوعا في الشعر لا يمكنه أن يأتي من الشعر مثلما يأتي به المطبوع الذي لا يبلغ علمه باللغة ومحاسن الشعر ومساوئه معشاره ، بل ربما لم يمكنه أن ينظم بيتا واحدا إلا بجهد عظيم ، وتعب شديد ، ثم إذا أتي به أتي به في غاية الوحشة ونهاية السقوط ، وهكذا حال إنشاء الرسائل والخطب والتوسع في المحاورات .

فإن قيل : أن المجسطي وان كان يمكن أن يتوصل إليه بالامتحان والفكر والتعلم فقد كان في مبادئه مالا يمكن ذلك فيه ، ولا طريق للتوصل إليه بالامتحان والتعمل .

قيل له : هذا إن صح فقد قالوا هم : إن ابتداءه كان من (هرمس) وان هرمس هو إدريس النبي – صلي الله عليه – وان كان فيه ما سبيله هذا السبيل فيجب أن يكون معجزا يدل علي نبوة من أتي به . ولهذا قال كثير من العلماء في علم النجوم وعلم الطب : إنهما كانا في الأصل مما أتت به الأنبياء– صلوات الله عليهم – وأنه لا سبيل للخلق إلا الإتيان بمثله . فهذا مما يجب أن ينظر فيه ، إلا أن سؤال القوم قد سقط ؛ لأنه إذا صح وثبت ما أدعوه وجب أن يكون ذلك القدر منه معجزا .

علي أن المجسطي وأقليدس وما أشبههما من الكتب لو صح التحدي به لم يلزمنا أن نقول : أنه معجز . علي قولنا : أن القرآن معجز . لأنا لم نعلم أن القرآن معجز بأن صح التحدي به . وإنما علمنا ذلك لأن النبي – صلي الله عليه وعلي آله – آتي به قوما ، هم في الفصاحة والمعرفة بأساليب الكلام مثله أو دونه بيسير فتحداهم به وقرعهم بالعجز عن الإتيان بمثله ، وادعي عليهم أنهم له في حكم العبيد في نفوذ أحكامه فيهم ، وأنهم يلزمهم مفارقة ما كانوا عليه من الدين وتكفيرهم لم يفارقه والانقياد له ولأوامره ، والقوم له كارهون وفي تكذيبه جاهدون

، وظهرت قوة دواعيهم إلي كل ما دعي إلي إفساد أمره وتوهين حالــه وإظهــار كذبه ولم يأتوا بمثله ، فدلنا ذلك : علي أنه كان متعذرا علــيهم ولــم يثبــت فــي المجسطي وما جري مجراه شئ من ذلك لأنه لم يثبت أنه آتي قوما مثله في تلــك الصناعة وتحداهم بالعجز عن الإتيان بمثله ، وجعله لنفسه حجة عليهم فــي أنهــم يلزمهم الجري علي أحكامه والتصرف تحت أوامره ونواهيه مع كراهة القوم لــه ولأحواله ووفور بواعثهم إلي إفساد أمره والإبانة عن كذبه ، وأنهم لم يأتوا بمثلــه مع تطاول الزمان علي تلك الأحوال . فإذا لم يثبت شئ من ذلك فكيف يلزمنــا أن نقول : أنه كان معجزا ؟ وماله . قلنا : أن القرآن معجز لم يحصل له .

فإن قيل : قد علمنا أن تفرد الواحد بضرب من الفضل حتى يــذكر بــه ، ويرؤس بتحصيله ، مما يحرك طبع غيره علي الإتيان بمثله ، فيجري ذلك مجري التحدي .

قيل له : هذا لا يقوله من عرف أحوال الناس وعاداتهم ، لأنــا نعلــم مــن أحوال كثير من العلماء الذين يتقدمون في كثير من العلم ، أنهم لم يكن لهم دواعي إلي تصنيف الكتب في العلوم التي برعوا فيها . بل ربما لم يجد الواحد منهم ، إذا علم أن غيره قد كفاه المؤنة في ذلك ، وأتي بما كان مراده كان ذلك صارفا له عن الاشتغال به ، وان جاز أيضا أن يتفق ذلك ، ما سأل عنه السائل ، لكــن ذلــك لا يمكن الإبانة بعلم أن للقوم أحوالا . كأحوال من عادي رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – من كفار قريش ، وسائر العرب علي ما بينــاه ، ومتــي مــا مــرت الأحوال علي ذلك ، فلا بد من الإتيان بمثل ما آتي به من كان معهم في مثل حــال النبي – صلي الله عليه وعلي آله – إلا أن يتعذر ذلك عليهم ، فأما مقدار ما ســأل عنه السائل . فلا يجب من سائرهم أن يقع الإتيان بمثل ما أتي به بعــضهم ، وإن كان ممكنا لهم .

فإن قيل : فإذا لم يعلموا تلك الأحوال فشكوا في كونه معجزاً .

قيل له : الوجه الأول يمنعنا من الشك ، ويوجب للقطع علـــي أنـــه لـــيس بمعجز ، وأنه يجري مجري سائر الصناعات والمهن ، لأنا قد بينا أن التحدي مما لا يصح كما لا يصح ذلك في الصناعات والمهن .

فإن قيل : فما تنكرون علي من قال : أن القرآن هو مـــن هـــذه الحـــروف وجنسها مقدور للبشر ، ولا يصح أن يكون المعجز جنسه في مقدور العبـــاد لأنـــه يؤدي إلي التناقض ، لأن من شأن المعجزات أن يتعذر علي العبـــاد ، ومـــا كـــان جنسه مقدورا لهم ، فهو متأني منهم ، والتأني ينفي التعذر ، وإذا كان ذلك كذلك لم يصح أن يكون القرآن معجزا .

قيل له : هذا الذي ادعيت من التناقض علي الوجه الـــذي ظننـــت ظـــاهر السقوط ، لأن جنس الشئ ، وإن كان مقدورا للعباد ، فإنه لا يجب أن يصح فعـــل ذلك الشئ منهم علي كل وجه ، بل لا يمتنع أن يتعذر فعله علي بعض الوجـــوه ، وإن صح فعله علي وجه آخر ، وهذا لا يؤدي إلي التناقض ؛ لأنه من الوجه الذي يتأتي لا يتعذر ، ومن الوجه الذي يتعذر لا يتأتي ، وإنما يتعذر ما يتعذر بما يكون جنسه مقدورا للعباد ؛ لأن القادر ربما احتاج لإيقاعه علي وجه مخـــصوص إلـــي كونه عالما ، أو في حكم العالم ، أو يحتاج إلي الآلة ، وما يجري مجـــرى الآلـــة ،فإذا قصد الآلة فيما يحتاج لفعله علي وجه مخصوص إلي الآلة ، أو القلـــم فيمـــا يحتاج لفعله علي وجه مخصوص إلي كونه عالما تعذر فعله علي ذلـــك الوجـــه ، وإن كان جنسه مقدورا .

ألا تري أن الفعل المحكم ، وإن كان جنسه مقدورا لمن لـــيس بعـــالم فإنـــه يتعذر عليه ، ولا يتأتي مثله ، ألا تري أن هذه الحروف أجمع مقدورة للناس أجمع ، ومع هذا فلا يصح من أحد إيقاعها علي وجه يكون متكلما بلغة العـــرب إذا لـــم

يكن عالما بلغتهم ، وكذلك لا يصح إيقاعها من الأعرابي علي وجه يكون متكلما بلغة الفرس ، إذا لم يكن عالما بلغتهم ، وكذلك حكم الصناعات أجمع كالكتابة والصناعة وغيرهما ، لأن جنس ذلك أجمع مقدور للجميع ، ثم إيقاعها علي وجه الإتقان والأحكام يتعذر علي من لم يكن عالما بتلك الصناعة ، وكذلك الآلة أيضا .

ألا تري أن الخياط يتعذر عليه الخياطة مع كونه قادرا عليها ، وعالما بها إذا فقد الإبرة ، وكذلك الصانع إذا فقد المطرقة ، وسائر الآلات التي يحتاج إليها ، ولهذا يتعذر علينا الطيران ، وان كنا نقدر علي جنسه ، لأن جنسه إنما هو الأكوان ، وإنما يصح منا لفقدنا الآلة التي هي الريش والجناح ، ونظائره أكثر من أن تعد وتحصي .

فإذا صح ذلك وثبت وصح سقوط قول من قال أنه يتناقض كون الشئ مقدورا لنا ، متعذرا فعله علينا ، علي وجه مخصوص فإذا ثبت ذلك جاز أن يكون القرآن معجز يتعذر فعل مثله علي جميع البشر ، وإن كان جنسه مقدورا لنا يكشف ذلك : أن فلق البحر جنسه مقدور لنا ، وإن كان يتعذر فعله علي ذلك الوجه المخصوص علي جميع البشر ، ألا تري أنه تفريق أجزاء الماء علي وجه مخصوص ، وأحداث أكوان مخصوصة ، وذلك جنسه مقدور للبشر ، ألا تري الله عز وجل لو بعث نبيا وجعل معجزته أنه ينقل بعض الجبال الراسيات عن موضعه لصح ذلك ، وإن كان جنس نقله مقدورا لنا ؛ لأن نقله إنما هو أكوان تحدث علي وجه مخصوصة ، وإنما المراعي في هذا الباب أنه يحصل أمر نعلم أنه يتعذر فعله مثل علي جميع البشر سواء كان التعذر للجنس أو للصفة . ألا تري أنه لا فرق بين فلق البحر، وبين قلب العصا حية في هذا الباب ، وإن كان تعذر فلق البحر للصفة ، وتعذر قلب العصا حية للجنس .

فإن قيل : فلم لا يجوز أن يكون ما يدخل تحت مقدور العباد معجزا ، لأن المشاهد له يجوز أن يكون ذلك من فعل بعض مردة الشياطين ، أو من فعل بعض

من يعصي من الملائكة ، لأن العلم بأن الملائكة لا تعصي ، إنمـا هـو بطريـق السمع ، ونحن بعد في إثبات السمع ؟

قيل له : لا يجب للناظر أن يشك فيه ، بل يجب القطع علـي أن الله عـز وجل يمنع منه . وذلك أنه لو حصل لكان شبهة لا يمكن حلها . وما جـري مـن الشبه هذا المجري يجب علي الله عز وجل المنع منها .

فإن قيل : ولم قلتم : أن ذلك يكون شبهة لا يمكن حلها ، بل ما أنكـرتم أن يكون ذلك حجة لمن قال انه لا يجوز أن يكون المعجز مما يكون جنسه في مقدور العباد ؟

قيل له : لأن هذا الجنس من الشبهة يصح إيراده فيما ليس يكون جنسه فـي مقدور العباد ، بأن يقال يجوز أن يكون بعض النـاس ظفـر بـشجرة إذا قطـع غصنها ، وألقي علي وجه مخصوص يصير حية ، ويكون ذلك عـادة ، ويكـون ظفر بشئ إذا مسح به الميت صار حيا من طريق العادة ، ويجري ذلـك مجـري الخواص التي تحكي في أشياء ، ألا تري أن من لم يشاهد حجر المغناطيس ، ولـم يسمع به إذا شاهده يحرك الحديد بغير مماسته يجوز كون ذلك معجزا ، وكذلك ما يحكي من الحجر المسمي :" باغض الخل "(٢١١) فقد حكي أنه إذا أرسل علي إنـاء فيه خل انحرف ، وسقط خارج الإناء ، ولم يسقط في الخل ، وكذلك نظائره كثيرة تحكي وتذكر في الخواص ، وكل ذلك جائز من طريق العقل ، ولا جـواب عـن ذلك ، أن تعلق به البرهمي ، وحاول التوصل به إلي إبطال النبوات رأسا ، إلا ما ذكرناه من أن ذلك لو كان شبهة لا مخلص منها فيجب علي الله عز وجـل المنـع منها .

فإن قيـل : ما تنكرون علي البرهمي أن أدعي أن ذلك ليس بشبهة ، بل هو حجة ، ويوجب إبطال النبوات ؟

٢١١ – هو حجر إذا ألقي في إناء خل فإنه يهرب منه و لا ينزل إلى الخل.

قيل له : جوابه أنا نبين أن البعثة يجوز أن تصير واجبة بأن يعلم الله عز وجل أنها لطف للمكلفين ، فإذا ثبت ذلك فلو كانت واجبة لم يكن لها طريق إلا المعجز ، فكل ما أدي إلي إبطال المعجزات أجمع ، فيجب علي الله المنع منه .

فإن قيل : بين هذه الأشياء التي ذكرتم ، وبين ما يكون جنسه مقدورا للعباد ، أن هذه الأشياء لو وقعت عند ادعاء الكاذب النبوة ، لكان الله هو الفاعل لها علي وجه يقبح ، والله عز وجل لا يفعل القبيح ، وما يكون جنسه تحت مقدور العباد لو وقع من مردة الشياطين ، ولا يمتنع وقوع القبائح منهم .

قيل له : لا فرق في هذا الباب بين فعل القبيح والانصراف عن فعل الواجب ؛ لأن الله تعالي كما لا يجوز أن يفعل القبيح ، لا يجوز أن يدع فعل الواجب ؛ لأن كل واحد منهما لا يكون إلا من محتاج أو جاهل ، أو من يكون بالصفتين جميعا . ويتعالي الله عن ذلك . وإذا كان هذا هكذا ، فلا فضل في أن يفعل تلك الأشياء عند دعوي الكاذب مع قبحها ، وأن هذا الانصراف عن فعل الواجب ، وذلك فعل القبيح ، ولا فضل بينهما . وان كل واحد منهما لا يجوز علي الله عز وجل . علي أن هذا أيضا يرجع إلي أنه عز وجل لو أجري الأمر علي ذلك يكون قد انصرف عن الفعل الواجب ، لأنه عز وجل أن كان أجري العادة بتلك الأمور أن يفعلها . فإنه لا يجوز أن يفعلها عند دعوي الكاذب ، وذلك يجري مجري القبيح ، وإنما كان يجب علي القديم عز وجل ، لو كان الأمر علي ما ذكرتم أحد أمرين ، إما أن يمنعه التمكن منه ، أو يدفع ذلك ويظهره بلطائفه ، لئلا يصير شبهة ، لا يمكن حلها ، فلو لم يفعل ذلك لكان قد عاد الأمر إلي أنه لم يفعل ما وجب عليه – تعالي الله عن ذلك.

فإن قيل : ما أنكرتم علي من قال لكم : يجوز أن يكون النبي – صلي الله عليه وعلي آله – أخذ هذا القول من نبي كان أتي به ، وقبل ذلك النبي ، وأخفي حاله ، وادعي النبوة به من غير أن كان صادقا فيما ادعي فيه .

قيل له : هذا سؤال قد أجاب بعض العلماء المتقدمين عنه بجوابين : أحدهما : أنه قال : " قد علمنا ضرورة أن النبي – صلي الله عليه – هو الذي أتي به دون من سواه ، كما علمنا في شعر كثير من الشعراء ، وكتب كثير من المصنفين ، وفي هذا سقوط هذا السؤال ، والجواب الثاني : أن ذلك لو كان ، لكان شبهة لا يمكن حلها ، وما جري هذا المجري فيجب علي الله عز وجل المنع منه ، فيعلم أنه لم يكن " .

ويمكن أن يجاب عنه بأن يقال له : إن ذلك لو كان كذلك ، لكان ذلك النبي ممن قد بعثه الله ، وكلفه أداء الرسالة ، ولو كان ذلك كذلك لوجب علي الله عز وجل أن يحفظه إلي أن يبلغ ويؤدي الرسالة ، ولو كان بلغ وأدي لكان ذلك لا يخفي .

والجواب المعتمد عندي : غير هذه الأجوبة ، وهو أن يقال لمن قال ذلك : في القرآن كثير من أقاصيص أحوال رسول الله – صلي الله عليه – وأحوال الصحابة – رحمهم الله – وأحوال أعدائه ، مثل ما ذكر سبحانه في السورة التي يذكر فيها الأحزاب من قوله تعالي : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ** ﴾ (٢١٢) إلي آخر القصص ، وفي هذه السورة ذكر (زيد بن حارثة) (٢١٣) وما قال له رسول الله – صلي الله عليه – في شأن زوجته ، وما كان من رسول الله – صلي الله عليه – من التزوج حيث يقول : ﴿ **وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي**

٢١٢ – الأحزاب : ٩

٢١٣ – هو زيد بن حارثة بن شراحيل بن كعب بن عبد العزى، وكان طفلا حين سبي ووقع بيد حكيم بن حزام بن خويلد حين اشتراه من سوق عكاظ مع الرقيق، فأهداه الى عمته خديجة، فرآه الرسول –صلى الله عليه وسلم– عندها فاستوهبه منها فوهبته له، فأعتقه وتبناه، وصار يعرف في مكة كلها (زيد بن محمد). وذلك كله قبل الوحي.

أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ﴾ (٢١٤) إلي آخر القصة . وفي السورة التي يذكر فيها الأنفال قصة (بدر) من قوله : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ** ﴾ (٢١٥) إلي آخر القصة . وفي هذه السورة قصة الأسارى ، والمفارقات التي جرت ، وفي السورة التي يذكر فيها آل عمران قصة (بدر)(٢١٦) وقصة (أحد) .

وفي السورة التي يذكر فيها التوبة وقصة (حنين)(٢١٧) وقصة (الغار)(٢١٨) ولو تتبعنا هذا في جميع القرآن لطال الكتاب به ، ومن المحال أن تكون هذه الأقاصيص بعينها كانت اتفقت لبعض الأنبياء غير نبينا – صلي الله عليه – بمكة والمدينة . ولئن جاز أن يتفق ذلك ، لوجب أن يكون نقله ظاهرا ، وهذا من أوضح ما يقال في إسقاط هذا السؤال .

فإن قيل : فهل يجوز أن يكون مثل القرآن مقدورا للجن أو للملائكة ؟

قيل له : لا سبيل لنا من طريق النظر إلي المنع من ذلك ؛ لأنا لا نعرف أحوال الملائكة – عليهم السلام – والجن . إلا أنا من طريق السمع ،علمنا أنه ليس في مقدور الجن .

---

٢١٤ – وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَراً زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَراً وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً [الأحزاب : ٣٧]

٢١٥ – وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتِيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [الأنفال : ٧]

٢١٦ – وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ [آل عمران : ١٢٣]

٢١٧ – لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئاً وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ [التوبة : ٢٥]

٢١٨ – إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [التوبة : ٤٠]

فأما الملائكة – عليهم السلام – فلا يعرف ذلك من حالهم ، ولو لم نعـرف أحوالهم نحن أيضا لم يقدح ذلك في كونه معجزا ، لأنا إذا عرفنا تعذره علي أمـر يخفي ، كفي في كونه معجزا ، علي ما مضي القول فيه .

فأما ما ذهب إليه قوم من أنا قد سمعنا من أحوال الجـن ، وأشـعارهم مـا يمكننا الاستدلال به علي أنهم علي الإتيان بمثله عاجزون ، كنحو ما يحكـي عـن عمرو الجني من قوله :

أشجاك تشتت شعب الجن . فأنت له أرق وصب ؟

وما يحكي من قوله :

من معذب جذل جاد القريض له حبر يجير لنا بيتا علي دار

وما يحكي عن بعضهم :

وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر

وما روي عن سواد بن قارب([٢١٩]) من الأبيات التي يحكيها عن بعض الجن وهي :

عجبت للجن وألعابها وركبها العيس بأقتابها

إلي آخر الأبيات . حكايات لم تعرف صحتها ، بل ليس لشئ منها سـند([٢٢٠]) ، ولا ضعيف ولا قوي ، إلا ما يحكي عن سواد بن قارب ، وبمثل هذا لا يقع العلم .

والثاني : أن هذه الأبيات ، وما جري مجراها ، لو علمنا علي التحقيق أنهـا مـن قول الجن ، لم يمكنا أن نعلم بهذا القدر من أحوال جميعهم فصار الاشتغال به ممـا لا يجدي ، والاعتماد علي قول الله عز وجل : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ ([٢٢١]) وعلي إجماع الأمة علي ذلك .

دليل آخر علي أن القرآن معجز :

---

٢١٩ – سواد بن قارب سدوسي من بني سدوس وكان يتكهن في الجاهلية وكان شاعراً ثم أسلم.

٢٢٠ – السند هو الطريق الموصل إلى المتن .

٢٢١ – الإسراء : ٨٨

ومن الدليل علي ذلك : أن النبي – صلي الله عليه وسلم وعلي آله – مهما شك في شئ من أحواله ، فلا شك في صحة عقله ، وأصالة ذاته ، وشدة حصافته ، ووفور ذاتيته ، قد علم ذلك المصدق به ، والمكذب له ، لأن الحال في ذلك أظهر من أن يجوز أن يرتاب فيه عاقل .

علي أن المصدق به يعلم ذلك من حيث يعلم أن الله عز وجل لا يجوز أن يبعث إلي خلقه من لم يكن علي تلك الصفة ، والمكذب له يعلم ذلك من حيث يظن أنه دبر أحوال نفسه وأحوال أصحابه ، حتى تم له ما تم ، وقد تلي هو – صلي الله عليه وعلي آله – علي أعدائه ، وأوليائه علي ما تقدم بيانه : ﴿ **وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ (٢٢٢) وتلي عليهم : ﴿ **وَمَا كَانَ هَـذَا الْقُرْآنُ أَن يُفْتَرَى مِن دُونِ اللّهِ** ﴾ (٢٢٣) وقوله : ﴿ **أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ** ﴾ (٢٢٤) وتلي عليهم : ﴿ **قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَـذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً** ﴾ (٢٢٥)

وقد علمنا أن العاقل إذا ادعي أمرا ، لا يكون مبناه إلا علي الصدق ، ومجانبة الكذب ، ويشتد حرصه علي تصحيحه ، حتى يتحمل له المشاق ويركب له الأخطار ، ويعاديه علي ذلك قوم ألباء(٢٢٦) عقلاء ، يرجعون إلي الحصافة التامة ، والتمييز الشديد ، سيما إذا كان ما يدعيه لا يتم إلا بما يحصل في النفوس من تعظيمه ، وحشمته ، لصدق لهجته ، ووفور وقاره وهيبته ، فلا يجوز مع

---

٢٢٢ – البقرة : ٢٢-٢٣

٢٢٣ – يونس : ٣٧

٢٢٤ – يونس : ٣٨

٢٢٥ – الإسراء : ٨٨

٢٢٦ – جمع لبيب.

سلامة الأحوال أن يورد علي العدو الكاشح ، والولي المناصح ، مـا لا يـأمن أن يظهر فيه كذبه في يومه أو غده ، أو بعد مدة قصيرة أو طويلة ، حتـى يفتـضح بذلك عند الجميع ، ويحتج به عليه أعداؤه ، وينفر عنه أصحابه ؛ لأن ذلك يجري مجري التعرض بتشويه الانسان لنفسه بين أعدائه وأوليائه ، مـع التماسـه مـنهم تعظيمه وتوقيره ، وإكباره وإجلاله مع سلامة الأحوال ، وما جري هذا المجري ، نعلم قطعا أنه لا يقع علي وجه من الوجوه .

فإذا ثبتت هذه الجملة فتلاوته – صلي الله عليه – هذه الآيات عليهم لا تخلو من أن تكون من تلقاء نفسه ، أو بأمر علام الغيوب ، ولا يجوز أن يظن عاقل أنه كان يتلوها عليهم من تلقاء نفسه ؛ لأنه تلاها علي قوم هم مثله ، أو مقاربون لـه في المعرفة بأحوال الكلام وأساليبه ، وبأحوال الفصاحة ، ولم يكن يجوز أن يـأمن أن يأتي عدة منهم ، كل واحد منهم بمثله ، أما في الوقت ، وأما في مدة قصيرة أو طويلة فيظهر كذبه ويبين تقوله ، ويتسلق به أعداؤه ، ويخذله أولياؤه.

فإذا فسد ذلك ، صح أنه وارد من عند علام الغيوب تبارك وتعـالي ، وإذا صح أنه من عنده عز وجل ، صح أنه معجز .

فإن قيل : أكثر ما ذكرتموه يكون تغريرا بالجاه ، ومن طلب مثـل الأمـر الذي طلبه فغير ممتنع أن يغرر نفسه ، فضلا عن جاهه ، لأن التغريـر بـالنفس أعظم من التغرير بالجاه .

قيل له : التغرير بالنفس أيسر عند من طلب معالي الأمور ، من التغريـر بالجاه ، لهذا تجد كثيرا من الناس يغرر بنفسه في الحروب للأنفة ، وكذلك تجـد كثيرا ممن له علو الهمة ، ويؤثر إعانة النفس علي التشويه بها ، علي أن التغرير بالنفس أو بالجاه أن اختاره العاقل فليس يختاره إلا إذا لم يكن منه بد فـي الأمـر الذي يطلبه ، فإما إذا كان يعلم أنه يجد منه بدا ، أو يغلب في ظنه ، وكـان الـذي يغلب في الظن ، أن المحذور واقع ، فإنه لا يجوز أن يختاره بتة .

ومن المعلوم : أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله عز وجل كان النبي – صلي الله عليه وعلي آله – مستغنيا عن هذه الآيات المخصوصة ، وأنه لـم يكـن يتلوها عليهم ، لأن كثيرا منهم ، كان قد أسلم وآمن بسائر ما ظهر عليه من الآيات – علي ما نبينه بعد . هذا إن يسر الله سبحانه ، وأعان عليه – وكـان فـي حكـم المعلوم : أنه لو لم يكن معجزا ولم يكن من عند الله أنه كان يحصل منهم الإتيـان بمثله ، لا محالة . ولو وقع لعاد الأمر إلي ما كان يكره ، ولم يكن له في ظـاهر الحال فيها فائدة كثيرة ؛ لأن العرب كانت عارفة بحال القرآن ، وفائدة التحـدي ، وكانت تحمله بعده – صلي الله عليه وعلي آله – لسائر الناس – وما يجري هـذا المجري لا يجوز أن يختاره العاقل مع سلامة الأحوال ، فثبت أنها كانت من عنـد الله عز وجل ،علي أن ما نعرفه من حكم التحدي ، وأنه كان لا بد مـن حـصول المعارضة من القوم ، ولم يتعذر عليهم ، معلوم لكل عاقل ، ومعلوم أيضا : أحوال القوم ، وأحواله – صلي الله عليه وعلي آله – بكمال عقله ، فلولا أن القرآن مـن عند الله عز وجل ، كان لا يجوز أن يتحدي ذلك التحدي ، لعلمه بأنه يؤتي بمثلـه في أقرب مدة كما أن إنسانا لو جاء إلي أعدائه ، وطلب الترأس عليهم ، والـتحكم بما شاء فيهم ، وأن يكون أولي بأنفسهم منهم ، وقال : دلالتي علي ما أدعي : أني أكلمكم اليوم طول نهاري ، فلا يمكن لأحد منكم أن يجيبنـي ، فمـن المعلـوم إذا كانت الأحوال سليمة ، أن لا يدع أحدا منهم أن يجيبه ، وأن يكون هو لا يفعل ذلك إذا كان عاقلا سليما ، سيما إذا كان مبني أمره علي الصدق ، ومجانبة الكذب .

وهذه كانت حال النبي – صلي الله عليه – مع العرب فيما تحداهم به ، لولا أنه من عند الله عز وجل .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن ذلك كان خطأ من جهة الـرأي علي ما قلتم ، وأن الأولي كان لا يتأتي به ، إلا أن الحازم قد يزيل ، والمصيب قد يخطئ ، والمحلق قد يسف ، وإذا كان ذلك كذلك ، لم يجب أن يكون ذلك من عنـد الله عز وجل ، وجاز أن يكون من عنده ، أتفق علي سبيل الخطأ كما يتفـق مـن

الناس ، ثم اتسق الأمر علي مراده ، فلم يعارض الاتفاق ، كما يتفق في كثير من الأمور ، أن يخطئ فيه الانسان ،فيجري الأمر مع خطئه علي مراده علي سبيل الاتفاق .

قيل له : أن الخطأ إذا عظم وفحش حتى يشترك في العلم به المميز المحصل ، والغمر الذي لم يحكم التجارب ، بل المراهق الذي لم يبلغ بعد الحلم ، لم يجز أن يقع من العاقل المميز الذي له في التحصيل والتنقير عن الأمور أو في الحظوظ ، ألا تري أن من يريد تأديب ولده وتهذيبه ويردعه عما لا يحسن ، وحمله علي طريق الصلاح يجوز أن يمسه بمقارع ، فيقع الخطأ فيه ، ويتجاوز الغرض المطلوب حتى يوهن بعض أعضائه ، ولكن لا يجوز أن يبلغ به الخطأ مع كمال عقله ، وسلامة أحواله ، حتى يضربه بالسيف ضربة يعلم ، أو يغلب علي الظن أنها تأتي عليه ، وكذلك من يداوي نفسه يجوز أن يخطئ فيرسل علي بعض أعضائه العلق ، فيزيد ذلك في مرضه ، وألمه . ولكن لا يجوز مع كمال العقل أن يخطئ فيرسل الأفعى علي بعض أعضائه علي سبيل التداوي ، وكذلك يجوز أن يجني علي نفسه ، بتناول ما يضره من الأدوية ، علي سبيل الخطأ ، ولكن لا يجوز أن يخطئ فيتناول (البيش) مع علمه به وبصفته وفعله ، ونظائر هذا أكثر من أن تعد وتحصي .

فإذا صح ذلك وثبت ، فقد علمنا : أن إيراد بهذه الآيات لو لم تكن من عند الله عز وجل لكان من الخطأ العظيم الفاحش الذي لا يجوز وقوع مثله من كامل العقل ، لأنه – صلي الله عليه وعلي آله – أتي قوما هم نظراؤه في النسب ، وأشكاله في اللسان ، وأمثاله في المعرفة بمجاري الأمور ، فدعاهم إلي دين كرهوه ، وعادوه عليه وناصبوه ، ولم يدعوا ممكنا في مناوأته ألا أتوه ، وهو يعلم أن أمره مبني علي صدق اللهجة ، ومجانبة الكذب والتنزه عنه ، وأن يسير الكذب لو ظهر منه لأدي إلي أفساد حاله ، وتوهين أمره ، ومكن منه أعداءه ، ونفر عنه أولياءه ، وهدم ما أسسه ، ونشر ما ضمه ، ونقض ما شاده ، وهو مع ذلك قد ابتدأ

أمره يستتب ، وحاله ينتظم ، وقد آمن به قوم بما ظهر من سائر آياتــه ، وصــار أصحابه في الزيادة .

فإذا كانت أحواله جارية علي ما مثلنا ، ماضية علي مــا وصــفنا ، فمــن الخطأ العظيم الفاحش ، الذي لا ينفع مثله من العقلاء أن يأتي بأمر أقل ما فيــه أن يغلب علي الظن أن لم يكن معلوما مقطوعا به أن يفضحه في أقرب مدة ، وأرخي زمان ، ويفسد حاله ، وتبطل دعوته ، ويظهر كذبه .

فإذا ثبت ما ذكرناه وصح وبان : أن هذا القرآن لم يكن من عنده – صــلي الله عليه– وإنما كان من عند علام الغيوب جل وتعالي : وعلي أن هذا التحدي لــم يقع منه مرة واحدة ، أو في سورة واحدة ، فينسب إلي الاتفــاق ، والغفلــة ، بــل كرره – صلي الله عليه وعلي آله – حالا بعد حال ، وأورده في ســور كثيــرة ، وأمر أصحابه بتلاوته في جميع القرآن إلي أن اختار الله عز وجل له دار كرامتــه ، لم يتلوم فيه ، ولم تضعف نفسه ، صلي الله عليه – وما جري هذا المجــري لا يجوز أن ينسب إلي أنه اتفق علي سبيل الغلط والخطأ ، وإذا لم يجز ذلــك وبــان فساده ، صح ما قلناه من أنه من عند الله عز وجل.

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن عدد من كان يكمل لمعارضــة القرآن من العرب كان محصورا ، لأن من المعلوم : أن كل واحد منهم لــم يكــن يكمل للإتيان بالكلام الفصيح منظوما كان أو منثورا ، ومتي كــان ذلــك كــذلك ، فيجوز أن يكون النبي– صلي الله عليه – كــان واطــأهم علــي أن يكفــوا عــن معارضته ، وأن يكون القوم جعلوه علي ثقة من ذلك حتى وثق بما عاهدوه عليــه واعتمدوه لما كان من تمكينه إياهم من أغراض كانت لهم ، وأطماعــه لهــم فــي رياسات تحصل لهم ، فتحداهم لذلك بانشراح صدر ، وقوة نفس .

قيل له : هذا كلام من لا يعرف أحوال العرب وأحوال النبي – صــلي الله عليه وعلي آله – لأن العرب كانوا في ديار متباعدة الأطراف كتهامــة ، وســائر

أرض الحجاز(٢٢٧) إلي اليمن(٢٢٨) وشجر وعمان ، ونجد والشام ، وكان الفصحاء منهم متفرقين بحسب تفرق بلدانهم ، وتنائي أوطانهم ، و النبي صلي الله عليه – يؤمئذ كان في حكم المنفرد الوحيد إذ لم يكن يساعده علي أمره ، إلا من كان يؤمن به ويصدقه ، ولم يكن صلي الله عليه – واجدا سعة من المال ، ولا متمكنا من الرجال ، بل كان شريدا طريدا ، وجمع كلمتهم ، مع تراخي الديار ، وتباعد مزارهم ، وعدمه – صلي الله عليه – الرسل الذين يوجههم إليهم ، بل أي رغبة كانت فيه لطلاب الدنيا وأحوالها ، علي أنه لو كان مثل كسري في كثرة أمواله ، وانبساط ملكه ، ووفور حاله ، وعظم هيبته ، مع ما كان يتعلق به من الرغبة والهربة كان لا يتم له ذلك ، بل كان يتعذر عليه جمعهم علي ذلك ، وتقريرهم عليه ، فكيف يظن العاقل أنه تم لرسول الله صلي الله عليه وعلي آله ذلك .

علي أن مثل هذا التواطؤ مما لا يصح وقوعه في العرف ، ومجري العادة ، وبه يستدل علي صحة الأخبار المتواترة ولولا تعذر ذلك واستحالته من طريق العادة ، لكان يجوز أن يشك في كثير في مخبر الأخبار المتواترة ، وهذا أظهر من أن يحتاج إلي إطالة الكلام فيه ، علي أن ذلك لو كان ، لكان لا يجوز أن ينكتم ، بل كان يظهر ظهورا تاما علي ما تقدم بيانه ، في باب : التحدي ، لأن الدواعي

---

٢٢٧ – الحجاز : حجز بين نجد وتهامة ، فيها مكة المكرمة ، والمدينة المنورة ، وجدة ، والطائف ، وخيبر ، وفدك ، وتبوك (ياقوت ، معجم ٢ / ٢١٩)

٢٢٨ – تعدد اسم اليمن في كتب التاريخ فهي عند قدماء الجغرافين " العربية السعيدة "وفي العهد القديم " التوراة " يذكر اليمن بمعناه الاشتقاقي اي الجنوب و ملكة الجنوب (ملكة تيمنا) وقيل سميت اليمن باسم (ايمن بن يعرب بن قحطان). وفي الموروث العربي و عند اهل اليمن انفسهم ان اليمن اشتق من " اليمن " اي الخير و البركة و تتفق هذه مع التسمية القديمة " العربية السعيدة " وقال آخرون سمي اليمن يمنا لانه على يمين الكعبة و العرب يتيامنون و الجهة اليمنى رمز الفأل الحسن و لايزال بعض اهل اليمن يستعملون لفظة الشام بمعنى الشمال و اليمن بمعنى الجنوب و تسمى اليمن اليوم " الجمهورية اليمنية " تقع اليمن في جنوب غرب قارة آسيا،في جنوب شبه الجزيرة العربية ويحدها من الشمال المملكة العربية السعودية ومن الجنوب البحر العربي وخليج عدن ومن الشرق سلطنة عمان ومن الغرب البحر الأحمر ، وتوجد لدى اليمن عدد من الجزر اليمنية تنتشر قبالة سواحلها على امتداد البحر الأحمر والبحر العربي وأكبر هذه الجزر جزيرة سقطرى والتي تبعد عن الساحل اليمني على البحر العربي مسافة ١٥٠كيلو متر تقريبياً

تدعو إلي نشر مثله ، والبواعث تبعث علي إذاعته ، والأغراض تتوفر في ذلك وتختلف.

علي أنه من أين كان يثق بأن من واطأه – لو أمكن ذلك ، وكان الطريق إليه مستجيبا – يفي له بذلك ؟ وكيف كان يأمن أن يتغير رأيه ، فينقض ما بذله حتي يفتضح بذلك ، ويفسد عليه أموره ، ويظهر كذبه ، وهذا ظاهر الفساد ، فبان بهذه الوجوه التي بيناها سقوط ما سألوا عنه في هذا الباب .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن النبي – صلي الله عليه – يجوز أن يكون ظن أن الإتيان بمثل هذا القرآن يتعذر علي وقوعه من حيث علم أحوالهم ، ومجاري أمورهم ، فأقدم علي التحدي ، لما غلب من ذلك في ظنه ، لأن العاقل الحصيف قد يقدم علي الأمر المظنون بما تقدم علي الآمر المعلوم ، وفي كون ما ذكرناه جائزا خارجا من خبر الامتناع ما يبطل دعواهم أنه يجب أن يكون من عند الله عز وجل .

قيل له : هذا الظن : ظن لا أمارة عليه : بل لا يجوز حصوله للعاقل المتميز ، لأن خلافه هو المعلوم ، فالمتعلم أن ما يأتي به الآنسان من أي جنس كان ، وأي باب كان فأنه من المعلوم : أنه لا يتعذر الاتيان بمثله علي من كان علي مثل صفته في ذلك الشئ ، ونحن نعلم أن أولئك العرب كانوا مثل النبي – صلي الله عليه وآله – في المعرفة بأحوال الكلام ، وطرقه ، وجيده ورديئه ، وفصيحه ومتوسطه ، أو مقاربين له في ذلك ، ومن كان كذلك ، فمن المعلوم أنه لا يتعذر عليه الاتيان بمثل ما أتي به ، والعلم بهذا طريقه الضرورة ، فلا يصح أن يقال أنه – صلي الله عليه – يجوز أن يكون عدمه ، وإذا كان ذلك معلوما فلا يجوز أن يظن العاقل خلافه ، لأن ذلك يصير من ظنون السودوس ، الزائلين عن كمال العقل ، ونحن بينا دليلنا هذا ، علي أن النبي – صلي الله عليه – كان كامل العقل ، وافر التحصيل ، صحيح التمييز ، علي أن النبي – صلي الله عليه – لم يتحد به قومه ، الذين هم قرابته فقط ، بل عم بالتحدي جميع العرب ، بل جميع

البشر ، فلو جاز أن يظن الانسان أنه – صلي الله عليه وآله – ظن ذلك بقومه لمعرفته بكثير من أحوالهم ، وبواطن أمرهم علي بعد ذلك ، فكيف يظن أنه ظن ذلك بسائر العرب مع كونه متباعدا عن ديارهم ، متنائيا عن ضبط أحوالهم ، وفيهم مثل : لبيد بن ربيعة(٢٢٩) ، وكعب بن زهير ، الذي جاءه – صلي الله عليه – والأعشي ، وحسان ، وغيرهم من الفصحاء المشهورين .

وإذا ثبت أن الأحوال كانت علي ما ذكرناه ، صح ووضح أنه – صلي الله عليه وآله – لم يكن يجوز أن يظن ذلك ، لو كان القول من عنده ، إذ كان يجب أن يكون المعلوم بخلاف ذلك ، وفي بطلان ذلك دليل علي أن النبي – صلي الله عليه – كان عالما بتعذر ذلك عليهم ، لكونه من عند الله عز وجل .

فإن قيل : يجوز أن يكون – صلي الله عليه وعلي آله –ظن أن القوم يكفون عن الاشتغال بالإتيان بمثله ، وان لم يكن متعذرا عليهم ، فبني أمر التحدي عليه .

قيل له : هذا الظن حصوله للعاقل أبعد وأشد استحالة من الظن الذي بعد التحدي عنه ، أولاً : لأنا قد بينا فيما تقدم أنه معلوم بكمال العقل : أن من أتي قوما هم أمثاله ونظراؤه في النسب والمحل ، وادعي رئاسته عليهم ، وأنهم يلزمهم الانقياد له ، وقبول طاعته ، وهم له كارهون ، قد أظهروا له البغضاء والعداوة ، واحتج عليهم بأمر يمكنهم مقابلته بمثله من يغر ضرر يلحقهم ، فإنه لا يجوز منهم الكف عن ذلك علي وجه من الوجوه .

يكشف ما قلنا في جواب السؤال وما قبله : أنا نعلم أن واحدا من علماء عصرنا هذا من فقيه أو متكلم ، أو أديب أو متطبب إذا كان في بلد فيه وفيما حوله

---

٢٢٩ – هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة بن عامر بن مالك العامري من أهل عالية نجد ، كان من شعراء الجاهلية وفرسانهم ، وهو أحد أصحاب المعلقات . قدم على النبي – صلى الله عليه وسلم – مع قومه فأسلم وحسُن إسلامه ، ونزل بالكوفة ومات بها في خلافة عثمان ، وقيل إنه مات في أول خلافة معاوية سنة ٤١ هـ وله من العمر ١٥٧ عاماً (الإصابة ٣: ٣٢٥ ، الأعلام ٥: ٢٤٠).

عدة من نظرائه فيما يتعاطاه أو مقاربين له مع ظهور بعضهم له ، وكراهتهم رياسته عليهم وانتصابهم لعداوته ، وركوبهم الصعب والذلول في ذلك . فإنه لا يجوز متي كان عاقلا لا آفة به أن يظن أن يطلب الرئاسة عليهم وتصريفهم علي أوامره ونواهيه بأن يحتج به عليهم ويتحداهم به، وهم متمكنون من مقابلته بمثل ما احتج وأورد بأهون سعي ، فلا يقع منهم ، ولا يختارون فعله ، بل يكفون عنه .

وإذا ثبت ذلك ، صح أن ما ذكروه من جواز حصول مثل ذلك الظن باطل وأنه – صلي الله عليه – أنما تحداهم بما أورده عليهم بأمر علام الغيوب ، ومع العلم أنه متعذر عليهم .

فإن قيل : فجوزوا أن يكون النبي – صلي الله عليه وعلي آله – عرف ذلك من جهة بعض الأنبياء ، وأن يكون وقع إليه أنه أخبر عن حاله ، وحال القوم معه بأن يكفون عن معارضته ، فاعتمد ذلك ، وبني أمر التحدي عليه لعلمه بصحته ، وأن أصل ذلك الخبر من عند الله عز وجل .

قيل له : هذا الذي ذكرت لو كان ، يزيد أمره – صلي الله عليه – قوة رغبة ، وتأكيدا ، وكان ذلك ضربا من التبشير به ، وذلك أن ذلك النبي لو أخبر أن القوم يكفون عن معارضته ، وأحوالهم علي ماوصفنا ، لكان لا يخلو ذلك الكف من أن يكون منهم علي سبيل الاختيار ، ولأن الإتيان بها كان متعذرا عليهم ، ولأن الله عز وجل صرفهم عنها ببعض لطائفه ، وقد ثبت أن الكف علي سبيل الاختيار منهم مما يستحيل ، ولا يصح كونه فلم يبق إلا أنه كان للتعذر أو للصرف ، وأيهما كان وجب كونه معجزا ، دالا علي نبوته ، فتقدم خبر نبي – أن تقدم – يكون بشارة له بأن الله عز وجل بعثه نبيا ، ويظهر عليه العلم الذي يدل علي نبوته .

فإن قيل : فإذا ثبت أنه من عند الله عز وجل . فما الذي يدل علي أنه معجز ؟ لأن التوراة والإنجيل ، وأن كانا منزلين من عند الله ، فلا يجب كونهما معجزا؟

قيل له : إذا ثبت بما بيناه تعذر مثله علي الناس ثبت كونه معجزا كما بيناه في الدليل الأول .

فإن قيل : إذا كان هذا الدليل لا يتم إلا بذكر التحدي ، وبيان تعذر مثلــه ، وعليه بني الدليل الأول ، فلم جعلتم هذا دليلا ثانيا ؟

قيل له : هذان الشرطان ، وان جمعا الدليلين ، فلكل واحــد منهمــا شــرط يخصه ، لأن الدليل الأول لا يتم إلا بأن العلم أن المعارضة لم تقع ، وهذا لا يجب أن يشترط في الدليل الثاني ، لأن الدليل الثاني يصح أن يستدل به .

وقيل : النظر في أن المعارضة وقعت ، أو لم تقع حين يكون حصول العلم بأن المعارضة لم تقع بعد استكمال النظر في الدليل ، ووقوع العلم بــه ، والــدليل الأول ليس من شروطه أن نبين أن كامل العقلاء ، لا يجوز أن يقع منه من تلقــاء نفسه مثل هذا التحدي ، ولا يجب اشتراطه في الدليل الأول . والدليل الثاني لا يتم إلا باشتراطه لأنه مبني عليه . وإذا كان لكل واحد من الدليلين شرط يخصه – ولا يتم الدليل إلا بشرطه – لما صح كونهما دليلين ، وأن جمعتهما شروط أخر .

دليل آخر علي أن القرآن معجز :

ومن الدليل علي ذلك : أن النبي – صلي الله عليه – ابتــدأ الإتيــان بهــذا القرآن علي غاية الإحكام والإتقان ، وقد ثبت جريان العادة ، أن كل أمر يقع علي وجه لا يصح وقوعه عليه إلا بعلوم تحصيل للفاعل له لا يصح وقوعه ابتداء علي غاية الإحكام والإتقان ، وأن بلوغه الغاية يتعذر إلا علي مر الدهور والأعــصار ، وتعاطي جماعة فجماعة له ، وأنه لا فرق في ذلك من شئ من الأمور التي هــي منظوم الكلام ومنثوره ، أو ما يتعلق بــالتنجيم أو الطــب أو الفقــه أو النحــو أو الصناعات التي هي النساخة أو الصياغة أو البناء أو ما أشبه ذلك .

فإذا ثبت ذلك وثبت وقوع القرآن علي الوجه الذي بيناه ثبت أنه وقع علي وجه انتقضت به العادة ، وما وقع علي وجه تنتقض به العادة ، وجب كونه معجزا ، وجري مجري قلب العصا حية ، وإحياء الموتى والمشي علي الماء والهواء .

فإن قيل : ولم ادعيتم أن القرآن وقع علي غاية الأحكام والإتقان ؟

قيل له : قد علمنا ذلك . كما علمنا في غيره مما بلغ الغاية في بابه ، وذلك كما علمنا أن التنجيم بلغ الغاية في أيام بطليموس[٢٣٠] ، وأن الهندسة قد بلغت الغاية في أيام إقليدس ، وأن الطب بلغ الغاية في أيام جالينوس ، وأن الشعر بلغ الغاية في أيام امرئ القيس ،والنابغة وزهير[٢٣١] والأعشى ، وأن النحو بلغ الغاية في أيام سيبويه والخليل ، وأن الخط بلغ الغاية في أيام ابن مقلة ، وكذلك سائر الصناعات والمهن ، وكان الطريق إلي الجميع : أنا قد علمنا من حال كل واحد ممن تعاطاه ، بأن كل من حاوله ، وتعاطي مثله أما أن يكن قصر عنه قصورا بينا ، وبعد بعدا متفاوتا ، أو قاربه أو زاد عليه شيئا زيادة كانت يسيرة لا يؤبه لمثلها ، فدلنا ذلك علي أن جميع ما ذكرناه وقع علي غاية الإحكام والإتقان في بابه في الأوقات التي ذكرناها.

فإذا ثبت ذلك وثبت أن القرآن لما أتي به النبي – صلي الله عليه – حاول كثير من الناس الإتيان بمثله فقصروا عنه قصورا ظاهرا ،وسقطوا دونه سقوطا فاحشا ، عرفه من أنصح نفسه، ولم يجحد ما تصوره ، فأما من عاند وتواقح ، فأنه أدعي المقاربة ، وأوهم الأغمار المماثلة ، ولم يدع أحد أنه يبرز عليه ،

---

٢٣٠ – بطليموس : العالِم الفلكي والرياضي اليوناني، الذي سيطرت نظرياته وتفسيراته الفلكية على الفكر العلمي حتى القرن السادس عشر، عرف بطليموس في مساهماته في حقل الرياضيات والبصريات والجغرافيا وهو صاحب مؤلفات في الرياضيات منها "كتاب المجسطي" المعروف في اللغة العربية. (الموسوعة الثقافية ، كتاب الشعب ، مؤسسة دار الشعب ، القاهرة ، ١٩٧٢ م)

٢٣١ – هو زهير بن أبي سلمة ، واسم أبيه ربيعة بن رياح بن قرة المزني من مضر . ولد بنواحي المدينة ونشأ بين غطفان بالحاجر من ديار نجد ، شارك في إنهاء حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان ومدح داعيي السلم ، وهو أحد أصحاب المعلقات . توفي سنة ١٣ ق . هـ (الأعلام ٣: ٥٢).

ويطلب وراءه أمرا للمزيد ، ولوضوح الأمر في بلوغه الغاية ، ولحوقه درجة النهاية ، فكان وقوعه علي غاية الإحكام والإتقان ، وأوضح من سائر ما ذكرناه ، لن عامة ذلك قد زيدت عليه زيادات علي مقادر احتمال الصنعة ،والقرآن ارتفع عن ذلك ارتفاعا حسم المطامع عن ابتغاء المماثلة ، فكيف ابتغاء الزيادة ، فصح بذلك ما ادعيناه ، ووضح ما ذكرناه .

علي أنه لو ثبت أن وراء غاية القرآن غاية يترتب وقوعها مزيدا يطلب . لم يقدح ذلك في استدلالنا هذا . لأنا قد علمنا أنه لما حصل ووقع لم يكن وقوعه علي أدني مراتب الكلام وأضعف وجوهه ، بل كان متجاوزا لذلك شأوا بعيدا ، وأمدا مديدا .

وهذا القدر كاف في وقوعه علي وجه انتقضت به العادة . علي أنا نقول لهذا السائل : أن كنت تعرف شيئا من الأشياء بلغ الغاية في مجري العادة فأبن عنه لنوضح بمثله أن ما ادعيناه في حال القرآن أوضح من ذلك ، ولسنا نريد بالغايات التي ذكرناها في هذه المواضع أجمع ، الغاية التي لا تكون في المقدور أو المعلوم ، ما يزيد عليها ، وإنما نريد ما يسمي غاية ، ويعد نهاية في مثله ، من طريق العادة ، فليكن ذلك مقصورا عند الناظر في كلامنا هذا . فأن المدار عليه ، والغرض ينتهي عليه .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن ما ادعيتموه من النبي – صلي الله عليه – ابتداء ، الإتيان به لا يصح ، لأن الفصاحة لم يكن هو – صلي الله عليه – ابتدأها ، بل كانت متقادمة العهد ، متداولة العرب ، قد استمرت عليها الأعصار، وتصرفت فيها الأفكار ؟

قيل له : لسنا نزعم أن الذي اختص به القرآن هو الفصاحة فقط ، حتى يلزمنا ما ذكرتموه ، وإنما نقول : إن الذي اختص به هو هذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز واقعا في أعلي طبقات الفصاحة وإذا كان هذا هكذا ، ولم

يعرف للعرب قبله – صلي الله عليه – هذا النظم المتميز عن غيره ، صح ما قلناه من أنه ابتدأ به علي الغاية في معناه .

فإن قيل : إلي ماذا تشيرون بقولكم : هذا النظم المخصوص ، والأسلوب المتميز ، فأنا لا نعقل فيه أمرا زائدا علي الكلام المعتاد ، ولم نعرف تميزا إلا بالفصاحة ؟

قيل له : نريد بذلك ما نعرفه ، ويعرفه كل متأمل كلام العرب ، لأن كلامهم أجمع لا يخلو من أن يكون موزونا أو غير موزون ، فالموزون تختلف أجناسه ، ويتميز قصيره عن رجزه ، وكل ذلك مما يعرفه أهله ، وما ليس يموزون منه ينقسم أربعة أقسام ، منها نظم الخطب وطريقتها ،ومنها نظم الترسل ومنهاجه ، ومنها أسجاع الكهنة ، ومنها المحاورات التي تجري بين الناس ، ملفوظا بها ومكتوبا في منافع الدين والدنيا ومضارهما ، وما ينطوي علي الجد والهزل ، ووجدنا أسلوب القرآن ونظمه مفارقا لهذه الأساليب أجمع ، لأنه ليس من نظم الخطب ، ولا الرسائل ولا أسجاع الكهان ،ولا المحاورات ، يعرفه كل من تأمله ، ممن ليس له أيسر حظ من المعرفة لكلام العرب .

فإما بيان أن الأعجاز تعلق بهذا الأسلوب المخصوص واقعا في أعلي طبقات الفصاحة ، فسيجئ بعد الفراغ من إيضاح هذا الدليل ، أن يسر الله عز وجل ، وسنفرد له فصلا ، فأنه باب عظيم لا يستغني عنه .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : يجوز أن يكون النبي – صلي الله عليه وآله – أدار القرآن في نفسه ، نحوا من خمسة وعشرين سنة ، من حين بلغ إلي أن بعث حتى رتبه ونقحه وهذبه ، ثم أظهره علي ما هو عليه من الغاية ؟

قيل له : ذلك مما لا يصح . لأن القرآن ليس دون الأشعار ، والرسائل . وقد علمنا : أن الشعر لم يبلغ الغاية في هذا القدر من الزمان ، ولا برجل واحد ،

وكذلك الرسائل ، وكذلك سائر الصناعات ، وأن العادة جارية بأن كل مـن ابتـدأ صناعة ، وابتكرها لا يتسع لبلوغ آخرها في مقدار عمره ، وانها لا تبلغ الغاية إلا بأزمنة تتصل ، وبجماعات يقتدي بعضهم ببعض ، ويـستعين بعـضهم بخـواطر بعض ، ويبني الخالف علي ما أسسه السالف ، فوضح بذلك سقوط هذا السؤال .

فإن قيل : أن الخليل بن أحمد ، ابتدأ العروض فأورده علي غايته ولم يـدل ذلك عندهم علي انتقاض العادة ، فما أنكرتم أن يكون القرآن مثل ذلك؟

قيل له : أن العروض هو ضرب من تقطيع الأصوات وترتيبه ، وقد سبقه بذلك صاحب المسيقي ، وبلغ الغاية فيه ،

وقد سمعنا من كان يعرف اللغة السريانية يذكر أن للأشعار المعمولة علـي ذلك اللسان عروضا قد عمل ، ويجوز أن يكون الخليل بني علي تلـك الطريقـة ، ولا يكون له إلا بتتبع أشعار العرب ، وعد أجناسها ، وردها إلي الوزن مقتفيا بـه ما ذكرناه ، ثم قد سقط عنه أوزان وأضرب منها الوزن المسمي ، " ركض الخليل " وقد جاء عليه الشعر المنسوب إلي عمر الجني وهو :

أشجاك تشتيت شعب الجن فأنت لـــه أرق وصـب ؟

وهي قصيدة طويلة .

وفي المحدثين من عمل علي ذلك . فقال قصيدة طويلة أولها :

أنسيت أفعالهم السمحا فأراك تذكرهم لهجا

وسقط عنه أيضا ضرب من الوزن المسمي بالمنشرح وهـو أن يقـع فـي القافية (مفعولات) بدل (مفتعلن) وقد جاء علي ذلك أشعار كثيرة ، وتتبع هـذا مما يخرجنا عن غرض كتابنا هذا ، وفيما أشرنا إليه كفاية .

فبأن بما ذكرناه : أنه لا يصح أن يقال : أن الخليل أورد ذلك ابتداء علي الغاية ، كما أورد النبي- صلي الله عليه – القرآن مبتدئا به ، ومبتكرا له علي الغاية في معناه ، فسقطت المعارضة .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : يجوز أن تكون أكثر هذه الصناعات لم تبلغ الغاية برجل واحد ، لأن العناية بها لم تتم ،والدواعي إليها لم تقو ، والبواعث عليها لم تتوفر . وإذا كان كذلك جاز أن تكون دواعي النبي – صلي الله عليه وآله – إلي إيراد القرآن علي هذه الصفة توفرت وبواعثه عليه قويت ، فأتي به ، وأن لم يتفق لأحد قبله ما جري هذا المجري ، ومتي جوزتم ذلك بطل ما اعتمدتموه ، من أنه وقع علي وجه انتقضت به العادة ؟

قيل له : هذا الذي ذكرتموه مما لا نجيزه ، لأن تجويز مثله يؤدي إلي أن يلتبس ما هو متعذر ، بما لا يتعذر ، وإلي أن لا يكون بينهما فرق ، وقد ثبت الفرق بينهما ، فوجب بطلان هذا السؤال ، ألا تري أن ذلك لو جاز لجاز لقائل أن يقول : جوزوا أن يكون واحد من الأطباء لم تقو عنايته ، ولم تتوفر بواعثه ، حتى يبلغ إلي حيث يحيي الموتى ، ويبرئ الأكمه والأبرص ، وأنه لا يستحيل أن يبلغ بعض الأطباء بعنايته ، ووفور دواعيه ، وقوة بواعثه ، ولجاز للآخر أن يقول : جوزوا أن يكون أحدا من السحرة المشعبذين لم تبلغ به قوة دواعيه ، وبواعثه إلي أن يبلغ مبلغا ، ثم أن قلب العصا حية ، ضرب من الحيل ، وأنه من الجائز المتوهم أن يبلغه بعض السحرة والمشعبذين ،وكذلك يجوز ذلك في سائر الصناعات ، فلما علمنا بطلان قول من يجيز ذلك ، ويشك فيه ، وجب بطلان ما سأل عنه السائل في هذا الباب .

فإن قيل : الفرق بين ما ذكرتم ، وبين ما سألنا عنه ظاهر ، لأن الذي ذكرتموه ليس جنسه ، في مقدور العباد ، وما سألنا عنه جنسه في مقدور العباد .

قيل له : عن هذا جزئيين :

أحدهما : أنا عرفنا الفرق بين ما يكون جنسه في مقدور العباد ، وبين ما لا يكون جنسه في مقدورهم ، بأن عرفنا ما قلناه . أن جنسه ليس في مقدور العباد علينا علي كل وجه ، وسؤالكم هذا يؤدي إلي أن لا يصح لنا العلم بالفرق بين ما يتعذر علينا ، وبين ما لايتعذر ، وذلك يؤدي إلي أن يفسد علينا الطريق الذي به نعرف الفرق بين ما يكون جنسه في مقدور العباد ، ومالا يكون ، وكل سؤال يؤدي إلي أفساد ما لا يتم ذلك السؤال إلا به يجب أن يكون فاسدا .

والجواب الثاني : أنه لا فرق في هذا الباب بين ما يكون جنسه في مقدور العباد ، وبين ما لا يكون جنسه في مقدورهم ، ألا تري أنا كما لا يجوز أن يبلغ الإنسان بقوة دواعيه ، ووفور بواعثه ،وشدة عنايته إلي أن يحتال حتى يطير كالنسر أو العقاب ، وأن كان الطيران حنسه في مقدورنا لأن ذلك ليس أكثر من أكوان واقعة علي وجوه مخصوصة ، وكذلك لا يجوز أن يحصل الانسان بشئ من ذلك إلي أن ينقل بعض الجبال الراسيات عن مواضعها ، وأن كان جنسه في مقدورنا ، ونظائره ، أكثر من أن تحصي .

فبان أن القول بما يؤدي إلي أن يلتبس ما يتعذر بما لا يتعذر مما لا يصح ، ويجب بطلانه ، وسواء قيل ذلك فيما يكون جنسه تحت مقدورنا ، أو لم يكن ، علي أن الذي قالوه لو كان صحيحا لأدي إلي أن لا تقع الثقة بشئ من المعجزات ، وما جري هذا المجري من الشبه التي لا يمكن حلها ، يجب علي القديم عز وجل المنع منه ، علي ما سلف القول فيه ، فكان يجب عليه عز وجل أن لا يقع ايراد مثله ابتداء للغاية ، أو يمنع أن يأتي به المتخرص علي وجه ينقض العادة .

فإن قيل : هذا الذي بنيتم استدلالكم عليه فاسد ، لأنه يؤدي إلي أن السبق إلي الشئ يوجب كونه معجزا وقد علمنا فساده ، لأن أمورا كثيرة تتجاوز الاحصاء والعد ، قد وقع إليها السبق ، كالصناعات والمهن وما يجري مجراها ، وكثير من العلوم ، وليس يكون شئ من ذلك معجزا .

قيل له : من تأمل كلامنا لم يسأل هذا السؤال ، لأنا لم نقل : ان الابتـداء بالقرآن فقط ، يدل علي أنه معجز ، وانما قلنا : أنه وقع علي وجه انتقـضت بـه العادة . لأن العادة جارية بأن الأمر المبتدأ به لا يجوز وقوعه علـي الغايـة فـي الباب المقصود إليه ، وأوضحنا ذلك، وكشفنا عن صحةما قلناه .

ثم قلنا : وقد وقع القرآن ابتداء علي الغاية في المعني المقصود إليه فوجب أن يكون وقوعه علي وجه يوجب نقض العادة ، وذلك يوجب كونه معجزا ،وليس هذا من السبق المجرد إلي الأمر في شئ ، بل هو جار مجري من لا يحفظ اليـوم شيئا من القرآن ، ثم يجده في اليوم الثاني حافظا له وللقراءات ولوجوه القراءات ، وفي أنه يجب أن يكون معجزا لأن حفظه وقع علي وجه انتقضت به العـادة ، ولا يزلمها علي ذلك القول بأن مجرد الحفظ للقرآن وللقـراءات ووجوهـا معجـز ، وكذلك القول في سائر الحروف والصناعات وأصناف العلوم ، فوضح سقوط هـذا السؤال عما اعتمدناه في هذا الباب .

فإن قيل : دليلكم هذا يقضي جواز وقوع الاتيان بمثل القـرآن علـي مـر الأعصار ، وامتداد الأزمان ، لأنكم انما قلتم : أن مثله لا يجـوز الابتـداء بـه ، والدليلان المتقدمان يقضي كل واحد منهما : ان الاتيان بمثله لا يصح ، وعلي هذا أن صح واحد من الدليلين المتقدمين ، فيجب فساد هذا الدليل ،وأن صح هذا الدليل ، وجب فساد الدليليين المتقدمين ، فيجب فساد هذا ، وأنتم قد اعتمدتم الأدلة الثلاثة وصححتموها . وذلك متعذر .

قيل له : هذا غلط ظاهر وقلة تأمل . لتراتيب أدلتنا ، لأن الدليلين يوجبان ان الاتيان بمثل القرآن لا يصح ، ولا يجوز ، وأن كان قد حكي عن قوم ، أنهـم ذهبوا إلي أن التحدي وقع خاصا في ذلك العصر ، وأنه أن أتي بمثل القرآن بعـد ذلك لم يقدح في كونه معجزا .

والدليل الثالث : لم يتضمن جواز الاتيان بمثله بعد ذلـــك ، وان كـــان لـــم يتضمن وجوب تعذر الاتيان بمثله كما تضمنه الدليليين فلا تنـــاقض بينـــه وبـــين الدليليين المتقدمين فلم امتنع أن يشتمل جميعها علي صحته كما ظنه السائل ؟

ومثال ذلك : أن المستدل علي حدوث الأجسام بأنها لم تسبق الأعراض الحادثـــة ، يصح له مع ذلك أن يستدل علي حدوثها بأنها لم تسبق الأحوال المتجددة ، ويـــصح الاعتماد علي الدليليين ، وان كان الدليل الأول يتضمن اثبـــات أعيـــان حادثـــة ، والدليل الثاني لا يتضمنه ، لأن الدليل الثاني وان لم يتضمن اثبات أعراض حادثـــة فلم يتضمن أيضا نفيها ، ولم يمتنع أن يكون كل واحد منهما دليلا صحيحا مـــستقلا بنفسه .

فكذلك أدلتنا في إعجاز القرآن وإن كان بعـــضها يتـــضمن وجـــوب مـــالا يتضمن وجوبه بعضها إذ لا يتضمن نفيه .

يوضح ذلك : أن القرآن لا يمتنع أن يكون معجزا لوجهين .

أحدهما : لا يتم إلا بأن يتعذر الاتيان بمثله علي جميع البشر إلي آخر الدهر .

والوجه الثاني : يتم تعذر ذلك مع تراخي الزمان أو لم يتعذر ؟

الكلام في بيان ماله كان معجزا

إعلم أن ما فيه من الأخبار عن الغيوب لا أشكال في كونه معجزا لأن مثله لا يجوز أن يصدر ألا عن علام الغيوب ، وسنفرد لذلك كلاما بعـون الله ، وأمـا ماله كان معجزا من غير هذا الوجه ، فقد اختلف فيه علـي مـا نبينـه ، وهـذا الاختلاف لا يقدح في الدليلين اللذين قدمنا ذكرهما ، لأن واحدا منهما لم يبن علـي وجه مخصوص ، مما اختلف فيه .

وإنما بنينا الدليل الثالث فقط علي وجه مخصوص ، مما اختلف فيه ، لأنـه مبني علي أنه صار معجزا للنظم المخصوص واقعا في أعلي طبقـات الفـصاحة علي ما مضي القول فيه ، فأي وجه من الوجوه التي اختلف فيها صح لـم يقـدح فيما قدمناه من الدليلين ، وذلك أنهما مبنيان علي أنه قد تعذر علي العرب الإتيـان بمثله ، علي وجه انتقضت به العادة فلأي وجه كان التعذر لم يؤثر ذلك في كونـه معجزا ، ألا تري أن نبيا من الأنبياء لو أتي بما يتعذر لجنسه أو صـفته أو لأيـة صفة كانت صفاته ، أو لأن الخلق أجمع صرفوا عنه ، علـي أي وجـه حـصل الصرف ، لأن الذي يتم به كونه معجزا هو حصول التعذر علي وجه تنتقض بـه العادة ، فكذلك ما قلناه في وجوه إعجاز القرآن .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : إذا كان كل واحد منكم يطعن في الوجه الذي يعتمده صاحبه في بيان الوجه الذي كان له القرآن معجـزاً ، ويبيـن فساده ، فليس يثبت شئ من تلك الوجوه ، وإذا بطلت تلك الوجوه أجمع لم يـصح كونه معجزا ، لأنه لا يكون معجزا إلا لوجه يخصه .

قيل له : الصحيح لا يفسد لطعن من يطعن فيه ، أو يحاول إفـساده ، فـإذا ثبت ذلك لم يجب فساد تلك الوجوه أجمع ، ولم يمنع أن يكون في جملتهـا وجـه

صحيح لا يؤثر فيه طعن من يطعن ، وإذا ثبت ذلك صح ما ادعيناه من كونه معجزا علي ما بيناه ، وان اختلف في الوجه الذي له كان معجزا .

ونعود إلي ذكر الوجوه التي ادعي أن أعجاز القرآن يتعلق بها ، ونبين ما نعتمده منها . أعلم أن من الناس من ذهب إلي أن القرآن لم يتعذر الإتيان بمثله لشئ من أوصافه .وإنما الإعجاز هو الصرف . ومنهم من قال : أن الإعجاز هو الفصاحة المجردة ، وأنها قد بلغت الحد الذي يتعذر الإتيان بمثلها علي جميع البشر ، وهذا قول الأكثرين من المتكلمين .

ومنهم من ذهب إلي أن الأعجاز ، أنما هو في النظم المخصوص الذي يميز به القرآن عما سواه .

ومنهم من ذهب إلي أن الأعجاز فيهما جميعا ، أعني النظم مع الفصاحة البالغة أعلي طبقات الفصاحة ، وهذا هو الذي يصح عندي ، ويتضح لدي .

علي أن من قال بالصرف لا بد له من الرجوع إلي بعض هذه الوجوه ، لأن الصرف عنده لم يقع عن جميع الكلام ، وإنما وقع عن كلام له صفة مخصوصة ، وتلك الصفة لا بد من أن تكون هي : الأسلوب أو الفصاحة ، أو هما جميعاً .

والكلام في الصرف يأتي بعد هذا الموضع . والذي يبين صحة ما اخترناه ، وادعينا صحته ، أنه لا يخلو من أن يكون الإعجاز فيه تعلق بالأسلوب المجرد ، أو الفصاحة المجردة ، أو بهما جميعا ، ولا يصح أدعاء من يدعي تعلقه بالنظم أي الأسلوب فقط ، لأنا نعلم ضرورة أن تميز نظم القرآن عن سائر أساليب الكلام المنثور كأسلوب الخطب ، وأسلوب الرسائل ،وأسلوب كلام الكهنة وأسجاعهم ، وأسلوب المحاورات ، ليس أكثر من تميز بعض الأساليب عن بعض .

وقد علمنا أن من يقدم في بعض هذه الأساليب حتى بلغ فيهـا الغايـة . ولا يجوز أن يتعذر عليه الأسلوب الآخر، حتى لا يمكنه أن يأتي بشئ منه ، وأن لـم يمكنه التصرف فيه ، وبلوغ الغاية ، كما أمكنه في النظم الآخر .

يبين ذلك : أن الخطيب المصقع ، وان تعذر عليه إنـشاء الرسـائل علـي الغاية التي يطلب لها ، فليس يتعذر عليه جملة ، بل لا بد من أن يتمكن من إنشائها في الطبقة الدنيا أو الوسطي ، وكذلك من تقدم في صناعة الرسائل ، هـذه حكمـة في الخطب ، وكذلك المقدم في المحاورات ، المتناهي فيها ، فإذا ثبـت مـا بينـاه ووضح أن من تقدم وبرع في بعض هذه الأساليب حتى فـاق نظـراءه ، وقـرع أكفاءه ، لا يتعذر عليه الإتيان بأسلوب القرآن في الطبقة الدنيا ، فصح بما بيناه أنه لا يمكن أن يقال : أن الإعجاز تعلق بمجرد النظم .

ولا يمكن أن يقال : تعلق بمجرد الفصاحة ، لأن ذلك لا يتم إلا بأن تعلم أن القرآن قد بلغ في الفصاحة مبلغا ، تجاوزت الحد الذي يتمكن منها البشر تجـاوزا انتقضت به العادة ، ولا يمكن ادعاء هذا العلم ، لأنـه لا يخلـو مـن أن يكـون ضرورة أو مكتسبا ، ولا يجوز أن يكون ضروريا ، لأن ذلـك لـو كـان كـذلك لاشترك فيه جميع من له قدم في اللغة وحظ من العلم بمواقع كلام العرب ، والأمر بخلاف ذلك ، لأن مثل ذلك في التمييز فيه ، وفي غيره من الكلام ، وفـي سـائر الصناعات يجب أن يكون طريقة الضرورة .

فإذا ثبت بما بيناه أن ادعاء التعذر في كل واحد من الأمرين لا يمكـن ولا يصح ، ثبت أن الإعجاز تعلق بمجموعها ، لأنا قد علمنا تعذر الإتيان بمثله علـي العرب بما أثبتناه وأوضحناه في كتابنا هذا ، والصفتان جرتا مجري واحدا ، أعني النظم والفصاحة في الميل إلي التعذر ، فوجب القول : بأنه تعـذر الإتيـان بمثـل القرآن في الصفتين جميعا ، فصح ما ذهبنا إليه .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أنا وان لم نعلم الآن ضرورة أن القرآن قد باين سائر كلام العرب في الفصاحة مباينة انتقضت بها العادة ، فأنا نجوز أن يكون العرب اللذين كانت المعرفة لهم بذلك جبلة وطبيعة ، عرفوا ذلك ضرورة .

قيل له : تجويز ذلك لا يؤيد صحة ما ادعيتموه : لأن الذي بني عليه الدليل: لا يعني فيه التجويز ، وإنما يجب أن تثبت فيه الصحة علي القطع حتى يصح الدليل الذي بني عليه ،و أنتم لم تثبتوا صحته ولا يستقيم سؤالكم .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون من تأمل قول الله عز وجل : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ﴾ (٢٣٢) وقوله سبحانه : ﴿ **وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ، وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (٢٣٣) وقوله عز وجل : ﴿ **فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ، وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ، وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ، وَمَاء مَّسْكُوبٍ** ﴾ (٢٣٤) عرف ما ادعيناه ، من أن فصاحة القرآن ، وقعت علي وجه انتقضت به العادة .

قيل له : نحن لا ننكر أن ألفاظ هذه الآيات جزلة واقعة في أعلي طبقات الفصاحة من جهة الجزالة ، ألا أن بين أن يكون الكلام كذلك ، وبين أن تنتهي فصاحته إلي حيث تنتقض العادة : بون ، وهذه الآيات لا يكاد يذكرها إلا المتكلم الذي لا يتصور من أقسام الفصاحة إلا جزالة اللفظ .

وذلك لعمري قسم منها عظيم الموقع ، وأن كانت أقسام الفصاحة كثيرة متنوعة علي ما نذكرها ونبينها بعد الفراغ من هذا الفصل ، وإنما صار هذا القسم

---

٢٣٢ – هود : ٤٤

٢٣٣ – النجم : ١-٤

٢٣٤ – الواقعة : ٢٨-٣١

يشترك في العلم به من خفت بضاعته في معرفة كلام العرب ، أو تـوفرت ، لأن لها حلاوة تدرك من جهة السمع ، كما أن للألوان المخصوصة كالصفرة والخضرة ، ونحوهما : حلاوة ، تدرك من جهة البصر ، وكذلك ما يختص سائر الحـواس ، وليس كذلك سائر أقسام الصناعات ، لأن العلم بها مفتقر إلي العلم بطرائق العرب في منظوم كلامهم ، ومنثوره ، وجهات تصرفهم فيها ، وكثير من أحوال لغـاتهم وعاداتهم في إيرادها .

وهذه أبواب لا يستقل بمعرفتها من لم يكن مطبوعا عليها ، إلا أن ينال منها حظا جزيلا ، وقسما وافرا .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن النبي – صلي الله عليه – قـد تحدي القرآن ، وعلمنا ذلك من حاله ، ولم يثبت أن النظم كان مقصودا بالتحدي ، وإذا لم يثبت ذلك ، ثبت أنه لا بد من وجه يكون هو المقصود بالتحدي ، ثبـت أن ذلك الوجه هو الفصاحة فقط ، فبطل قول من يقول : أن النظم مقصود بالتحدي ؟

قيل له : لا فصل بينكم وبين من قال : لم يثبـت أن الفـصاحة مقـصودة بالتحدي ، وإذا لم يثبت ذلك فكان لا بد من وجه يكون هو المقـصود بالتحـدي ، وعليه ثبت أن ذلك الوجه هو النظم فقط ، وذلـك أن القـرآن لـه هـذا الـنظم المخصوص والفصاحة المخصوصة ، وقد وقع التحدي به ، وثبت عجـز البـشر عن الإتيان بمثله ، فلم يكن ادعاء تعلق العجز بأحد الأمرين أولي من ادعاء تعلقـه بالآخر ، فيجب أن يقال : أنه متعلق بهما أو يقال : انه لا يتعلق بواحـد منهمـا ، ولا يصح القول بأنه لا يتعلق بواحد منهما ، لأنه لا بد من وجه به يتعلق الإعجاز ، ويكون هو المقصود بالتحدي ، فإذا ثبت ذلك فيجب تعلـق الأعجـاز بـالأمرين ،وأن يكونا جميعا مقصودين بالتحدي علي ما ذهبنا إليه ، علي أنا قد عرفنـا مـن حال كل من ادعي أنه يعارض القرآن أو يأتي بما يقاربه نحو مـسيلمة وطليحـة وابن المقفع ، علي اختلاف أحوالهم ، طلب الأسلوب والفصاحة معا ، ولـم يكـن

فيهم من كان يأتي بشعر أو خطبة فيدعي أنه قد أتي بما يقاربه ، فدل ذلك علي أنهم أجمعون عرفوا أن المقصود بالتحدي هو النظم والفصاحة معا ، فدل ذلك علي صحة ما قلناه .

علي أن قوله عز وجل : ﴿ **فأتوا بسورة من مثله** ﴾ وقوله عز وجل ﴿ **فأتوا بعشر سور مثله مفتريات** ﴾ يدل علي أن النظم مقصود بالتحدي ، لأن اسم السورة لا ينطلق علي الشعر ، ولا الخطبة ولا الرسالة ولا اسجاع الكهنة ، ولا المحاضرة ، وإنما ينطلق علي ماله هذا النظم المخصوص ، فإذا كان كذلك كان قوله : ﴿ **قل فأتوا بسورة** ﴾ جاريا مجري أن يقول : فأتوا بجملة لها هذا النظم المخصوص ، فبان صحة ما ادعيناه من تعلق الأعجاز بالنظم مع الفصاحة .

فإن قيل : إذا ثبت أن هذا النظم المخصوص لم تكن العرب تعرفه ، ولا جرت عاداتها باستعماله ، فمن أين ادعيتم : أن اسم السورة يتناوله دون سائر أجناس الكلام ؟

قيل له : هذا الاسم جاري مجري الأسماء الشرعية ، لأنه لم تكن العرب تستعمله في جمل شتي من أجناس الكلام ، وإنما استعمل ذلك بعد نزول القرآن ، إلا أنه لما قال عز وجل ﴿ **بسورة من مثله** ﴾ وقال : ﴿ **عشر سور مثله مفتريات** ﴾ صح أنه يجوز استعماله فيما يجانس نظمه من الكلام . وهذه دلالة قوية يجوز أن تعتمد ابتداء في بيان أن النظم مقصود بالتحدي ، وإذا ثبت ذلك ثبت تعلق الإعجاز بالنظم علي ما قلناه .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن الأعجاز تعلق بالنظم فقط ؟

قيل : قد تقم بيان فساد قول من يقول ذلك . لأنا بينا أن مثل هذا النظم لا يجوز أن يتعذر علي من لا يتعذر عليه سائر أجناس النظم ، وذلك يسقط هذا السؤال ، ولا يصح أيضا سؤال من يسأل فيقول : إذا لم يكن النظم معجزا ، فيجب

أن تكون الفصاحة هي المعجزة ، ولا سؤال من يسأل فيقول : أن الفـصاحة قـد انتقضت بها العادة ، فلا وجه لضم الأسلوب إليها ، لأنا قد بينا أن الإعجاز بهمـا تعلق ، وأنه لا سبيل لنا إلي العلم بأن فصاحة القرآن قد بلغت إلي حد انتقضت به العادة ، وبينا أن الأعجاز بهما تعلق ، أعني النظم والفصاحة ، وأن ذلـك جـاري مجري العلة ذات وصفين ، في أن كل واحد من الوصفين ، لا يتعلق الحكـم بـه علي الانفراد .

فإن قيل : فإذا قلتم : أن النظم علي الانفراد غير متعـذر علـي البـشر ، وكذلك الفصاحة علي الانفراد غير متعذرة علي البشر ، فكيف يصح أن تقولـوا : يتعذر عليهم الجمع بينهما ، وهذا يؤدي إلي القول بأن الإتيـان بمثـل القـرآن لا يتعذر علي البشر ؟

قيل له : معاذ الله من ذلك . فأن القول الذي قلناه ، لا يؤدي إلي ما ذكـرتم علي ما نبينه ونوضحه ، وذلك أن الذي من أجله أن لا يتعذر النظم هو العلم الذي يحصل به وهو العلم بأن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة أعقب هذا : الـنظم أو غيره من نظم أجناس الكلام موزونة أو منثورة ، ويتعذر ما يتعذر من ذلـك لفقـد هذا العلم ، وكذلك الذي من أجله أن لا تتعذر الفصاحة هو أن يعلم أن كل كلمة إذا وقعت عقيب أي كلمة ، وما جري مجراها من تبديل حرف عن حـرف أو كلمـة عن كلمة خرج الكلام فصيحا .

وجملة هذا العلم هي علوم ضرورية وأن كانت لا تحـصل إلا بالممارسـة كالعلم بالمهن والصناعات ، ثم العلم بما إذا أتي به كان فصاحة في الطبقة الدنيا أو الوسطي أو العليا في نظم مخصوص علم ثالث .وهو أيـضا إذا حـصل حـصل ضرورة ، وإذا كان هذا هكذا لم يمتنع أن يكون الله عز وجل لم يجمع لأحـد مـن البشر بين هذه العلوم الثلاثة . أحدهما : هو العلم بما به يكون هذا النظم واقعا في

أعلي طبقات الفصاحة . وإذا لم يمتنع ذلك لم يمتنع أن يتعذر علي جميع البشر الإتيان بمثل القرآن لفقد أحد العلوم الثلاثة ، وان حصل العلمان .

يكشف هذه الجملة : أنا نعلم أن الكاتب الذي يكتب الرسائل في أعلي طبقات الفصاحة إذا عدل عنها إلي الشعر ربما لم يمكنه أن يأتي به في أعلي طبقات الفصاحة ، وكذلك الشاعر المفلق ربما أمكنه في الشعر أن يرتقي إلي أعلي طبقات الفصاحة ، فإذا أخذ يكتب الرسائل هبط عن مرتقاه .

وعلم أن هذا الخطيب المصقع ، أو المحاور الفصيح قد يعدل أو الواحد منهما عما هو نهاية فيه إلي غيره ، فلا يمكنه بلوغ النهاية فيه ، فوضح بما ذكرنا : أن العلم بإيقاع الفصاحة في نظم مخصوص علم ثالث غير العلم بالنظم ، والعلم بالفصاحة ، فلم يمتنع أن يتعذر ما ذكرنا لفقد ذلك العلم ، وهذه العلوم هي التي يعبر عنها بالطبع فيقال : فلان مطبوع في كذا ، غير مطبوع في كذا ، والمرجع به إلي العلوم التي ذكرناها .

يكشف ذلك : أنا نعرف من حال الخليل والأصمعي[٢٣٥] ومن جري مجراهما أنهم كانوا يعرفون الفصاحة ، ولم تتعذر عليهم ، وكانوا يعرفون وزن الشعر ولم يكن يتعذر ، ومع هذا نعلم أن واحدا منهم لم يكن يمكنه أن يأتي بمثل

---

٢٣٥ – الأصمعي : هو أبو سعيد بن عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي ، مولده ووفاته بالبصرة (١٢٢ هـ – ٢١٦ هـ) ونسبته إلى جده أصمع ، وكان الأصمعي كثير التطواف في البوادي يقتبس العلوم والأخبار والغرائب والنوادر ليتحف بها الخلفاء فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة ، وصار إماماً في اللغة والشعر والبلدان والأخبار ، وعرف بكثرة الحفظ ورواية الشعر والصدق والتدين والإفتاء بما أجمع عليه العلماء ، والتوقف في المسائل الخلافية ، وتجويز أفصح اللغات فقط ، وعدم تفسير شيء من القرآن والحديث ، فإذا سئل عن شيء منهما يقول : معناه في اللغة كذا ، ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة أي شيء هو ؟ ولذلك نالت مروياته من التوثيق أكثر مما نالت مرويات غيره ، استقدمه هارون الرشيد وعهد إليه بتأديب ولده ، وكان يسميه شيطان الشعر ، ألف كثيراً من الرسائل والكتب اللغوية منها (الأصمعيات) وهي ٩٢ قصيدة مختارة لواحد وسبعين شاعراً في موضوعات متنوعة (الأعلام ٤: ١٦٢ ، القاموس الإسلامي ١: ١٢٦).

أشعار امرئ القيس ، والنابغة ، والأعشي ومن دونهم من فحول الشعراء ، وليس السبب فيه إلا ما ذكرناه ،ولهذا تجد من يتفاصح في كثير من أجناس النظم ، إذا طلب نظم القرآن سقط دون غرضه وهبط دون مرتقاه ، وليس ذلك إلا أنه يفقد العلم الذي معه يصح إيقاع الفصاحة في هذا النظم المخصوص .

فإن قيل : ما تتكرون علي من قال لكم : إذا كان هذا النظم لم يكن عرف قبل النبي – صلي الله عليه – فما أنكرتم أن يكون معجزا علي الانفراد لأنه بالإتيان به يكون ناقضا للعادة ؟

قيل له : ليس معني قولنا في المعجز : أنه ناقض للعادة . أنه أتي به من غير أن كان مثله قبل ذلك الوقت . لأن السبق إلي الشئ لا يوجب كونه معجزا ، ألا تري أن كثيرا من الصناعات قد ابتدأت ، ووقع السبق إليها من أقوام ، ولا يصح ادعاء المعجز في شئ . وإنما نريد بقولنا : انه ناقض للعادة ، أن مثله يتعذر علي جميع البشر ، والعادة المنقوضة استمرار الحال في تعذره علي ما قلنا

فأما قول من يقول : أن الأعجاز في الصرف في جملة القرآن ، فهو عندي بعيد جدا . لأن الصرف عن الشئ يمكن أن يدعي إذا علم أنه مقدور عليه ، غير متعذر وجود مثله ، ممن ادعي أنه مصروف عنه ، وليس هاهنا ما يبين أن الإتيان بمثل القرآن كان ممكنا للعرب غير متعذر عليهم ، بل قد ذهبنا علي خلاف ذلك ، فبان سقوط من ادعاه .

وأيضا القول بذلك يؤدي إلي أن يعرف الفرق بين ما يتعذر علي الناس ، وبين ما لا يتعذر ، لأنه لو جاز لهم أن يقولوا ، أن العرب صرفوا عن الإتيان بمثل القرآن ، وان لم يثبت تأتيه منهم لجاز أن يقال : إن الناس صرفوا عن فعل الأجسام والألوان والحياة والقدرة ، وان لم يثبت أن شيئا منه متأت منهم ، وهذا واضح السقوط . وكذلك القول في الصرف عن القرآن .

وأما سؤال من يسأل من أهل هذه المقالة . فيقول : إذا كان الانسان قادرا علي أن يقول " الحمد لله " ويتأتي منه أن يقول : " رب العالمين " وغير متعذر عليه أن يأتي علي جميع القرآن ، فما الذي يمنعه عن الإتيان بمثله ؟ ومتي يحصل التعذر ؟ أعند أول كلمة ؟ أو عند الثانية ؟ أو الثالثة ؟ أو ما بعدها ؟ وذلك مما لا يصح ، فثبت أن الإعجاز هو الصرف ، فأنه من ركيك السؤال ، لأنا قد بينا فيما تقدم : أن إنشاء الخطبة أو الشعر أو الرسالة أو نظم القرآن في أعلي طبقات الفصاحة يحتاج إلي علم زائد علي العلم بالنظم والفصاحة ، وذلك العلم الزائد هو الذي يعبر عنه بالطبع ، فلا وجه لهذا السؤال .

علي أنا نوضح سقوطه ، بأن نقول لهذا السائل ، أليس قد علمت أن كل أحد ممن يعرف لغة العرب يمكنه أن يقول : " فأنك " ويمكنه أن يقول :" كالليل " ويمكنه أن يقول : " الذي " ولا يتعذر عليه أن يقول :" هو مدركي " ويتأتي منه أن يقول :" وان خلت " ويتأتي منه أن يقول : " أن المنتأي " ولا يتعذر عليه أن يقول : " عنك واسع " .

أفتري أن كل من يعرف لغة العرب يمكنه أن يأتي بمثل قول النابغة :

فأنك كالليل الذي هو مدركي وان خلت أن المنتأي عنك واسع

فيقال له : متي يحصل المتعذر عليه عند أول لفظة ؟ أو عند الثانية ؟ أو عند الثالثة ؟ أو بعدها ؟ ثم يلزم ذلك في جميع أشعار العرب وخطبهم ، وهذا فساد أظهر من أن يحتاج إلي الإطناب ، ولا بد لهذا السائل من الرجوع إلي ما تقدم من جوابنا.

ولهذا قالوا : أن الشاعر المفلق : هو الذي يرمي قريحته بالبيت بعد البيت ، والمتوسط: من يأتي بالمصراع بعد المصراع ، والمتكلف : من يأتي بالكلمة بعد الكلمة حتى يؤلفها شعرا . وليس الفاصل بين الشاعر الأول والثاني أو الثالث إلا العلوم التي أشرنا إليها المعبر عنها بالطبع ، وهكذا أحوال الخطباء والمترسلين عنهم ، منهم من يستجيب طبعه إلي أن يأتي بالفصول بعد الفصول ، والاسجاع

بعد الاسجاع ، يكاد يتسلسل عليه ماء العذوبة ، ويبعد عن التكلف والتعسف ، ومنهم من يؤلف الكلمة إلي الكلمة والسجع إلي السجع متعمدا أن تنادي علي نفسها بأنها متكلمة متعسفة ، وليس الفاصل بينهم إلا الطبع ،وعلي أن الإعجاز لو كان من جهة الصرف ، لكان الصرف هو المعجز ، ولم يكن القرآن معجزا ، وهذا خلاف ما يعلم من دين المسلمين ، لأن المسلمين مجمعون علي أن الله عز وجل جعل القرآن معجزا لنبيه – صلي الله عليه وآله .

ويدل علي ما قلناه أيضا من كون القرآن معجزا في نفسه : ما حكي الله عز وجل حيث يقول : ﴿ **ثُمَّ نَظَرَ ، ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ، ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ، فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ** ﴾ (٢٣٦)

وما ذكر من اجتماع أبي جهل ، وعتبة بن ربيعة ، في ملأ من قريش يتعجبون من القرآن حين قالوا : نحتاج إلي رجل يعرف الشعر ، ويعرف كلام الكهنة ، فقال عتبة بن ربيعة : أنا لذلك ، ومضي إلي رسول الله – صلي الله عليه – فتلا عليه قول الله عز وجل : ﴿ **حم . تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (٢٣٧) حتى مر في السورة ، وانتهي إلي قوله : ﴿ **فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ** ﴾ (٢٣٨) فقام مرعوبا مدهوشا ، وقال : سمعت الشعر ، وسمعت كلام الكهنة ، وما هذا شيئا من ذلك ، وإلي سائر ما ذكر من غيرهم في أمر القرآن ، فلو كان القرآن أمرا لا يتعذر مثله علي العرب ، وإنما صرفوا ، كان لا يتعجب منه المتعجب ، ولا يحار فيه الحائر ، وإنما كان يكون التعجب والحيرة في صرفهم، ألا تري أن نبيا لو قال : معجزتي : أن أكلمكم اليوم إلي المساء بما تكرهون ، فلا يمكن أحدا منكم أن يجيبني لأنكم تصرفون عنه ، كان الإعجاز في صرفهم هو الذي يكون أعجوبة .

---

٢٣٦ – المدثر : ١٢–٢٤

٢٣٧ – فصلت : ٢

٢٣٨ – فصلت : ١٣

وقد يحار من يحار دون مخاطبته المعهودة لهم ، كذلك يجب أن يكون حال القرآن والصرف علي أوضاعهم لو كانت صحيحة ، وفي حري الأحـــوال علـــي خلاف ذلك دلالة علي فساد قولهم .

فأما السور القصار ، فليس يبعد عندي أن يقال : أنهم صرفوا عن الإتيـــان بمثلها ، إذ ليس يظهر لنا في نظمها وفصاحتها ما يمكن أن نقـــول : إن الإعجـــاز يعلق فيه ، وهذا فيه نظر والله أسأل حسن التوفيق .

ونحن نبين الآن فصاحة القرآن وشرف موقعه ، ومـــصادفة نظمـــه علـــي طبقات الفصاحة ، إذ به يتم ما اعتمدناه وبنينا كلامنا عليه ،والله الموفق والمعين . هذا ولست أطمع في أن أذكر جميع مزاياه وعجائبه ، وما اختص به مـــن دقـــائق المعاني ،وعلو رتبته في الفصاحة ، ومباينته عامة كلام العرب مما يوجب شـــرفه ويدل علي بلوغه ذروة البلاغة ، وغارب الفصاحة التي أذكر يسيرا مـــن كثيـــر ، وغيضا من فيض ، علي ما يحضرني في الحال ، منبها به علي ما سواه مـــستعينا بالله عز وجل ، ومستمدا من فضله ، وراغبا إليه عز وجل أن يكتبه في صحفنا ، إذا الصحف نشرت ، وإذا السماء كشطت ، ويبيض وجوهنا ، يوم تبيض وجـــوه ، وتسود وجوه ، حسبي الله وكفي .

الفصل السادس

الكلام في بيان أن القرآن في أعلي طبقات الفصاحة

إعلم : أن هذا لا يتم ألا بأن نبين جملا من أقسام الفصاحة ، ثـم نبـين أن نظم القرآن مشتمل عليها ، ونبين مزايا القرآن فيها ، ونلحق بذلك ما يكشف عـن غرضنا في هذا الباب كشف يوضحه ، ولا يبقي معه لمرتاد الحق شبهة ، بعـون الله عز وجل ، وحسن توفيقه .

اعلم ، أن أصل الفصاحة ، هو الإبانة عن المعني المقصود بحسن البيـان ، وهذا معني ما حكي الله عز وجل عن موسي – صلي الله عليه – ﴿ **وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَاناً** ﴾ (٢٣٩) أي أحسن بيانا .

فمن أقسام الفصاحة أن يكون الكلام مركبا من اللغات الفاشية فـي العـرب التي لم يسترذلها أحد منهم نحو " عنعنة تميم " و " كشكشة ربيعة " وذلك أن قومـا من تميم تجعل الهمزة المفتوحة عينا ، وأنشد الخليل فيه :

وجيها موشك عن يصدع الكبدا

أراد أن يصدع

وقوم من ربيعة يقولون للمرأة : عليش وأليش وبش . يريدون : عليك واليك وبـك . فيجعلون الكاف شيئا وينشدون :

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

سوي أن عظم السابق منش دقيق

قال الخليل : من ترك عنعنة تميم ، وكشكشة ربيعة ، فهم الفصحاء ، ومن ذلك ما حكي عن قوم من العرب أنهم يكسرون النون ، التي تـدخل علـي الفعـل المستقبل فيقول : ونذهب ، ونخرج ، ومن ذلك جر الاسم لمجـاورة المجـرور ،

---

٢٣٩ – القصص : ٣٤

وان لم يكن ذلك حقه كقولهم (جحر ضب خرب) ولذلك ذهب نحاة البصرة إلي أنه لا يجوز أن يتأول قول الله عز وجل ﴿ **وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ [٢٤٠] إذا قرئ بجر اللام فيقال : إن ذلك لمجاورة المجرور .

فأصل الفصاحة أن يسلم الكلام من ذلك ، وأشباهه ، وقد سلم كل القرآن من أوله إلي آخره . فهذا باب من الفصاحة ، ولهذا اقرأ (أبو عمر) " **أن هذين لساحران** " ولم يتأوله علي لغة من يجلع المنصوب للألف ، فيقول : (خدر جلاها واخلع نعلاها) ومثل ذلك :

إن أباها وأبا أباها قد بلغا في المجد غايتاها

وفيمن قرأ بالألف من حمله علي أن (أن) بمعني (نعم) وكره تأويله علي الوجه الأول لما قلناه .

ومن أقسام الفصاحة : أن يكون الكلام مؤلفا من لغات ترتفع عن المبتذل السوقي وتنحط عن المستقل الحوشي . ولهذا نجد أشعار الفصحاء المجيدين نحو امرئ القيس ، والنابغة وزهير والأعشي ،جارية علي هذه الطريقة لا يكاد يوجد فيها الحوشي المستقل ، ألا أن تتفق ندرا ، وإنما يكثر ذلك في كلام الأجلاف من العرب والمتكلفين نحو : الشماخ ، ورؤبة ، ومن نحا نحوهما ، فأما السوقي المبتذل فقل ما يتفق في كلام أهل البادية ، وإنما يكثر ذلك في كلام المولدين ، وأشعارهم والقرآن من أوله إلي آخره مؤلف من النمط المختار في هذا الباب ، فهذان القسمان من الفصاحة قد استمرا في جميع القرآن بحمد الله ومنه .

ومن أقسام الفصاحة : جزالة اللفظ ، وهي موجودة في جل القرآن وجمهوره ، وأن لم يوجد في جميعه – كما قلناه في القسمين الأولين ، لأنه ليس في قوة الطويل الذي يصرف علي معاني مختلفة ، ومقاصد متباينة ، وأغراض متمايزة ، كالأوامر والنواهي والزواجر والمواعظ والوعد والوعيد والقصص

---

٢٤٠ – المائدة : ٦

والمثل أن يكون جميعه مؤلفا من ألفاظ جزلة ، لأن جزالتــه تكــون لتأليفــه مــن حروف مخصوصة ،والكلام مبني من الأسماء والأفعال والحروف ، وفي الكثيــر من الأسماء والأفعال والحروف ما لم يؤلف من الحروف التي تقتــضي جزالـــة ، والفصيح إذا صار إلي تلك الأسماء والأفعال والحروف ، فلا بد من إيرادها علـــي ما هي عليه ، إذا كان متكلما بكلام العرب .

ولهذا لا يمكن في شئ من أشعار فحول الشعراء ، وكلام البلغاء أن يكــون من أوله إلي آخره مؤلفا من ألفاظ جزلة .

فأما العذوبة فهي أمكن لأنها تكون بالتلاؤم وأن لا تكون الكلمة مؤلفة مــن حروف متنافرة وذلك أمكن من الجزالة . وقد يكــون ذلــك بــتلاؤم الحركــات والسكنات كما يكون بتلاؤم الحروف ، وأما مواضعها من القرآن فــأكثر مــن أن يأتي عليها الإحصاء والعد ونحن نذكر منها مواضع ننبه بها علي ما سواها ، مــن ذلك قوله عز وجل ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَــبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** ﴾ (٢٤١) وقوله : ﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَــفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ** ﴾ (٢٤٢) وفي هذه الآية من وجوه الفصاحة سوي الجزالة ما نبينه في موضعه .

وكقوله : ﴿ **الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَــلاَ رَفَــثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ** ﴾ (٢٤٣) وكقوله عز وجل : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ (٢٤٤)

وقوله : ﴿ **وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ** ﴾ (٢٤٥) .

وقوله عز وجل : ﴿ **فَإِنِ انتَهَواْ فَلاَ عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ** ﴾ (٢٤٦)

---

٢٤١ – البقرة : ١٧

٢٤٢ – البقرة : ٢٠

٢٤٣ – البقرة : ١٩٧

٢٤٤ – البقرة : ١٧٩

٢٤٥ – البقرة : ١٩٤

وقوله : ﴿ **وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُواْ يَعْرِشُونَ** ﴾ (٢٤٧) وقوله : ﴿ **وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُواْ يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَـهاً كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ** ﴾ (٢٤٨) وكقوله : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (٢٤٩) وقوله عز وجل : ﴿ **فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ** ﴾ (٢٥٠) وكقوله عز وجل ﴿ **كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ** ﴾ (٢٥١) وهذه السورة أكثر ألفاظها من ألفاظ الجزالة مع العذوبة ، وفيها : ﴿ **وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءكِ وَيَا سَمَاء أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاء وَقُضِيَ الأَمْرُ** ﴾ (٢٥٢) وفيها : ﴿ **ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْقُرَى نَقُصُّهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَآئِمٌ وَحَصِيدٌ ، وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَـكِن ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ** ﴾ (٢٥٣)

ومن ذلك عامة سورة القصص وهو من الفصاحة العجيبة ، لأن أول هذه السورة في اقتصاص أحوال موسي – صلي الله عليه – من مولده إلي مبعثه إلي قصده فرعون ، مبلغا ما أرسل به إليك ، وذلك مما يصعب جدا في اقتصاص أحوال معينها لأنه لا بد من ضعف يعرض فيما جري مجراه ، فإذا أردت أن تتحقق ذلك فتأمل كلام الفصحاء إذا قصدوا هذا القصد ، ومن ذلك عامة " **حم** " السجدة . تأملها ، تجدها علي ما قلناه . ومن ذلك : ﴿ **والنجم إذا هوي ، ما ضل صاحبكم وما غوي** ﴾ وما بعدها من الآيات .

---

٢٤٦ – البقرة : ١٩٣

٢٤٧ – الأعراف : ١٣٧

٢٤٨ – الأعراف : ١٣٨

٢٤٩ – الأعراف : ١٩٩

٢٥٠ – الأعراف : ١٧٥

٢٥١ – هود : ١

٢٥٢ – هود : ٤٤

٢٥٣ – هود : ١٠٠-١٠١

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٢٥٤) ومن ذلك في السور القصار قوله : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ، أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ ، تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ، فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ** ﴾ (٢٥٥) وقوله عز وجل : ﴿ **وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً ، فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ، فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً ، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً** ﴾ (٢٥٦)

وتتبع هذا مما يتعذر ، فان أكثر القرآن علي هذا ، ونحن إذا بينا سائر أقسام الفصاحة نتية في أثنائها أيضا علي ما فيها من الجزالة ، وأن هذا باب عام فيه ، وان كان بعض الألفاظ يزيد علي بعض ،وفي هذا المعني - أعني في الجزالة والعذوبة ومن أقسام الفصاحة : الاستعارات والتشبيهات . وإحداهما قريبة من الأخرى ، وان كان بينهما فصل ، وذلك : أن التشبيه هو أن يذكر الشئ باسمه ،ويشبهه بغيره ، كقولك : " زيد مثل الأسد شجاعة ،وكالريح جودا ، وكالبدر حسنا" .

والاستعارة أن تنقل إليه اسم الشئ المشبه به ،وذلك كقولك (حمار) إذا وصفته بالبلادة ، أو (كلب) إذا وصفته بالخساسة ، والاستعارات والتشبيهات في القرآن كثيرة حسنة واقعة موقعها لحسنها ، وشرف موضعها ،ونحن نذكر منها جملا ننبه بها علي ما سواها ، لأن استيفاءها مما يطول ويتعذر ، فمن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَّ يُبْصِرُونَ** ﴾ (٢٥٧) فشبه المنافقين الذي أظهروا الإيمان ،وانتفعوا به بين المسلمين بمن استوقد نارا ، حتى أضاءت ما حوله ،

---

٢٥٤ - النمل : ٦١

٢٥٥ - الفيل : ١-٥

٢٥٦ - العاديات : ١-٥

٢٥٧ - البقرة : ١٧

وشبه أحوالهم عند الموت ، وبعد الموت في أنهم لا ينتفعون بما أظهروه من الإيمان ، ثم " **ذهب الله بنورهم** " فشبه المنافقين الذي أظهروا الإيمان ،وانتفعوا به بين المسلمين بمن استوقد نارا ، حتى أضاءت ما حوله ، وشبه أحوالهم عند الموت ، وبعد الموت في أنهم لا ينتفعون بما أظهروه من الإيمان ، ثم " **ذهب الله بنورهم** " حتى بقوا في " **ظلمات لا يبصرون** " ثم استعار لهم عز وجل اسم الأصم والأبكم ، وضم الأعمى ، فقال " **صم بكم عمي فهم لا يرجعون** " فهم في إعراضهم عن استماع الحق بمنزلة الصم الذين لا يسمعون ، وفي تركهم النطق بالحق علي ما أمرهم الله عز وجل ودعاهم إليه ، بمنزلة الخرس الذين لا ينطقون

ثم قال عز وجل : ﴿ **أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ** ﴾ (٢٥٨) إلي آخر الآية ، فشبههم في حيرتهم وتبلدهم واضطراب أمورهم ، وحرج صدورهم بمن يكون في ظلمات ورعد وبرق ، ثم ذكر هذا المعني بقوله عز وجل : ﴿ **وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاء** ﴾ (٢٥٩) ثم زاد في وصف أحوالهم فقال : ﴿ **يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاء لَهُم مَّشَوْاْ فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُواْ وَلَوْ شَاء اللّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّه عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** ﴾ (٢٦٠) ثم رد عز وجل هذا المعني ، أعني تأثير البرق في الأبصار في غير هذه الألفاظ ، فقال : ﴿ **يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ** ﴾ (٢٦١) وهذا من الفصاحة العجيبة والبلاغة التامة أن يرد معني واحدا بألفاظ مختلفة تجمعها الفصاحة ، ثم عاد عز وجل إلي ذكر من بدأ بذكرهم ، فقال : ﴿ **والله محيط بالكافرين** ﴾ وهذا قسم من الفصاحة ، وهو أن يجري ذكر شئ ، ثم يتجاوز إلي ذكر غيره ، ثم يعطفه عليه ، ويعاد ذكره ، أعني المذكور أولا مثل قول جرير :

---

٢٥٨ – البقرة : ١٩

٢٥٩ – الأنعام : ١٢٥

٢٦٠ – البقرة : ٢٠

٢٦١ – النور : ٤٣

متي كان الخيام بذي طلوح ؟ سقيت الغيث أيتها الخيام

فجمعت هذه الآية أنواع الفصاحة منها الجزالة في اللفظ مع التشبيهات والاستعارة الواقعة ، والعطف آخر الكلام علي أوله ....

ومن الأمثال الحسنة والتشبيهات الواقعة ما ذكره عز وجل من قوله عز وجل : ﴿ **مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ** ﴾ (٢٦٢) إلي قوله : ﴿ **يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ** ﴾ (٢٦٣) فشبه عز وجل من أنفقوا ابتغاء لوجه الله ،وطلبا لثوابه الرادع ، بما يحصل لهم من الربح بحبة ،وبمن له جنة بربوة ، آتت أكلها ضعفين ، وشبه من أحبط ثواب انفاقه بطلب الرياء والسمعة بصفوان عليه تراب إذا أصابه الوابل ، وبمن له جنة ، وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت ، وكلها تشبيهات ، وأمثال واقعة ، بألفاظ جزلة .

ومن الاستعارة الحسنة قوله عز وجل : ﴿ **وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ** ﴾ (٢٦٤) وقوله : ﴿ **وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (٢٦٥) فجمع بين الآية ، الاستعارة الحسنة ، والجزالة البالغة ، والعذوبة اللطيفة .

وأخذ هذا المعني الكميت فقال :

خفضت لهم مني جناحي مودة إلي كنف عطفاه أهل ومرحب

فأخذ اللفظ والمعني ، ولكن لم يرزق تلك العذوبة الصافية ، وذلك الماء المتسلسل علي أن هذه اللفظة في غرة هذا البيت مع ما بها ، والباقي كما يري ، ومن الاستعارة الحسنة العذبة مع الجزالة قوله عز وجل " **واشتعل الرأس شيبا**"

---

٢٦٢ – البقرة : ٢٦١

٢٦٣ – البقرة : ٢٦٦

٢٦٤ – الإسراء : ٢٤

٢٦٥ – الشعراء : ٢١٥

فاستعار للبياض اسم الاشتعال مصبوبا في قالبه ، مقصورا عليه وهذا من الفصاحة البالغة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ** ﴾ (٢٦٦) إلي آخر الآية ، فسمي نفسه باسم النور لما كان عز وجل ، هو خالق النور ومنشئه ، مع ما فيه من النفع العظيم لأهل السموات والأرض ، وهذا من الاستعارة الحسنة ، ومن تسمية الفاعل بفعله ، ومنه قول الشاعر :

تراعي إذا غفلت ، حتى إذا ادكرت فإنما هي إقبال وإدبار

وعلي هذا تأول من قرأ ﴿ **إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ** ﴾ (٢٦٧) برفع اللام وفتح الميم ، ثم شبه نوره بالمصباح ، فقال : ﴿ **مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ** ﴾ (٢٦٨) ثم شبه الزجاجة بالكوكب ، فقال ﴿ **الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ** ﴾ وهو أضوأ الكواكب ، ثم عاد إلي ذكر المصباح ، وهذا يسمي الالتفات ، فقال : ﴿ **يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ** ﴾ فعاد إلي ذكر النور ، وهذا أيضا مما يسمي الالتفات ، وهو أن يجري ذكر شئ ، ثم يتجاوز إلي غيره ، ثم يذكر ثانيا ، كما قال جرير :

متى كان الخيام بذي طلوح سقيت الغيث أيتها الخيام

فجمعت هذه الآيات وجوها من الفصاحة منها جزالة اللفظ ، ومنها الاستعارة ، ومنها تشبيه بعد تشبيه ومنها الالتفات بعد الالتفات .

---

٢٦٦ – النور : ٣٥

٢٦٧ – هود : ٤٦

٢٦٨ – النور : ٥٣

ومن التشبيه الواقع قوله عز وجل بعد هذه الآية : ﴿ **وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ** ﴾ (٢٦٩)

لما كانت أعمالهم محبطة لا نفع فيها في الآخرة ، شبهها بالسراب الذي لا نفع فيه ، ولأنه مما يظن الناظر أنه ماء ، وكذلك الكافر لما يظن أن له نفعا في عمله ، شبهه أيضا به ، فهذان وجهان من التشبيه وفيه تشبيه ثالث ، وهو انكشاف حال كل واحد منهما عن أنه لا نفع فيه لراجيه ، وفيه تشبيه آخر ، وهو تشبيه الكافر بالظمآن ، وتشبيه ظنه بظنه ، وتشبيه خيبته بخيبته عند شدة حاجته إليه ، وقوة تعويله عليه ، فقد جمعت الآية هذه الوجوه من التشبيهات مع جزالة اللفظ ، وحسن المعني ، وقد عد من محاسن امرئ القيس : أنه جمع بين تشبيهين في بيت واحد حيث يقول :

كأن قلوب الطير رطبا ويابسا — لدي وكرها : العناب ،والحشف البالي

ومن التشبيه الحسن في هذا المعني : قوله : ﴿ **مَّثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ** ﴾ (٢٧٠) ومن الاستعارة في هذا المعني : ﴿ **وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُوراً** ﴾ (٢٧١) فعبر عن فعله عز وجل بالقدوم ، وعن أعمالهم بالهباء المنثور .

ومن التشبيه الحسن قوله عز وجل : ﴿ **وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤاً مَّنثُوراً** ﴾ (٢٧٢) ومن التشبيه قوله تعالي : ﴿ **كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً** ﴾ (٢٧٣) ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **كَأَنَّهُم بُنيَانٌ**

---

٢٦٩ – النور : ٣٩

٢٧٠ – إبراهيم : ١٨

٢٧١ – الفرقان : ٢٣

٢٧٢ – الإنسان : ١٩

٢٧٣ – يونس : ٢٧

مَّرْصُوصٌ ﴾ (٢٧٤) ومنه قوله عز وجل : ﴿ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ (٢٧٥)

ومن الاستعارة قوله عز وجل : ﴿ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾ (٢٧٦) فسماهن حرثا ، لأن النسل يخرج منهن ، كما يخرج الزرع من الأرض .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ﴾ (٢٧٧) أي تترخصوا ، فسمي الترخص إغماضا ؛ لأن الانسان يصرف بصره ، عما لا يحب أن يراه ، ويقف علي حقيقته .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ كُلَّمَا أَوْقَدُواْ نَاراً لِّلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللّهُ ﴾ (٢٧٨) أراد كلما أهاجوا شرا . وأمثال هذا في القرآن أكثر من أن تعد وتحصي ، وهي عادة العرب في مخاطباتها ، ومحاوراتها ، وأشعارها ، وخطبها ، ولم نطول الكتاب بذكر ما ورد عنهم في هذا الباب لشهرته واستفاضته .

ومن أقسام الفصاحة :

الإيجاز ، وذلك ينقسم إلي قسمين ، وقد يكون بتقليل الحروف مع استيفاء المعني ، وقد يكون بالحذف ، والحذف علي أنحاء شتي ، ونحن نبينه علي جميع ذلك بذكر بعضه إذ استيفاء جميعه مما يطول . فمن الإيجاز بتقليل الحروف قوله عز وجل : ﴿ **وله كل شئ** ﴾ ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءهَا وَمَرْعَاهَا ، وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴾ (٢٧٩) قلل الحروف في هذا الموضع ، لما أراد

---

٢٧٤ – الصف : ٤

٢٧٥ – الحج : ٣١

٢٧٦ – البقرة : ٢٢٣

٢٧٧ – البقرة : ٢٦٧

٢٧٨ – المائدة : ٦٤

٢٧٩ – النازعات : ٣١-٣٢

الإيجاز ، وبسط حيث أراد البسط في هذا المعني فقال : ﴿ **أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبّاً ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقّاً ، فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبّاً وَعِنَباً وَقَضْباً ، وَزَيْتُوناً وَنَخْلاً ، وَحَدَائِقَ غُلْباً ، وَفَاكِهَةً وَأَبّاً** ﴾ (٢٨٠) وقال أيضا : ﴿ **خَلَقَ الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ** ﴾ (٢٨١)

فانظر – رحمك الله – إلي شرف هذا الكلام ، فإنه أوجز هذا الإيجاز ، وذكر للإنسان حالتين إحداهما ، أضعف الحالات ، والأخرى: أقواها . ثم نبه علي ما بينهما . فجمع في الآية وجهين من الإيجاز ، أحدهما : تقليل الحروف . والثاني : حذف الوسائط بين الحالتين ، مع جزالة اللفظ ، وحسن المعني ، ثم أراد عز وجل بسط هذا المعني قال : ﴿ **وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾ (٢٨٢)

وهذا باب كبير من الفصاحة ؛ لأن البليغ هو الذي يبسط الكلام إذا شاء بسطه من غير خطل ، ويرخي عنان الخطاب ، ويمتطي ظهر الأطناب ، ويوجز إذا شاء الإيجاز من غير تحيف للمعني .

وحكي عن بعض الفصحاء أنه وصف كاتبا بالبلاغة ، فقال : " أن أخذ طوبارا ملأه ، وان أخذ شبرا كفاه " يريد أنه كان يبسط إذا شاء ، ويوجز إذا شاء.
ومن هذا الباب قوله عز وجل : ﴿ **إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ، مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ** ﴾ (٢٨٣) فأراد عز وجل هذا الإيجاز ، ثم لما أراد أن يزيد هذه الصفة يسيرا مع البسط ، قال : ﴿ **كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ؟ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ، تَنزِعُ النَّاسَ**

---

٢٨٠ – عبس : ٢٥-٣١

٢٨١ – النحل : ٤

٢٨٢ – المؤمنون : ١٢-١٤

٢٨٣ – الذاريات : ٤١-٤٢

كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴾ (٢٨٤) ثم لما أراد أن يزيد علي ذلك في البسط قال عز من قائل : ﴿ **أُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ، سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُوماً فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ، فَهَلْ تَرَى لَهُم مِّن بَاقِيَةٍ** ﴾ (٢٨٥)

ثم لما أراد عز وجل البسط التام بسط في السورة التي يذكر فيها هودا – صلي الله عليه – والسورة التي يذكر فيها الأعراف ، والسورة التي يذكر فيها الشعراء ، وعلي هذا أوجز ذكر ثمود ، فقال عز وجل : ﴿ **فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ** ﴾ (٢٨٦) ثم بسط ذلك في سائر المواضع ، ومن ذلك قوله عز وجل :" **وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللّهِ** " (٢٨٧)

فانظر رحمك الله إلي هذا الإيجاز مع استيفاء المعني ، تعلم أنه أبلغ ما يمكن في بابه ، ثم زاد عز وجل بسطه يسيرا ، فقال : ﴿ **وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِّنْهُ** ﴾ (٢٨٨) وقال أيضا : ﴿ **وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً** ﴾ (٢٨٩) ثم بسط عز وجل ذكر الآية : ونعمه في السورة التي يذكر فيها النحل من قوله : ﴿ **وَالأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ** ﴾ (٢٩٠)

إلي قوله : ﴿ **وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ** ﴾ (٢٩١) ثم من قوله : ﴿ **وَاللّهُ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا** ﴾ (٢٩٢) إلي قوله : ﴿ **أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ**

---

٢٨٤ – القمر : ١٨–٢٠

٢٨٥ – الحاقة : ٦–٨

٢٨٦ – الحاقة : ٥

٢٨٧ – النحل : ٥٣

٢٨٨ – الجاثية : ١٣

٢٨٩ – لقمان : ٢٠

٢٩٠ – النحل : ٥

٢٩١ – النحل : ١٦

٢٩٢ – النحل : ٦٥

اللّه هُمْ يكفُرُونَ ﴾ (٢٩٣) ومن قوله عز وجل : ﴿ **وَاللّــهُ أَخْــرَجَكُم مِّــن بُطُــونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً** ﴾ (٢٩٤) إلى قوله : ﴿ **كَذَلِكَ يُــتِمُّ نِعْمَتَــهُ عَلَــيْكُمْ لَعَلَّكُــمْ تُسْلِمُونَ** ﴾ (٢٩٥) وعامة هذه السورة في ذكر نعم الله عز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَــهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ** ﴾ (٢٩٦) وقوله : ﴿ **خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْــرِضْ عَــنِ الْجَاهِلِينَ** ﴾ (٢٩٧) فدل عز وجل بهاتين الآيتين علي حسن العشرة بأوجز اللفظ ثــم ضبط ذلك في السورة التي يذكر فيها الحجرات أتم بسط . ومن الاختصار الحــسن قوله عز وجل : ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَــيْهِمْ** ﴾ (٢٩٨) وقد طلب هذا المعني بعض الشعراء فقال :

ولو أنها عصفورة لحسبتها مسومة

تدعو عبيدا وأرنما

وقال آخــر :

مازلت تحسب كل شئ بعدهم

خيلا تكر عليكم ورجالا

وقال آخــر :

أراني الخوف عدتهم ألوفا

وكان القوم خمسا في ثلاث

فلم يتفق لهم هذا الاختصار ولا هذه العذوبة

وسمعت بعض أهل الأدب يحكي أن شاعرين كانا يتهاجيــان فقــال أحــدهما فــي صاحبه :

---

٢٩٣ – النحل : ٧٢

٢٩٤ – النحل : ٧٨

٢٩٥ – النحل : ٨١

٢٩٦ – فصلت : ٣٤

٢٩٧ – الأعراف : ١٩٩

٢٩٨ – المنافقون : ٤

يحسب كل صيحة عليهم ....

فكاع الآخر عنه ، وضعفت نفسه إعجابا بهذا البيت ، إحساسا من نفسه بالعجز عن مثله إلي أن عرف أنه أخذه من القرآن ، فتجرأ عليه، وعادت له قوته ، وأخذ في مهاجاته .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ وقد أخذ هذا بعضهم فقال : " وبعض القتل أحيا للجميع " وقال غيره " القتل أفل للقتل " فلم يقع من ذلك موقع قوله : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ** ﴾ (٢٩٩) وتتبع مثل هذا مما يطول.

وأما القسم الثاني من الاختصار ، فهو الذي يكون بالحذف ، وذلك يتنوع أنواعا كثيرة ، فمن ذلك أن تحذف المضاف ، ويقام المضاف إليه مقامه ، كقوله عز وجل : ﴿ **وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيْرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ (٣٠٠) أراد أصحاب العير ، وأهل القرية ، وكقوله : ﴿ **إِذاً لَّأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ** ﴾ (٣٠١) أي ضعف عذاب الحياة ، وضعف عذاب الممات ، وكقوله عز وجل : ﴿ **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** ﴾ (٣٠٢) ذكر عن أكثر المفسرين أن المراد إلي ثواب ربها ناظرة ، فحذف الثواب ، وهذا مذهب للعرب مشهور ، وهو في القرآن كثير ، وقد يكون بحذف اسم أو فعل أو جواب كقوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ أَنَّ قُرْآناً سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى** ﴾ (٣٠٣) وتقديره : لكان هذا القرآن فحذفه .

---

٢٩٩ – البقرة : ١٧٩

٣٠٠ – يوسف : ٨٢

٣٠١ – الإسراء : ٧٥

٣٠٢ – القيامة : ٢٢-٢٣

٣٠٣ – الرعد : ٣١

وكقوله : ﴿ **وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوْاْ مَا آتَاهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُواْ حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ** ﴾ (٣٠٤) تقديره : لكان ذلك خيرا لهم . فحذفه . ومثله قوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ** ﴾ (٣٠٥) ومثل ذلك : ﴿ **أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ** ﴾ (٣٠٦) وتقديره ، أيساويه من لا يكون كذلك ؟ فحذفه .

ومثله في الشعر كثير ، فمن ذلك قول الشاعر :

فأقسم لو شئ أتانا رسوله سواك ... ولكن لم نجد لك مدفعا

معناه : أردناه ، ولم نقبل منه

ومثله قول الشاعر :

عصيت إليها القلب ، اني لأمرها ... سميع ، فما أدري أرشد طلابها؟

معناه : فما أدري أرشد هو أم غي ؟ فحذف . ومثله قول النابغة :

أزف الترحل غير أن ركابنا لما تنزل ... برحالنا ، وكأن قد

يريد : كأن قد زالت . فحذف .

ومن ذلك أن يضمر أحد المذكورين ويظهر فعل الآخر لهما . وذلك كقوله عز وجل : ﴿ **وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ** ﴾ (٣٠٧) إذا قرئ بكسر اللام : المراد : وألحقوا الغسل بأرجلكم . وكقوله عز وجل : ﴿ **يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ** ﴾ (٣٠٨) ثم قال : ﴿ **وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ، وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ** ﴾ (٣٠٩) والمراد : ويؤتون بفاكهة ولحم طير ، لأن الفاكهة

٣٠٤ – التوبة : ٥٩

٣٠٥ – النور : ١٠

٣٠٦ – الزمر : ٩

٣٠٧ – المائدة : ٦

٣٠٨ – الواقعة : ١٨

٣٠٩ – الواقعة : ٢٠–٢١

واللحم لا يطاف بهما . وكذلك تأويل من قرأ : ﴿ **وَحُـورٌ عِـينٌ** ﴾ (٣١٠) بـالجر تقديره : ويتزوجون بحور عين فحذف ذلك أجمع . ومنه قولـه عـز وجـل : ﴿ **فَأَجْمِعُواْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءكُمْ** ﴾ (٣١١) تقديره ، وادعوا شركاءكم .

وورد مثله في الشعر :

علفتها تبنا وماء باردا　　　حتى بدت همالة عيناها

أراد : سقيتها ماء باردا فحذفه

وقال الآخر :

إذا ما الغانيات برزن يوما　　　وزججن الحواجب والعيونا

أراد : وكحلن العيونا ، لأن العيون لا تزجج

وقال آخر:

ورأيت بعلك في الواغا　　　متقلدا سيفا ورمحا

والمراد : حاملا رمحا ، لأن الرمح لا يتقلد ، لكنه حذف المراد

ومنه قوله تعالي : ﴿ **وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ** ﴾ (٣١٢) والمراد إلي حيث أمر ربي . ومنه قوله : ﴿ **بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ** ﴾ (٣١٣) والمراد : مكـركم بالليل والنهار . ومنه قوله : ﴿ **أَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـانِكُمْ** ﴾ (٣١٤) فحذف .

ومن الحذف : إقامة الضمير مقام الذكر نحـو قولـه : ﴿ **حَتَّـى تَـوَارَتْ بِالْحِجَابِ** ﴾ (٣١٥) يعني : الشمس . ولم يجر لها ذكر . وهذا رأي عامة المفـسرين ، وان كان بعضهم قال : إن " المعني : هو الصافنات الجياد " ومن ذلك قوله عـز وجل : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّـةٍ** ﴾ (٣١٦) يعنـي:

---

٣١٠ – الواقعة : ٢٢

٣١١ – يونس : ٧١

٣١٢ – الصافات : ٩٩

٣١٣ – سبأ : ٣٣

٣١٤ – آل عمران : ١٠٦

٣١٥ – ص : ٣٢

٣١٦ – النحل : ٦١

علي الأرض . ولم يجر لها قبل ذلك ذكر . وكذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا** ﴾ (٣١٧) يعني علي ظهر الأرض . ومنه قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ** ﴾ (٣١٨) أراد به القرآن من غير أن يكون جري له ذكر .

ومثله قول الشاعر :

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتي ... إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

يعني : النفس .وكذلك قول لبيد

حتى إذا ألقت يدا في كافر ... وأجن عورات الثغور ظلامها

يعني : الشمس لقوله : ألقت يدا في كافر .

ومن الحذف قوله عز وجل : ﴿ **وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ** ﴾ (٣١٩) يعني : ذكرا حسنا وثناء جميلا .

ومن أقسام الفصاحة :

التجنيس : وهو أن يجمع بين كلمتين التقتا من حروف متجانسة وذلك مثل قوله عز وجل ، حاكيا عن صاحبة سليمان – صلي الله عليه – ﴿ **وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (٣٢٠) ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى** ﴾ (٣٢١) وكذلك قوله : ﴿ **ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى** ﴾ (٣٢٢) وقوله عز وجل حاكيا عن يعقوب – صلي الله عليه – ﴿ **يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ** ﴾ (٣٢٣) وكذلك قوله عز وجل : ﴿ **يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ** ﴾ (٣٢٤) وكذلك قوله

---

٣١٧ – فاطر : ٤٥
٣١٨ – القدر : ١
٣١٩ – الصافات : ٧٨ ، ١٠٨
٣٢٠ – النمل : ٤٤
٣٢١ – يونس : ٢٦
٣٢٢ – الروم : ١٠
٣٢٣ – يوسف : ٨٤
٣٢٤ – النور : ٣٧

عز وجل : ﴿ **فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى** ﴾ ([٣٢٥]) وقوله : ﴿ **اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم** ﴾ ([٣٢٦]) ولم يكثر هذا الباب في القرآن لما نذكره .

وكذلك في أشعار المتقدمين ، ولا المطبوعين من المتأخرين ، وإنما استكثر ذلك من المتأخرين من كان يتكلف الصنعة.

سمعت بعض أهل الأدب يقول : " أن القليل من التجنيس يحسن الكلام ، والإكثار يسلب الكلام بهجته " قال : " ومثله مثل الخال في الحسناء ، في أنه يزيدها حسنا ، وان كثرت الخيلان حتى يستوفي علي عامة جسدها ، أكسبتها الوحشة ، وسلبتها البهجة " وصدق فيما قال ؛ لأن الاستكثار والجمع بين الحروف المتجانسة يوجب للكلام ضربا من التنافر ، ألا تري إلي قول الأعشى :

وقد غدوت إلي الحانوت يتبعني   شاو مشل شلول شلشل شول

كيف يظهر عليه التنافر ؟ وكذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر

فأما إذا وقع ذلك في الكلام لمعا ، فأنه يزيده حسنا وبهجة ،فلذلك ، والله أعلم ، وجد في القرآن قليلا ، ولم يكثر .

ومن أقسام الفصاحة ما يسميه أكثر أهل الصنعة :

المطابق ، وهو إيراد لفظتين يفيد كل واحدة منهما ضد ما تفيده الأخرى ، نحو قوله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ** ﴾ ([٣٢٧]) ونحو قوله عز وجل : ﴿ **يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ** ﴾ ([٣٢٨]) وقوله عز وجل : ﴿ **يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ** ﴾ ([٣٢٩]) وقوله : ﴿ **إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ، وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ**

---

٣٢٥ – الليل : ٧

٣٢٦ – التوبة : ٣٨ ، يقول تعالى : " يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ "

٣٢٧ – هود : ١١٤

٣٢٨ – آل عمران : ١٠٦

٣٢٩ – النحل : ٩٣ ، وفاطر : ٨

﴾ (330) وقوله : ﴿ **وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ، وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ، وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ، وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ** ﴾ (331) وقوله : ﴿ **هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ** ﴾ (332) وقوله : " **فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِه** ﴾ (333) وقوله : ﴿ **وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِه** ﴾ (334) وهذا النوع في القرآن كثير ، بحيث يكاد يتعذر إحصاؤه ، ولكنا قد نبهنا علي الجميع بالجملة التي أوردناها ، وإنما كثر هذا في القرآن لأن كثرته لا توجب للكلام نبوا عن السمع ، ولا تنافرا ، كما يوجبه التجنيس .

ومن أقسام الفصاحة :

الفواصل ، وهي الأسجاع ، ومن الناس من كره تسميتها بالأسجاع إذا كانت في القرآن والكلام فيه خارج عن غرضنا ، لأن بيان المراد يغني عن الاشتغال بالتسمية ، وهذه العوامل تكثر في القرآن ، وتتجاوز حد الإحصاء والعد .

وأول ذلك في فاتحة الكلام كقوله : ﴿ **مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ** ﴾ (335) ثم في سائر السور إلي أخر القرآن . وهذه الفواصل تكون بحروف متفقة ، تسمي أسجاعا ، وتكون بحروف مختلفة ، وتسمي موازنة ، فما يسمي من ذلك موازنة نحو قوله : ﴿ **الْحَمْدُ للّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمـنِ الرَّحِيمِ** ﴾ (336) لأن آخر الآية الأولي هو النون ، وآخر الآية الثانية هو الميم ، ومثل قوله : ﴿ **إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ، وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيداً جُرُزاً ، أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَباً**

٣٣٠ – الانفطار : ١٣–١٤

٣٣١ – فاطر : ١٩–٢٢

٣٣٢ – الفرقان : ٥٣

٣٣٣ – الحاقة : ١٩

٣٣٤ – الحاقة : ٢٥

٣٣٥ – الفاتحة : ٤–٥

٣٣٦ – الفاتحة : ٢–٣

، **إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَداً** ﴾ (٣٣٧) ألا تري أن آخر الآية الأولي هو اللام ،وآخر الثانية هي الزاي ، وآخر الثالثة هو الباء ، وآخر الرابعة هو الدال ، ومثله : ﴿ **وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ، فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ** ﴾ (٣٣٨) ونظائرها كثيرة ، وما يسمي من هذه الفواصل ، اسجاع . فمثل قوله عز وجل : ﴿ **ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ** ﴾ (٣٣٩) إلي تمام أربع آيات وآخرها كلها : نون ، ومثله : ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ** ﴾ (٣٤٠) ومثله قوله : ﴿ **قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ، مِن شَرِّ مَا خَلَقَ** ﴾ (٣٤١) ولا وجه لتعداد أمثاله في القرآن لكثرته ، وتجاوز حد الإحصاء ، ولأن شيئا من السور لا يخلو من ذلك . وهذا باب كبير من أبواب الفصاحة ، إذ ورد مع الحلاوة ، ورونق الطلاوة ، وجاء به متسمحا ، ولم يقهر عليه تكلفا وتعسفا ، ولم يكن مما تنبو عنه الأسماع ، وتمجه الأفهام ، وهو مشهور عند العرب ، لا يخلو منه كلام فصيح في أحوال الاسترسال والاحتفال .

وللفصاحة أقسام كثيرة سوي ما بيناه ، وليس منها قسم إلا وهو موجود في القرآن ، وقد نبهنا بما ذكرناه منها علي ما لم نذكره .

ومن أقسام الفصاحة :

التلاؤم : وهو نقيض التنافر ، وهذا الباب هو من أكثر أبواب الفصاحة وكننا نبهنا عليه في أول هذا الباب عند ذكرنا جزالة الألفاظ ، ولكن أعدنا ذكره في آخر الباب لنوضحه فضل إيضاح ؛ لأنه هو العمدة ، وذلك أن عامة ما ذكرنا من أقسام الفصاحة ، بل كلها غير هذا القسم للتكلف والتعمل فيها مجال ومسرح ، ويمكن التوصل إليها باحتذاء أثار من تقدم فيها ، بأن يتعلم طرائقها ،ويستفاد مناهجها ،

---

٣٣٧ – الكهف : ٧–١٠

٣٣٨ – المسد : ٤–٥

٣٣٩ – البقرة : ٢

٣٤٠ – الصمد : ١–٤

٣٤١ – الفلق : ١–٢

وهذا القسم الذي هو التلاؤم يتعذر ألا أن يسمح به طبع مخصوص ، ويعرف ذلك كل من له أدني حظ من الأدب والمعرفة بنقد الكلام ، وذلك أن التلاؤم بـــه تكـــون العذوبة والحلاوة ، وعنه تكون حسن ديباجة الكلام ، ولهذا تجد الكـــلام المنظـــوم المنثور جيد السبك ، رصين النظم ، صحيح الوضع ، متسق المعني ، ومع ذلـــك تجده نابيا عن السمع ، نافرا عن الطبع ، إذا لم تحصل له العذوبـــة التـــي يكـــون سببها التلاؤم .

واعلم أن التلاؤم يكون بتلاؤم الحروف ، وتلاؤم الحركـــات والـــسكنات ، وتلاؤم المعني ، فإذا اجتمعت هذه الوجوه ، خرج الكلام غاية في العذوبة ، وفـــي حصول بعضها انحطاط درجة العذوبة عن الغاية ، وسائر أقسام الفصاحة مع عدم التلاؤم يعد تكلفا ، وكلما ظهرت الصنعة أكثر ، كان الكلام أقرب إلـــي أن يكـــون تعسفا ، وإذا حسن التلاؤم ، وحسن معه يسير الصنعة ، أشـــرق تـــأليف الكـــلام ووضعه ، ألا تري إلي قول الشاعر .

تمتع من شميم عرار نجد ... فما بعد العشية من عرار

ألا يا حبذا نفحات نجد ... وريا روضه بعد القطار

شهور ينقضين وما شعرنا ... بأنصاف لهن ولا سرار

لما حصل التلاؤم حصل في النفس القبول التام مع قلة الصنعة فيه .

ومن ذلك قول القائل .

ولما قضينا من مني كل حاجة ... ومسح بالأركان من هو ماسح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسألت بأعناق المطي الأباطح

ألا تري إلي ديباجته ، كيف حسنت ؟ وإلي عذوبته كيف ظهـــرت ؟ وإلـــي سلامته كيف استمرت ؟ مع خلوه من الصنعة ، ووقوعه بالبعد عن التعمل . وهذا باب تأملته في الأشعار والخطب والرسائل والمحاورات في الجد والهزل ، وصـــح لك بيانه ، وقام عند برهانه ، وهذا القسم من الفصاحة موجود في القرآن من أوله إلي آخره ، وأهل هذا الشأن يختلفون في أجناس ذلك ولنبين له ، ومن كان مـــنهم أعرف بنقد الكلام ، كان إلي تبيين ما ذكرناه أقرب ، فأن ساعده علي ذلك الطبـــع

الجيد كان في طريق تصوره أذهب ، وقد يكون في أهل كل صناعة من الشعر والخطب والرسائل من إذا سمع كلام غيره عرف صاحبه ، وميز بين طبعه ، وطبع غيره ، كما حكي أن جريرا رأي ذا الرمة([٣٤٢]) ، وهو ينشد قصيدة أولها :

نبت عيناك عن طلل بحدوي

فقال له : ألا آمرك بأبيات تلحقها بشعرك ؟ فقال بلي . فقال :

يعد الناسبون بني تميم بيوت المجد أربعة كبارا

يعدون الرباب وآل تيم وسعدا ثم حنظلة الخيارا

ويذهب بيتها المرعي لغوا كما ألفيت في الدية الحوارا

ثم أنشد ذو الرمة هذه القصيدة : الفرزدق مع هذه الأبيات .

فلما انتهي إليها قال له : مه . فان هذه الأبيات لاكلها أشد لحيين منك .

فميز بطبعه بين شعره وشعر جرير ، وهذا ظاهر بين أهله ، وإنما أردت أن أبين بهذا أن غباوة من يغضي عن هذه الحالة ، وصفناها في القرآن لا يؤثر فيها ، لشهرتها وظهورها عند أهله . والذي أحوجنا إلي هذا التنبيه علي هذا القسم ،أنه لا يظهر لكل من يفهم العربية ، ولا يمكن كما أمكن سائر أقسام الفصاحة ، لأن استدراكه يفتقر إلي العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع ، كما أن الإتيان به مفتقر إليه ، ولأن القرآن كله من هذا النمط ، والأوجه ذكر آيات منه ، لأنا نريد تنبيه المبتدئ والشادي عليه ، فمن ذلك قول الله عز وجل :

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ ([٣٤٣])

---

٣٤٢ – ذو الرمة : هو غيلان بن عقبه وذو الرمة هو لقب لقبته به امرأة أحبها تدعي مية ، طلب منها أن تسقيه ماء فأتته بماء وكان على كتفه رمه وهي قطعة حبل فقالت : اشرب يا ذا الرمة ويقال انه لقب بذي الرمة لقوله في وصف الوتد :

لم يبق منها أبد الابيد *** غير ثلاث ماثلات سود

وغير مرضوخ القفا موتود *** أشعث باقي رمة التقليد.

٣٤٣ – النجم : ١–٣

وما بعدها . وقوله عز وجل : ﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ، وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاء مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاء السَّبِيلِ ، وَلَمَّا وَرَدَ مَاء مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصْدِرَ الرِّعَاء وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ** ﴾ (٣٤٤) إلي آخر القصة ، فتأمل هذه الألفاظ ووقوعها مواقعها لتعلم شرف هذا الكلام وهل تجد لفظة لسوء أبدل مكانها غيرها ، فنابت منابها حسنا وعذوبة وورونقا ؟ ألا تري أنه عز وجل لو قال : والكوكب إذا سقط ، أو إذا غرب ، أو قال : إذا أفل ، لم ينب في الحسن مناب قوله تعالي :﴿ **والنجم إذا هوي** ﴾ !

ورأيت في كلام الجهال أنه لو قال : " والنجم إذا علا " كان أولي . ولن يكون ذلك فمن له حاسة في هذا الباب ، فبين اللفظتين في هذا الموضوع في باب الحلاوة والعذوبة ما لا يخفي علي بصير ، ولو قال : ما زاغ نبيكم عن الهدي أو ما أخطأ رسولكم ، أو قال : ما حاد عن الرشد والهدي ، وما أشبه ذلك لم يغن غناء قوله عز وجل ﴿ **ما ضل صاحبكم وما غوي** ﴾ ولو قال : فهرب منها مذعورا ، أو قال : مرعوبا أو غير ذلك من الألفاظ التي تؤدي معناها لم يسد مسد قوله عز وجل : " فخرج منها خائفا يترقب " حلاوة وعذوبة ولو قيل ولما أخذ علي سمت مدين أو مضي حذاء مدين أو جهة مدين لم يقع موقع قوله عز وجل : ﴿ **ولما توجه تلقاء مدين** ﴾ وكذلك عامة ألفاظ هذه الآيات فتأملها تجدها علي ما أقول .

واعلم أن كثيرا من الألفاظ تكون له حلاوة وعذوبة إذا وقع في بعض المواقع دون بعض وإنما حصلت لهذه الآيات :" العذوبة التامة . لما حصل لحروفها من التلاؤم ، ولحركاتها وسكناتها من الاعتدال ، ولمعانيها من حسن الاطراد والمقاصد ، لأن الحروف لو لم تتلاءم لكان يحصل للكلام بعض التنافر .

---

٣٤٤ – القصص : ٢١-٢٣

والحركات والسكنات لو لم تعتدل لم يتم حسن النظم ، لأن كثرة الحركات توجب للكلام بعض الثقل ، ألا تري إلي ما روي أهل العروض في جنس البسيط ، وزعموا أنهم لقيهم رجل فأخذوا ماله وضربوا عنقه كيف حصل الثقل لما كثرت حركاته ؟

وكثرة السكنات توجب لنسج الكلام بعض الضعف والسخافة ، ولهذا صار الكلام موزونا باعتدال الحركات والسكنات ، ويتكسر البيت بخروج الحركات أو السكنات عن الاعتدال .

وأما حسن أطوار المعاني والمقاصد ، فلا بد منه لأن موضوع العبارة أنما هو للمعني ، فإذا لم يحسن المعني كان بمنزلة تعليق الحلي علي المرأة الشوهاء .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَاراً وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَاراً وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزاً أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ** ﴾ (٣٤٥)

وقوله عز وجل في أول السورة ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ، أُوْلَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً سَآتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ آتِيكُم بِشِهَابٍ قَبَسٍ لَّعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ** ﴾ (٣٤٦) إلى آخر القصة ، وعلي نحو من هذا عامة هذه السورة ، وكذلك عامة السورة التي يذكر فيها القصص بعد هذا .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **حم ، تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ** ﴾ (٣٤٧) إلي قوله : ﴿ **الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ**

---

٣٤٥ – النمل : ٦١

٣٤٦ – النمل : ٤–٧

٣٤٧ – غافر : ١–٣

وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَّحْمَةً وَعِلْماً فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴾ (٣٤٨) إلي قوله : **﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنَادَوْنَ لَمَقْتُ اللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ﴾** (٣٤٩)

وقوله عز وجل بعد هذه الآيات : **﴿ وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ، يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ، مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحاً مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾** (٣٥٠) إلي آخر القصة .

ولو تتبعنا الآيات الجارية هذا المجري في العذوبة ، وحسن الديباجة لاحتجنا أن نذكر عامة آيات القرآن . ولكن نبهنا بما ذكرنا علي ما سواه ، فتأمل – رحمك الله – مواقع هذه الألفاظ ، وحسن نظامها وخفتها علي السمع ،وقبول النفس لها ، واهتزازك لسماعها لتعلم حقيقة ما ذكرناه ، وأنت إذا راعيت هذا الباب في عامة القرآن إذا تلوته تبنيت صحة ما قلناه ، وظهر لك شواهده ، ووضحت دلائله .

ومن كبير أقسام الفصاحة :

حسن التصرف : وهذا الباب أيضا لا يمكن بالتعمل ، ولا يستجيب للمتكلف بها لا بد له من العلوم الضرورية المعبر عنها بالطبع ، وهذا تفاضل الخطباء والشعراء وأصحاب الرسائل ، وإذا تأملت تصرف القرآن في المعاني المقصودة ، عرفت أنه زائد في الحسن علي تصرف جميع أقسام الكلام وأنواعه ، وشهد لك قبلك : أنه ليس من كلام البشر لمجاوزته في الحسن جميع كلامهم ؛ لأنك تجد عامة كلام الناس إذا أخذوا في الاقتصاص والتصرف في المعاني

---

٣٤٨ – غافر : ٧

٣٤٩ – غافر : ١٠

٣٥٠ – غافر : ٢٨–٤٠

المختلفة ، والأغراض المتباينة ، والمقاصد المتغايرة يضعف بناؤه ، ويهيئ نسجه ، ويظهر عليه الاختلال ، وحال القرآن بخلاف ذلك ، ألا تري إلي قوله عز وجل : ﴿ **وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ** ﴾ (٣٥١)

تأمل – رحمك الله – حسن هذا التصرف ، فإنه ذكر الدليل علي فساد قول من يضعف هذه الحوادث إلي الطبع ، وحرره علي وجه أسقط عنه كثيرا من الأسئلة بأن بين أن في الأرض قطعا متجاورة ، يقرب بعضها من بعض ليسقط سؤال من يقول : " أن الأرضين إذا تباعدت أطرافها ، اختلفت التربة فكان منها الطيب والخبيث ، لأن ذلك يبعد في المتقارب منها ، وكذلك الهواء لا يمكن أن ندعي أن تغيره هو المؤثر ، لأن الأرضين ما لم تتباعد بعضها من بعض لا يظهر في أهويتها التغير ، وكذلك الماء إذا كان واحدا لا يمكن أن يدعي أن اختلاف الأكل راجع إلي اختلاف الماء ، فدل بذلك علي أنه من فعل القادر الحكيم تبارك وتعالي .

ومعني هذه الآية : معني "كلمي" فإذا أردت أن تعرف حال هذا التصرف . وشريف موقعه ، فتأمل كلام المتكلمين ، هل تجد لشئ منها هذا الجنس الرابع ؟ لأنه جمع فيها بين حسن المعني وشرف الوضوح وجزالة اللفظ وعذوبته .

مع جمع المقاصد الكثيرة في ألفاظ يسيرة ، بحيث ربط بعضها ببعض ، وحسمعنها مطاعن المعترضين ، من ذلك قوله عز وجل بعد هذه الآية : ﴿ **وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ** ﴾ (٣٥٢) فتأمل ما جمعت هذه الآية من المعاني بأن ذكر جهل القوم باستعجالهم السيئة قبل الحسنة ، ثم بين عز وجل أنه قد أنزل العذاب بمن كان قبلهم من المنحرفين عن طاعته المسرعين إلي

---

٣٥١ – الرعد : ٤

٣٥٢ – الرعد : ٦

معصيته ، زاجرا لهم عما هم فيه ، ومحذرا لهم عواقب من قبلهم ، ثم بين لهم أنه عز وجل يغفر لعباده ، وان كانوا ظالمين إذا تابوا وأنابوا ، وأنه عز وجل شديد العقاب ، لمن أصر وأقام علي ما نهي عنه ، فجمع هذه المعاني وكساها حسن اللفظ إذ فيه ما يسميه أهل الصنعة ، المطابق ، لأنه ذكر الحسنة والسيئة والمغفرة والعقاب مع الجزالة والعذوبة . فهل يكون في التصرف أحسن من هذا ؟

ثم تأمل من هذه السورة قوله عز وجل : ﴿ **اللّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ** ﴾ (٣٥٣) إلي قوله : ﴿ **وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ** ﴾ (٣٥٤) وتأمل عامة هذه السورة وما في آياتها من حسن التصرف وضرب الأمثال ، وتأمل قول الله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاء** ﴾ (٣٥٥) ثم تأمل آية المواريث ، فإن معناها معني فقيها ، فانظر هل تجد ما يقارب ذلك في شئ من ألفاظ الفقهاء ؟ وإذا أردت فتأمل أقاصيص القرآن . وأحكامه ، لتري من ذلك ما يبهر عقلك ، ويكشف لك أنه كلام مرتفع عن كلام البشر أجمع ، وعلي هذا ، تجد ما يتضمن الوعد والوعيد ، وأدلة العدل والتوحيد.

وإذا تأملت ذلك فتأمل أشعار العرب من جاهلي ، أو مخضرمي أو إسلامي وتأمل أشعار المحدثين ، وتأمل الخطب المحفوظة عن النبي – صلي الله عليه – وعن أمير المؤمنين – عليه السلام – وسائر الصحابة ، ومن بعدهم أو قبلهم من الفصحاء ، تجد القرآن مباينا لها ، مبرا بمزايا أقسام الفصاحة عليها ، فيتضح عندك أنه علي ما ادعيناه في أعلي طبقات الفصاحة ، وأن من ذهب من العلماء إلي أن الأعجاز راجع إلي مجرد الفصاحة لم يبعد عن الصواب كل البعد ، وأن كان الأصح عندي علي ما قدمت : أنه راجع إلي النظم والفصاحة معا .

---

٣٥٣ – الرعد : ٨

٣٥٤ – الرعد : ١٤

٣٥٥ – النساء : ١

ومما يبين بلوغ القرآن غاية الفصاحة : أن الشاعر ربما ضمن لفظة من القرآن بيتا من الشعر أو حشا الخطيب بها فصلا من الخطب ، أو وشح الكاتب بها موضعا من الرسالة ، فيتميز بحسنها عن غيرها، ويبتين ببهجتها علي ما سواها ، ويصير الموضع الذي يضمنها غرة من سائره ، بحسنه ، الذي اكتسبه من تلك اللفظة ، وزبرجه الذي استعاره منها ، ومما يبين ذلك : أن كثيرا من الفصاحة ، وجد في كلامهم كلمات فصيحة رائعة صارت لبلاغتها أمثالا سائرة ، ووجد معناها في القرآن إلا أنك إذا تأملتها وجدت التفاهم بينها كثيرا ، وظهر لك فضل ألفاظ القرآن علي تلك الألفاظ ظهورا تاما ، فمنها ثلاث كلمات تذكر عن أمير المؤمنين – عليه السلام . أحدها : " من جهل شيئا عاداه " ومثله قوله الله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ** ﴾ (٣٥٦) وقوله : ﴿ **بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ** ﴾ (٣٥٧)

والثانية : " أبغض بغيضك هونا ما عسي أن يكون حبيبك يوما ما " وفي قريب من معناه قوله عز وجل : ﴿ **عَسَى اللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً** ﴾ (٣٥٨)

والثالثة : " المرء مخبوء تحت لسانه "(٣٥٩) وفي قريب من معناه قوله عز وجل : ﴿ **وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ** ﴾ (٣٦٠) فتأمل التفاوت الذي بين تلك الكلمات الثلاث وبين ألفاظ الآيات التي ذكرناها يبين لك صحة ما ادعيناه.

---

٣٥٦ – الأحقاف : ١١

٣٥٧ – يونس : ٣٩

٣٥٨ – الممتحنة : ٨

٣٥٩ – إن الكائن الإنساني ينتقل من الواقعة إلى الحقيقة فيما يبين معه صدقه من كذبه ، وما أكثر ما يتضح من قصديات مراوغات الشعور ، ويتبدى جلياً في فلتات اللسان ، وقد تكشفه هفوة أو إماءة أو صورة جسم أو حتى في الصمت ، ففي الصمت ذاته لغة ، مما يذكرنا بعبارة " فرويد " : من كانت له عينان ليرى وأذنان ليسمع بهما فبوسعه أن يقتنع بأن ما من إنسان يستطيع أن يكتم سراً . فإذا صمتت شفتاه ثرثرت أطراف أصابعه ، فالإفشاء يتضح من كل مسامه ، ومن ثم فإن إخراج أشد الثنايا اختباءً في النفس إلى حيز الشعور لهو مهمة قابلة تماماً للتحقق" . لقد كانت أمثال هذه الهفوات تنسب قبل فرويد إلى السهو والغفلة. ولا ينكر

ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ** ﴾ (٣٦١) فانظر كم بينه وبين قول الشاعر :

فارعا مثل الطود تحسب أنه وقوف لحاج والركاب تهملج

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِيْ الأَلْبَابِ** ﴾ (٣٦٢) وفي معناه قيل ما قدمنا ذكره : " بعض القتل أحيا للجميع : وقيل : " القتل أفل للقتل " فلم تلحق واحدة من الكلمتين بشأو قوله عز وجل : ﴿ **ولكم في القصاص حياة** ﴾ .

ومما افتخر به النابغة بقوله :

فأنك كالليل الذي هو مدركي وأن خلت أن المنتأي عنك واسع

فانظر أين يقع ذلك من قوله عز وجل : ﴿ **واللّهُ مُحِيطٌ بِالْكافِرِينَ** ﴾ (٣٦٣) ومن قوله :" وأن ما سكن في الليل والنهار " وقد ذكرنا فيما مضي ما قيل في معني قول الله تعالي : ﴿ **يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ** ﴾ (٣٦٤)

وقد عد من فصيح الكلام ما حكي عن بعض المتقدمين من قوله :

" **سل الأرض من شق أنهارك ، وغرس أشجارك ، فأخرج ثمارك** "

فإن لم يجبك حوار أجابتك اعتبارا فانظر أين يقع ذلك من قول الله عز وجل : ﴿ **أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاء مَاء فَأَنبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ** ﴾ (٣٦٥) بل أين يقع ذلك من قوله : ﴿ **وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا**

فرويد ذلك، غير أنه يرى أن هذه العوامل لا تكفي لتفسير جميع هذه الهفوات. فقد بين أن أغلب هذه الهفوات ورائها دافعاً لا شعورياً أو شبه شعوري لا يفطن الشخص إلى وجوده (للمزيد راجع ، موسوعة علم النفس والتحليل النفسي . فرج طه وآخرون ، دار سعاد الصباح ، ١٩٩٣ ، .

٣٦٠ – سورة محمد : آية ٣٠

٣٦١ – النمل : ٨٨

٣٦٢ – البقرة : ١٧٩

٣٦٣ – البقرة : ١٩

٣٦٤ – المنافقون : ٤

٣٦٥ – النمل : ٦٠

فيهَا من كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيب ، وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكاً فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيد ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْـعٌ نَّـضِيدٌ رِزْقـاً لِّلْعِبَادِ ﴾ (٣٦٦)

ومن الكلام الفصيح قول الشاعر :

بكت عيني وحق لها بكاها وما يغني البكاء ولا العويل

لكن أين يقع ذلك من قول الله عز وجل حاكيا عن أهل النار :

﴿ **سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ** ﴾ (٣٦٧) وتتبع هذا مما يطـول لكثرته ، وفيما ذكرناه كفاية وفيه تنبيه عي ما لم نذكره .

---

٣٦٦ – ق : ٧-١١

٣٦٧ – إبراهيم : ٢١

الفصل السابع

الكلام في ذكر ما في القرآن من الأخبار عن الغيوب

من ذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ (٣٦٨)

وقوله : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (٣٦٩)

وبهذا من الغيب لا يعلمه إلا الله عز وجل ؛ لأن البشر لا سبيل لهم أن يعلموا كلاما يوجد مكتملا علي التحدي والتقريع علي العجز عن الإتيان بمثله ، فلا تقع له معارضة أبدا ، سيما والقوم الذين تحدوا به غاية في العداوة للمتحدي مع أنهم أهل البلاغة والمعرفة بذلك الشأن بل المعلوم أن المعارضة تقع لا محالة منهم إذا تمكنوا منها .

فإن قيل : فما يؤمنكم أن تقع المعارضة بعد هذا الوقت وان لم تكن وقعت إلي هذه الغاية ؟

قيل له : يؤمننا ذاك أن الخبر صدق ، ويعلم أنه صدق ، أنه لو لم يكن صدقا لكان لا يجوز أن يجري الأمر في مخبره علي ما أخبر نحوا من أربعمائة سنة مع الأحوال التي ذكرناها، لأن ما يقال علي سبيل التخمين والرحم لا يجوز أن يستمر الأمر في مخبره علي هذا الحد فعلم أنه خبر صدر عن علام الغيوب .

---

٣٦٨ – البقرة : ٢٣-٢٤

٣٦٩ – الإسراء : ٨٨

وأيضاً : قد علمنا أن الدواعي إلي إيراد المعارضة لم تكن حبست عن المطامع وكانت الصنعة أيضا في نفسها أقوالا في أمثله العرب ، ولم يكن يكمن فيها من الفساد ما يكمن الآن ، وعلي استمرار الأزمان ، ومضي الأعصار ، تزداد الصنعة ضعفا والدواعي قلة –لما تعذر وقوعه – فلما تعذر وقوعها فيما سلف من الزمان كان وقوعها فيما بعد أيسر تعذرا .

وأيضا ظاهر الخطاب هو لأهل ذلك العصر ، وإن كنا قد عرفنا بدليل سوي الظاهر ، أن المراد به إلي آخر الدهر وإذا لم تقع المعارضة من أهل ذلك العصر وجب كون الخبر صدقا .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الآَخِرَةُ عِندَ اللّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُاْ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالمِينَ** ﴾ (٣٧٠) وقال أيضا في السورة التي يذكر فيها الجمعة : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِن زَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلِيَاء لِلَّهِ مِن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ، وَلَا يَتَمَنَّوْنَهُ أَبَداً بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ (٣٧١)

فأخبر أنهم لا يتمنون الموت أبدا ، فوجد مخبر الخبر علي ما أخبر به ، ولم يقل أحد منهم ، أني أتمني الموت ، هذا مع ما كان عليه اليهود من شدة الحرص علي تكذيبه وإبطال دعواه ، وتوهين أمره ، حتى أنهم استهانوا بالموت ، وما يجري من القتل الذريع عليهم في جنب استمرارهم علي معاداته ، وتحققهم بمنأواته ، فلولا أن الخبر صدر من عند علام الغيوب لم يكن يجوز أن يورده النبي – صلي الله عليه وعلي آله – خشية أن يظهر منهم ما يوجب تكذيبه .

---

٣٧٠ – البقرة : ٩٤–٩٥

٣٧١ – الجمعة : ٦–٧

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ** ﴾ (٣٧٢) يعصمه الله عز وجل من الناس كما وعده ، وجري الأمر فيه إلي قبضه – صلي الله عليه وعلي آله – على ما دل عليه الخبر ، وهذا أمر الغيب الذي لا يعلمه إلا الله – سبحانه – لأن الانسان لا يدري ما يجري عليه إلي أن يموت ، سيما من كان علي مثل حاله – صلي الله عليه وآله – في كثرة الأعداء .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ** ﴾ (٣٧٣) وهذه الآية قد تضمنت خبرين من أخبار الغيوب ، أحدهما : ما وعدهم الله عز وجل به من كون أحدي الطائفتين لهم ، وأنه يظفر بها، والطائفتان أحدهما : العير، التي كانت مع أبي سفيان ، والثانية : الذين خرجوا للمحاماة عنهم من أحزاب قريش ، فأظفرهم الله– تعالي – بأحزاب قريش يوم بدر ، وأنجز لهم الموعود .

فإن قيل : الآية نزلت بعد الكائنة ، وإذا كان هذا هكذا ، فليس فيه خبر عن الغيب ؛ لأنه خبر عن الواقع المعلوم .

قيل له : الآية تضمنت تقدم الوعد علي الكائنة ، لأن الوعد لابد من أن يتقدم الموعود ، ولولا أنه كان معلوما عند أصحاب رسول الله – صلي الله عليه – أن ذلك الوعد كان قد حصل لهم لم يكن النبي – صلي الله عليه – ليتلو عليهم ما تلاه ؛ لأنه مجرى أن يقول لهم : قلت لكم أمس شيئا : وهم يعلمون أنه لم يقله لهم وأن يفضح القائل ويظهر كذبه ، ويقوله بين أصحابه ، فبان أن الوعد في الأمل والوعيد كان قد تقدم . وأن الموعود جري علي ما وعدوا به ، ومثل هذا لا يجوز أن يصدر إلا عن علام الغيوب سبحانه وتعالي .

---

٣٧٢ – المائدة : ٦٧

٣٧٣ – الأنفال : ٧

ويبين ما قلناه من أن الوعد كان قد تقدم : قوله عز وجل بعد هذه الآيات : ﴿ **وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم** ﴾ (٣٧٤) والبشري لا تكون إلا قبل حصول الشئ ، فدل ذلك أيضا علي أنهم كانوا مبشرين قبل وقوعه ، الوجه الثاني الذي تضمنته الآية من الإخبار عن الغيوب : قوله عز وجل : ﴿ **وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** ﴾ وهي العير التي كانت مع أبي سفيان ، فأخبر عما في نفوسهم ، ولم يقل أحد منهم أن الذي كان في نفسي خلاف ذلك . علي أن ذلك لو لم يكن معلوما أنه صدق ، وأنه من عند علام الغيوب ، كان النبي – صلي الله عليه وآله – لا يتلوه عليهم ، خشية أن يكون المخبر بخلافه فيظهر كذبه .

فإن قيل : هذا معلوم ، لكل عاقل أنكر فيه ، فأن المعلوم من أحوال الناس : أن الظفر بالأموال التي لا مدافع عنها أحب إليه من الظفر بالمقاتلة الذين لا يظفر بهم إلا بعد شدة ، وبعد أن يقتل منهم من يقتل ويجرح من يجرح .

قيل له : هذا الذي ادعيتم غير مستمر ، وان كان الأكثر ما ذكرتم . وذلك أن من الناس من يكون قتل الأعداء وأسرهم وجرحهم والظفر بهم أحب إليه من كثير من الأموال التي تأتيه عفوا ، ولهذا تري الرجل ينفق ماله من طارف وتليدا ليتوصل به إلي النكاية في العدو ، وإذا ثبت ذلك ثبت أن أخباره عن جميعهم – مع كونهم معروفين بشدة الحمية والعصبية ، أنهم يودون : أن غير ذات الشوكة تكون لهم : خبر عن الغيب .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ** ﴾ (٣٧٥) والخبر عن أن الكفار الذين كانوا يعادون رسول الله – صلي الله عليه – يغلبون ، خبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالي ، ولأنه

---

٣٧٤ – آل عمران : ١٢٦

٣٧٥ – آل عمران : ١٢

لا سبيل لأحد إلي أن يعلم أن أولئك الكفار ، مع كثرة عددهم ، ووفور عـــددهم ، هم يغلبون لا محالة ، وقد جري الأمر علي ما ورد الخبر به ، فإن جميعهم غلبوا وقهروا واستذلوا .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَـــقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (٣٧٦) ذكره عز وجل فــي الــسورة التي يذكر فيها التوبة والسورة التي يذكر فيها الصف والسورة التي يــذكر فيهــا الفتح ، وفي هذه السورة آخر الآية : ﴿ **كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً** ﴾ (٣٧٧) فأكد الخبر هــذا التأكيد ، وكرر ذكره في هذه السورة ، ثم أنجز الله عز وجل وعده لنبيه – صــلي الله عليه – بإظهار دين الإسلام ، ونشر دعوته فــي الآفــاق ، فطبقــت الــشرق والغرب ، وعمت العرب والعجم وخلصت إلي الروم والهند والترك وصار كثيــر من البلدان المنسوبة إلي هؤلاء – أعني الروم والهند والترك من بلاد الإســلام – والفتوح إلي الآن متصلة ترد بها الأخبار من النواحي والأقطار .

فأما بلاد العرب والعجم – بحمد الله ومنه – فقد صارت كلها بلاد الإســلام ، ولم يبق أهل ملة من الملل ، ولا أمة من الأمم ، إلا نفذ فيهم الإســلام ، حتــى صار هذا الدين أعلي الأديان كلمة ، وأرفعها حكمة ، ولو كره المشركون ، كمــا قال الله عز وجل .

وليس يخفي علي عاقل أنصف نفسه : أن الخبر بهذا خبر عن الغيب الــذي لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، الذي يعلم ما كان وما يكون ، وما لا يكــون أن لو كان كيف كان يكون ، فسبحانه لا نشرك به شيئا ، ولا نتخذ من دونه إلهــا ولا وليا .

---

٣٧٦ – التوبة : ٣٣

٣٧٧ – الفتح : ٢٨

وفي هذا المعني قال – صلي الله عليه – وصدق ، ونحن علي ذلك من الشاهدين ، " **زويت لي الأرض ، فأريت مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمتي ما زوي لي منها** " (٣٧٨)

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **ألم . غُلِبَتِ الرُّومُ ، فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ، فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ، بِنَصْرِ اللَّهِ** ﴾ (٣٧٩) وهذه الآية قد تضمنت ثلاثة من الأخبار عن الغيوب ، **أحدها** : قوله عز وجل : ﴿ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون** ﴾ هذا من الغيب ، الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل ، **والثاني** ، قوله : ﴿ **في بضع سنين** ﴾ والبضع فوق الثلاثة ودون العشرة ، وهذا التحديد أيضا من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ، **والثالث** : قوله عز وجل : ﴿ **ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء** ﴾ فأخبر أنهم يفرحون في ذلك الوقت بنصر الله ، وهذا أيضا من الغيب ؛ لأنه خبر عن بقاء المؤمنين إلي ذلك الوقت مع قلتهم ، وطمع الأعداء في ابتسافهم ، وعن أنهم يفرحون ، ولا تعرض هناك أحوال تمنعهم الفرح ؛ لأن هذه الآية نزلت بمكة قبل الهجرة ، في حال ضعف المسلمين ، وقلتهم ، واستيلاء المشركين عليهم ، والقصة في ذلك مشهورة وهي أن الفرس كانوا غلبوا الروم ففرح لذلك المشركون واغتم المسلمون ؛ لأن الروم(٣٨٠) كانوا أهل الكتاب فكان

---

٣٧٨ – أنظر صحيح مسلم : كتاب الفتن وأشراط الساعة .

٣٧٩ – الروم : ١–٥

٣٨٠ – الروم المعنيون في الآيات هم الروم البيزنطيون ، أصحاب القسطنطينية (استانبول من بعد أو الآستانة) الناطقون باليونانية ، لا الروم الغربيون ، أصحاب روما ، الناطقون باللاتينية . فقد انهارت إمبراطورية الروم الغربية نهائياً بسقوط روما في أيدي القوط عام ٤٧٦م ، ولم يعد من الروم عصر نزول القرآن مطلع القرن السابع الميلادي سوى روم المشرق ، أي روم "بيزنطة" التي ورثت مجد روما القديم وخلفتها على أقاليمها في مصر والشام ، بالإضافة إلى أراضيها الأصلية في البلقان ، وآسيا الصغرى (الأناضول) . ولأن حكام بيزنطة كانوا سلالة من قياصرة روما عند انقسام الإمبراطورية عام ٣٩٥م إلى غربية في روما وشرقية في بيزنطة ، فقد تسمى الملوك البيزنطيون أيضاً باسم القياصرة (المأخوذ من اسم قيصر) : قيصر في روما وقيصر في بيزنطة . وما أن سقطت روما في أيدي القوط ، وآل فيها الحكم إلى أقوام من غير الروم ، حتى بات قيصر بيزنطة وحده هو القيصر ، وباتت بيزنطة أو القسطنطينية الوريث

المسلمون بهم آنس . والفرس([381]) كانوا مجوسا([382]) ، وكان المشركون بهم أشبه ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بعض سنين** ﴾ ففـــرح المسلمون ، وأنكره المشركون واستبعدوه ، فخاطر ، أبو بكـــر أميـــة بـــن خلـــف الجمحي ، علي أن تعود الغلبة للروم علي الفرس إلي ثلاث سنين ، وظن أن بضع معناه ثلاث ، فقال له رسول الله – صلي الله عليه _ " زد في الأجل ، وفي الخطر " وكان ذلك قبل نزول التحليل والتحريم ، وحين كانت المخاطرة مباحة ، ففعل أبو بكر ذلك ، وظهرت الروم علي فارس لتمام سبع سنين ، ففرح المسلمون يؤمئـــذ ،

الشرعي لمجد روما القديم ، بل باتت بيزنطة هي روما ، ليس فقط في أعين البيزنطيين أنفسهم الذين لم يتـــردد بعضهم في إطلاق إسم روما مجازاً على عاصمتهم وإنما أيضاً وبالأخص في أعين أهل الأقاليم التابعة الـــذين لم يروا في انتقال تبعيتهم من روما إلى بيزنطة سبباً يدفعهم إلى تعديل مسمى الدولة التي يخضعون لها : إنهـــم القيصر وولاة القيصر ، وهم أيضاً الروم ، لاتينيين بالأمس أو بيزنطيين اليوم ، أصـــحاب رومـــا الأولـــى أو أصحاب روما الثانية. إنهم الروم في كل حال. لهذا كان العرب عصر نزول القرآن الكريم يقولـــون "الـــروم" يعنون "اليونان" بل ما زلت تسمع في العربية العامية لفظة "الرومي" في موضع "اليونـــاني" بـــل لـــم تعـــرف العربية الفصحى "اليونان" واليوناني إلا منذ العصر العباسي في سياق ترجمات فلاسفة اليونان إلـــى العربيـــة . على أن العرب كانوا يتوسعون فيطلقون اسم الروم على سكان شمالي البحر الأبيض المتوســـط (بحـــر الـــروم عند قدامى الجغرافيين العرب) ، فهم إذن الأوروبيين بوجه عام . ورغم ذلك كله فإن لفظة الـــروم هـــي فـــي أصلها نسبة إلى روما بلا جدال ، سواء أردت روما التي في إيطاليا أو روما الثانية التي على ضفاف البسفور أي بيزنطة المعنية في الآيات .

٣٨١ – هم الطرف الآخر في المغالبة المشار إليها في الآيات ، الذين لم تسمهم الآيات اكتفاءً بـــذكر عـــدوهم اللدود الغالب يوم يفرح المؤمنون بنصر الله ، ولاستفاضة شهرة هذا الصراع الأزلي بين قطبي العالم القـــديم : كسرى وقيصر .

٣٨٢ – عرف العرب في الجاهلية الديانة المجوسية ، والتي من تعاليمها عبادة الشمس والقمر وتقديس النـــار ، وكانت منتشرة بين الأشوريين وتسربت الى أنحاء الجزيرة خاصة تميم واليمن ، والديانة فارسية قديمـــة وهـــم المجوس أتباع ذرادشت و ترى العالم كصراع مستمر بين القوى الكونية المستقلة. وفي معتقدات هـــذه الديانـــة فإن أهورامزدا هو رب الخير أو الحكمة وخالق العالم المادي، وأنجرامينو هو كل المـــوت وروح الـــشرّ، وأن الإنسان هو كائن حرّ وعليه واجب مساعدة الانتصار لأهورامازدا. انتشرت هذه الديانة في إيـــران خـــصوصًا بعد ثمانية قرون من موت زرادشت، وبعد أن انحسرت إلى حد ما، ديانة الماجي المجوســـية التـــي اقتـــصرت حينها على الملوك والكهنة. (تفسير الطبري (١٧ / ٩٧) ، والمفصل (٦ / ٦٩١) ، والمعجـــم الـــذهبي (مادة مجوس)

والنصر(٣٨٣) الذي ذكر الله عز وجل : أن المؤمنين به يفرحون ، فقد قيل : أنه

٣٨٣ – النصر في اللغة هو العون والمظاهرة والتأييد ، ليس هو بذاته كما يظن الأكثرون الفوز والفتح والغلب ، وإنما هو العون والتأييد المؤديان إلى الفوز والغلب . ومن هنا تفهم عبارة "نصر الله" حيثما وقعت في كل القرآن بمعنى تَدَخُّله عز وجل بمدد من عنده ، ملائكة وغير ملائكة ، لنصرة فريق وتخذيل فريق ، فتنقلب على الفور موازين القوى لصالح الفريق الذي "نصره الله" يعني أيده وأعانه ، فينتصر الذين كان نصر الله في معيتهم ليكونوا هم الغالبين . ومن دقيق القرآن أنه حين تحدث عما كان بين الفرس والروم استخدم مادة "غلب" ولم يستخدم مادة "نصر" لأن الغلب هنا وهناك كان بأمر الله ، أي بقضائه وتدبيره ﴿ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ " [الروم : ٤] ولم يكن بانتصاره عز وجل لفريق على فريق ، أي بتدخله عز وجل لصالح فريق ضد فريق بمدد من عنده ، ملائكة وغير ملائكة . وإلا لقلت أن الله كان مع الفرس يوم غلبوا الروم ، يعني كان راضياً عن الفرس ساخطاً على الروم ، ثم سخط على الفرس ورضي عن الروم فانتصر للروم عليهم . ولا يصح هذا لأن الله عز وجل لا يجوز عليه البُداء ، "يَبدو" له الأمر فيمضيه ، ويبدو له العكس من بعد فيمضيه ، إن صح هذا بين البشر – وهو مذموم لأنه تذبذب بين النقيض ونقيضه – فهو محال في حق العزيز الحكيم . وقد كان الفرس مجوساً يوم كانت الكرة لهم ، وكانوا مجوساً أيضاً يوم كانت الكرة عليهم . وكان الروم أهل كتاب يوم غلبهم الفرس المجوس ، وبقوا أهل كتاب يوم أديل لهم من الفرس . أما حين تحدثت الآيات عن نصر الله فهي تريد انتصار الله عز وجل للمؤمنين الذين يفرحون بنصره . والمؤمنون اصطلاح قرآني يراد منه المسلمون أهل القرآن لا أهل الكتاب . والأصل في هذا أن الله عز وجل الذي لا ينصر باطلاً على حق ، لا ينصر باطلاً على باطل ، وإنما ينتصر فحسب للحق على الباطل ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ " [الأنبياء : ١٨] . ومن جهة أخرى فليس أهل الكتاب – يهود ونصارى – بأولياء للذين آمنوا حتى يفرح المؤمنون – كما تنبأت الآيات – بنصر الله يوم ينتصر الروم على الفرس المجوس كما توهم البعض ، بل قد نهى الله الذين آمنوا عن توليهم ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاء بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ " [المائدة : ٥١] ، يبين لك عز وجل علة النهي عن توليهم ، أي لأنهم أولياء بعض ، يعني أولياء بعض عليك ، لا تستنصر بإحدى الطائفتين على أختها ، ولا تستنصر بطائفة منهما على عدو لك ، فلن يصدقوك الولاية ، بل هم معاً عليك ، لا يألونك خبالاً . ومن يتولهم فقد ظلم ؛ لأنه صار في معيتهم وبات منهم ، هذا النهي عن تولي أهل الكتاب من إعجاز القرآن ، فلم يعرف التاريخ قديمه وحديثه موقفاً انتصر فيه أهل الكتاب للمسلمين على عدوهم ، وإنما هم ينتصرون لعدو المسلمين عليهم ، أو ينتصرون لبعض المسلمين على بعض نكاية فيهم جميعاً . لم ينتصر الله للفرس على الروم يوم كانت الغلبة للفرس ، ولم ينتصر أيضاً للروم يوم تحققت نبوءة القرآن بكرة الروم عليهم . ولكنه عز وجل – في المرتين – أعمل في كلا الفريقين قوانين النصر والهزيمة ، فانتصر الذي اتخذ للنصر عدته وانخذل الذي توانى وقصر . أي أنه عز وجل خلى بين الفريقين وبين تلك القوانين ، ولم "يتدخل" لنصرة فريق على فريق ، فيقلب موازين القوى لصالح أولئك الذين كان نصره في معيتهم ، كما فعل مع المسلمين في بدر . فلا يصح فهم قول الله عز وجل في الآيات الست من مفتتح سورة الروم على أنه – كما توهم البعض – فرح المؤمنين بانتصار الروم على الفرس ، وإنما النصر المبشر به بصر آخر تتنبأ به تلك الآيات للمؤمنين – أي المسلمين – على عدوهم مشركي قريش ، فيفرح المؤمنون بنصر الله إياهم ، دليلك في هذا – فوق ما تقدم – تعقيبه عز وجل على هذه البشرى بقوله ﴿ وَعْدَ

نصر الله عز وجل نبيه – صلي الله عليه – بما أظهر له من الإعجاز الظاهر باطلاعه علي هذا الغيب الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل لأن فيه آية بينة ، ودلالة واضحة علي نبوته ، ويحتمل أيضا : أن يكون المراد له : أن ذلك الفرس كان فيه قوة للمسلمين ، ونصره لهم علي المشركين ، لما كان من ميل المشركين إليهم وطمعهم في الاعتضاد بهم ؛ لأن الله عز وجل لا يجوز أن ينصر الكفار بعضهم علي بعض ، وان كان جائزا أن يزيد في خذلان بعضهم إذا كان في ذلك ضرب من المصلحة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **يُرِيدُونَ أَن يُطْفِؤُواْ نُورَ اللّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (٣٨٤) وقال في السورة التي يذكر فيها الصف : ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِؤُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ (٣٨٥) فوعد عز وجل ، أن يتم أمر الدين الذي ابتعث به نبيه – صلي الله عليه وآله – علي كره من أعدائه الكفرة ، ومع كونهم مريدين إطفاء نور الحق وطمسه ، فجري الأمر فيه علي ما وعد ، وهذا من الغيب الذي لا يطلع عليه إلا الله عز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً** ﴾ (٣٨٦) بعد قوله : ﴿ **إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً** ﴾ (٣٨٧) إلى آخر الآية .

ومن المعلوم : أن نصر الله عز وجل لنبيه – صلي الله عليه – إلي أن اختار الله له دار كرامته كان نصرا عزيزا ، وهذا مما لا يجوز أن يكون اطلع عليه إلا الله عز وجل . ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً** ﴾ (٣٨٨) يعني يوم الأحزاب ،

اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ " [الروم : ٦] فليس لروم أو فرس وعد عند الله عز وجل ، وإنما الوعد للمؤمنين الذين آمنوا .

٣٨٤ – التوبة : ٣٢

٣٨٥ – الصف : ٨

٣٨٦ – الفتح : ٣

٣٨٧ – الفتح : ١

٣٨٨ – الأحزاب : ١٢

ثم يقول بعد ذلك : ﴿ **وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ (٣٨٩) فدل بهاتان الآيتان علي أن النبي – صلي الله عليه وآله – كان وعد أصحابه وعدا ظاهرا ، أن الأحزاب يأتون وأن الله ينصرهم عليهم حتى عرفه المؤمنون والمنافقون ، وانتشر فيهم حتى قال المنافقون : ﴿ **مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً** ﴾ (٣٩٠) وقال المؤمنون حين رأوا الأحزاب : ﴿ **هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ** ﴾ (٣٩١) وهذا مما لا يعلمه : ولا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل لأنه لا سبيل إلي العلم بأن الأحزاب يأتونه ، وأنهم مع قوتهم وكثرتهم ينهزمون لا محالة .

فإن قيل : هذه الآية نزلت بعد يوم الأحزاب .

قيل له : هذا ، وإن كان كذلك ففيها دلالة علي أن الوعد به كان قد تقدم . ألا تري إلي ما حكي الله تعالي عن المؤمنين والمنافقين في ذلك . والنبي – صلي الله عليه – تلا ذلك عليهم ، ولو لم يكن الأمر كذلك لم يكن ليتلو – صلي الله عليه – ذلك عليهم ، ويدعيه لئلا يكون منها لهم علي كذبه ، حاشاه – صلي الله عليه وعلي آله – من ذلك .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً** ﴾ (٣٩٢) فأخبر عما في ضمائرهم من إرادة الفرار تعللا بأن بيوتهم عورة ، وهذا لو لم يكن كذلك لظهر منهم إنكاره .

ومن ذلك قوله في السورة التي يذكر فيها ﴿ **ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ** ﴾ (٣٩٣) : ﴿ **جُندٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْزُومٌ مِّنَ الْأَحْزَابِ** ﴾ (٣٩٤) وهي سورة مكية . أولها : ذكر

---

٣٨٩ – الأحزاب : ٢٢

٣٩٠ – الأحزاب : ١٢

٣٩١ – الأحزاب : ٢٢

٣٩٢ – الأحزاب : ١٣

٣٩٣ – ص : ١

قريش ، وما كان من قولهم : ﴿ **وَعَجِبُوا أَن جَاءهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ** ﴾ (٣٩٥) فأخبر عز وجل في حال ضعف النبي – صلي الله عليه – وقلة أنصاره وقوة مشركي قريش أنهم جند مهزوم ، فكان الأمر علي ما أخبر به – عز وجل – هزموا يوم بدر .

وكذلك قوله في السورة التي يذكر فيها القمر ، وهي أيضا سورة مكية ، مخاطبا لقريش : ﴿ **أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءةٌ فِي الزُّبُرِ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ، سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ** ﴾ (٣٩٦) فأخبر أنهم يهزمون ويولون الدبر ، وهذا أمر الغيب ، الذي لا يعلمه إلا الله عز وجل .

ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّواْ عَن سَبِيلِ اللّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ** ﴾ (٣٩٧) فكان الأمر علي ما أخبر به عز وجل ؛ لأن الكفار أنفقوا ما أنفقوا من الأموال للخروج إلي أحد ،وصار في آخر الأمر عليهم حسرة . وكذلك ما أنفقوا لجمع الأحزاب ، وما أنفقه (مالك بن عوف) (٣٩٨) حين جمع (هوازن) (٣٩٩) يوم حنين ، صار جميع ذلك حسرة عليهم ، وغلبوا علي ما أخبر الله عز وجل وهذا أيضا من الغيب الذي لا يطلع عليه أحد إلا الله عز وجل ، وليس لأحد أن يدعي : أن هذه الآية نزلت بعد الإنفاق لقوله عز وجل : " **فسينفقونها** " والسين إذا دخلت علي الفعل المضارع حققت أنه للاستقبال ، فدل ذلك علي أن الآية نزلت قبل الإنفاق .

---

٣٩٤ – ص : ١١

٣٩٥ – ص : ٤

٣٩٦ – القمر : ٤٣–٤٥

٣٩٧ – الأنفال : ٣٦

٣٩٨ – مالك بن عوف النضري – سيد هوازن– .

٣٩٩ – هوازن إحدى قبائل العرب في شبه الجزيرة العربية أنتشرت بعد الفتوحات الإسلامية في الشام و العراق و مصر وبلاد المغرب و الأندلس يرجع نسبها إلى هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

ومن ذلك قول الله عز وجل : ﴿ **قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللّـهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْـزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ** ﴾ (٤٠٠) فجـري الأمر علي ما أخبر الله عز وجل به ، فأنه تبارك وتعالي عـذب الكفـار بأيـدي المؤمنين إذ أمكنهم من قتلهم وأسرهم وسبي ذراريهم ، وأورثهم أرضهم وديـارهم وأموالهم وأخزاهم ، كما وعد سبحانه ، وتصر المؤمنين عليهم وشـفي صـدورهم وأذهب غيظ قلوبهم كما أخبر . وهذا مما لا يجوز أن يعلمه قبل كونه إلا الله عـز وجل .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُـونَ لِـإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَداً أَبَـداً وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُـمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لَا يَنصُرُونَهُمْ** ﴾ (٤٠١)

وهذه قصة مشهورة ، وهي قصة بني النضير(٤٠٢) وذلك أنهم كانوا في عهد رسول الله – صلي الله عليه وآله – فغدروا ونقضوا العهد ، وهموا باغتيال رسول الله – صلي الله عليه وآله – فأوحي الله بذلك إلي نبيه – صلي الله عليـه – وبمـا تآمروا بينهم . وهذا أحدي المعجزات .

ثم تقدم إليهم رسول الله – صلي الله عليه – بمفارقة موضـعهم ، والجـلاء عنه ، وأعلمهم أنهم نقضوا العهد وبما تآمروه بينهم ، فـأذعنوا وعزمـوا علـي الجلاء فراسلهم عبد الله بن أبي بن سلول(٤٠٣) ، وكان من كبار المنافقين ، ووعدهم

---

٤٠٠ – التوبة : ١٤–١٥

٤٠١ – الحشر : ١١–١٢

٤٠٢ – النضير : اسم قبيلة من اليهود الذين كانوا بالمدينة المنورة ، في وادي بُطحان والبـوُيرة (يـاقوت ، معجم ٥ / ٢٩٠)

٤٠٣ – يلقب المسلمون عبد الله بن سلول بلقب (كبير المنافقين) لديه ولد اسمه عبـد الله (علـى اسـم أبيـه) وأصبح لولده شأن كبير في الإسلام وقتل في معركة اليمامة وهو سيد هوازن وكان على وشك ان يكون سـيد

بالنصرة ، وأنه مع أصحابه معهم ، وأنهم أن أخرجوا إلي الجلاء أجلوا معهم ، وإن قاتلوا نصروهم ، وأنهم لا يطيعون فيهم رسول الله –صلي الله عليه – فشهد الله عز وجل أنهم لكاذبون وأنهم لا يفون لليهود ، بما وعدوهم فجري الأمر في ذلك علي ما أخبر الله به عز وجل، وشهد به عليهم ، وأن النبي – صلي الله عليه – أخرج بني نضير عن حصونهم ، فلم يخرج المنافقون معهم ، ولا نصروهم في قتل رسول الله – صلي الله عليه وآله – بني قريظة صبرا ، وسبي ذراريهم ونسائهم بعدما حاصرهم . وحارب أهل خيبر[٤٠٤] حتى ظفر بهم وبديارهم وأموالهم ، فلم ينصروهم ، كما أخبر الله عز وجل في ذلك عنهم ، فكان في القصة ثلاث من المعجزات ، أحداها : أن النبي – صلي الله عليه – كان مضي إلي بني النضير ، ومعه أمير المؤمنين – عليه السلام– وأبو بكر وعمر وغيرهم في أمر كان عرض وجلس مسندا إلي جدار حصنهم – صلي الله عليه وعلي آله _ فتآمروا فيما بينهم ، واتفقوا علي أن يرسلوا عليه من فوقه صخرة تقتله ، فأتاه الوحي في الحال ،وعرف ما كانوا تآمروا ، فقام في الوقت من موضعه ذلك ، وعاد إلي المدينة ، ولم يعرف أحد من أصحابه السبب في ذلك إلي أن عرفهم – صلي الله عليه – ذلك . فكان ذلك أمرا واضحا في وقوفه علي سرهم من غير خبر أتاه من جهة أحد من الناس ، ولا يجوز أن يكون إلا من جهة الوحي .

والثانية : ما أخبر من سر المنافقين ومراسلتهم ، فإنهم كانوا مجتهدين في إخفاء ذلك . والثالثة : خبره عز وجل عنهم أنهم كاذبون ، وأنهم لا يفون لهم بما وعدوهم ، فجري الأمر علي ذلك .

المدينة قبل أن يصلها الرسول صلى الله عليه وسلم خاض بن السلول صراعا" مريرا علنيا في قليل من الأحيان وسري في كثيرة مع محمد صلى الله عليه وسلم واتباعه للسيطرة على مقاليد الامور في المدينة.

٤٠٤ – خيبر : مدينة كبيرة ذات حصون ومزارع على بعد تسعين ميلا تقريباً من المدينة في جهة الشمال (الحميري ، الروض ٢٢٨ ، ياقوت ، معجم ٢ / ٤٠٩)

ومن ذلك قوله عز وجل بعد هذه القصة : ﴿ **لَا يُقَاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلَّا فِي قُرًى مُّحَصَّنَةٍ أَوْ مِن وَرَاءِ جُدُرٍ** ﴾ (٤٠٥) فجري الأمر علي ما أخبر عز وجل . فأن من قاتل منهم لم يقاتل إلا من " **وراء جدر** " ولم يبرزوا للنبي – صلي الله عليه – كما برز المشركون يوم بدر ، ويوم أُحد وحنين ، وهذا مما لا يجوز أن يطلع علي حقيقته إلا الله عز وجل العالم بالمغيبات .

ومن ذلك قوله عز وجل في اليهود ﴿ **وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ** ﴾ (٤٠٦) وقد علمنا من أحوالهم لأنهم في جميع المواضع مقهورون مستذلون لا يمكنهم الثبات إلا مع الجزية والصغار وأحوالهم خلاف أحوال النصارى ، فإن للنصارى دار ومملكة مثل الروم وما حوله علي ما أخبر الله تعالي في القلة والذلة .

ومن ذلك قوله عز وجل : ﴿ **تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ** ﴾ (٤٠٧) إلي آخر السورة ، وذلك أخبار عن موته علي الكفر ، وجري مخبره علي ما أخبر به عز وجل ، وهو مما لا يعلمه إلا علام الغيوب .

ولهذه الآيات في القرآن نظائر ، وفيما ذكرنا كفاية وبلاغ لمن نصح نفسه ، وانصف عقله ، واتبع رشده .

فإن قيل : ولم ادعيتم أن الإخبار عن الغيوب يتضمن الإعجاز الذي إذا أتي به إنسان وادعي النبوة ثبتت نبوته ؟ وما أنكرتم أن يصح ذلك من المنجم الذي يخبر عن الشئ فيتفق أن يكون مخبره علي ما أخبر به ؟

---

٤٠٥ – الحشر : ١٤

٤٠٦ – الأعراف : ١٦٧

٤٠٧ – المسد : ١

قيل له : لأن الخبر عن الغيب علي وجه يكون صدقا علي جهة الاستمرار لا يصح إلا من العالم به ؛ لأن ذلك لو صح من غير العالم ، لم يكن الاستدلال بالفعل المحكم المتقن ، علي أن فاعله عالم ، لأن من جوز ذلك يلزمه أن تكون الأفعال الكثيرة المنتظمة المتسقة تقع من المبخت الذي ليس بعالم به ؛ لأن الخبر الصدق في حكم الفعل المتقن في احتياجه إلي أن يكون الفاعل له عالما، وهذه الجمل هي من علوم البداية التي لا تعزب عن كامل العقل ، بل عن المراهق ، وان لم يبلغ كمال العقل .

فإن قيل : كيف ادعيتم أن ذلك من البدائة وأنتم تجدون كثيرا من العقلاء ، يعتقدون في الكهان والمنجمين ، أنهم يجوز أن يخبروا عن الغيوب ؟

قيل لهم : أنهم لا يجوزون ذلك إلا إذا اعتقدوا أنهم عالمون بذلك ، وليس ذلك خلاف ما ادعيناه من أن العلم بأن الإخبار عن الغيب لا يصح إلا من العالم .

ومن جملة البدائة أن أولئك أخطأوا حين اعتقدوا أن هؤلاء يعلمون الغيب ، ولم يعتقدوا أنهم أخبروا من غير أن علموا .

فإن قيل : فإنا نجد من يعتقد في كثير من المجانين أنهم يخبرون عن الغيب.

قيل له : هؤلاء يعتقدون أن الجن هم الذين ينطقون علي ألسنتهم ، وأن الجن يعلمون ذلك ، فليس في العقلاء من يضيف الأخبار عن الغيب إلا إلي العالم به ، علي بعض الوجوه .

وقد رأيت من سخافة الفلاسفة من يذهب إلي أن الانسان إذا احتمل ربما أخبر عن الغيب ، ومن يقول ذلك يذهب إلي أن النفس عالمة ، فإذا احتمل خلصت النفس ، وجري مجري النائم الذي يري ما يكون مما لم يكن بعد في نومه ، وهذا وان كان هذيانا لا يؤبه له ، وكان ما يراه النائم علي خلاف ما ذهبوا إليه

، فانا ذكرناه لنبين أنه لا أحد من العقلاء يعتقد أن المخبر عـن الغيـب إذا كثـر إخباره واستمرت علي وجه يكون صدقا ، يجوز أن يكون غير عالم ، فإذا ثبتـت هذه الجملة نقول : إن الانسان قد ثبت أنه عالم بعلم يتجدد له ، والعلم لا يخلو مـن أن يكون ضروريا أو مكتسبا .

وقد علمنا أنه لا طريق يمكن للإنسان أن يكتسب به العلـم بـالغيوب ؛ لأن العلوم تكتسب بالنظر في الأدلة ، ولا أدلة علي الغيوب ، فلم يبق إلا أن من علـم الغيوب يعلمه بعلم يضطره الله إليه ، أو بخبر يأنيه من قبله عز وجـل . وأيهمـا كان معجزا ، لأنه متعذر علي جميع الخلق الإتيان به إلا من خصه الله عز وجـل به ، كفلق البحر ، وقلب العصا حيـة ، وأحيـاء المـوتى ، وإبـراء الأكمـة ، والأبرص.

فإن قيل : ما أنكرتم علي من قال لكم : أن النبي – صلي الله عليه – علـم تلك الغيوب من طريق التنجيم كما يعرفها حذاق المنجمين ، وإذا صار ذلـك لـم يجب كونه معجزا علي ما ادعيتموه .

قيل له : هذا يسقط من وجهين ، أحدهما : أن المنجم لا يمكنه أن يخبر عن تفاصيل الأمور ، ولا يحصل له العلم بذلك ، وإنما يحصل له غالب الظن ، لـذلك يصيب في شئ ، ويخطئ في غيره ، وذلك من أحـوال المنجمين معلوم .

يبين ذلك : أنهم يدعون أن في جملة الكواكب الثابتة وهـي التـي تـسمي بيابيات : كواكب كثيرة لا يعرفها أحد من الناس ، وفيها السعود والنحـوس ، وأن حصول ما يحصل منها في الطالع يغير الأحكام من غير أن يشعر بهـا المـنجم ، فيعتذرون الخطأ الذي يتفق لهم بذلك ، وربما شبهوه إلي خطـأ أصـحاب الرصـد وربما ينسبون بعض الزيجات إلي أن فيها خطأ كثيرا ، وكل ذلك لأن الصواب لا يستمر لهم ، لأنهم لا يمكنهم أن يحكموا تفاصيل الأمور ، وليس كذلك إخبـار الله

عز وجل في القرآن عن الغيوب ، فوجب أن يكون صدر عــن عــلام الغيــوب ، الذي لا تخفي عليه خافية تبارك وتعالي .

والوجه الثاني : أن النبي – صلي الله عليه وآله – لو كان بلغ فــي علــوم النجوم المبلغ الذي كانت له هذه الأمارات من أجلها مع استحالة ذلــك لوجــب أن يظهر اشتغاله بها ، وصرف العناية إليها ، وأخذها عن أهلها ، ولم يكــن للعــرب اختصاص بهذا الجنس من العلم ، ولم يعرف أحد منهم به ، ولم يكــن يجــوز أن يخفي عليهم .

ومن المعلوم : أن النبي – صلي الله عليه وآله – كان مولده ومنــشؤه فــي أقوام لم يتعاطوا هذا العلم ، ومسافرته إلي الشام قبل البعثة كانــت مــع قومــه ، وكانت أياما قليلة ، فبان بما بيناه : أنه لم يكن من أهل هذه الصنعة علي المتعاطي لهذه الصنعة إذا بلغ مبلغ المتوسطين منها ، فلا بد له من مدارسة أهله ، والنظــر في كتبهم ، بل لا بد له من آلات يعرف بها الطوالع التي يبني عليهــا الأحكــام ، فكيف من بلغ الغاية ، وإذ قد علمنا أنه – صلي الله عليه – لم يتعاط شيئا من ذلك ، ولم يشتغل به ، ولم يعرف شيئا منه ، فقد بطل قول من قال : أن ما آتاه عليــه السلام : آتاه من طريق النجوم .

وأيضاً : بمثل ما عرفنا أن الفرزدق وجريرا لم يكونا فقيهين ، ولا متكلمين ، وأن أبا حنيفة وأبا يوسف ومحمدا لم يكونوا شعراء ، وأن سيبويه لم يكن متكلما ، وأن أبا الهذيل لم يكن متطببا وأن الشافعي لم يكن متفلسفا ، نعلــم أن النبــي – صلي الله عليه وآله – لم يكن منجما .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون النبي – صلي الله عليه – كان يري ذلك فــي المنام ، وكان قد عرف من نفسه أنه صحيح الرؤيا ، فكان يخبر بما يري تعــويلا علي ما عرف من نفسه .

قيل له : أن المعتاد من أمر الرؤيا ، وصحتها معلوم أنه إلي أي حد يكون ، وان كان صحيح الرؤيا قد تعرض له أضغاث الأحلام ، والتعبير أيضا قد يقع فيه الخطأ كما يقع الصواب ، ولا يستمر الأمر فيه هذا الاستمرار ، وهو يوجب غالب الظن دون العلم المقطوع به ، فإذا كان الله عز وجل خص نبينا – صلي الله عليه وآله – من الرؤيا بما أبانه من سائر الخلق ، وبما هو ناقض للعادة فهو أيضا معجز دال علي صحة نبوته .

فإن سألوا عن الفرق بينه – صلي الله عليه وآله – وبين الكاهن ، والذي ينظر في الكف .

فالجواب عنه : أن الكهان لا يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور علي الاستمرار علي وجه يكون صدقا ، وهذا معروف من أحوالهم ، لأنهم يقولون بأمور تعرض لهم ، وبأمارات تظهر لهم ، وأن أصاب الواحد منهم ففي شئ علي سبيل الاتفاق ، ويخطئون في أشياء يظهر فيها كذبهم . وكذلك من ينظر في الكف . أنما يخبر عن جمل الأحوال ، ولهم كلام في ذكر الأمارات الدالة علي الأمور . والأوراق المصنفة لهم في ذلك يذكرون حال العظم ، وما يظهر فيه من النقط والتخطيط، ومواضع ذلك من العظم الذي هو الكف وليس يمكنهم الخبر عن تفاصيل الأمور ، وأكثر ما يحكي من ذلك حكايات يغلب علي الظن أنها كذب ، وأن صح شئ من ذلك فعلي سبيل الاتفاق علي أنه يجوز أن تكون الأمارات مما يظهرها الله عز وجل علي مجري العادة لكل ناظر ، هذا أن صح ما يدعي من ذلك . وليس الإخبار عن الغيوب التي يتضمنها القرآن مشابها لشئ من ذلك ، فبان وصح أنه وارد من عند علام الغيوب .

فإن قيل : ما أنكرتم علي من قال لكم : يجوز أن يكون النبي – صلي الله عليه وآله – ظفر ببعض أحوال الأنبياء المتقدمين – صلي الله عليهم – عن تلك الغيوب ، فادعاه لنفسه .

قيل له : لا يخلو وقوع ما سألتم عنه إليه – صلي الله عليه –أن كان علي ما ذكرتم – ومعاذ الله من ذلك – أن يكون علي طريق التواتر أو علي طريق الآحاد ، ولا يجوز أن يكون علي سبيل التواتر ، لأن ذلك يوجب كون تلك الأخبار ظاهرة في زمانين بين أهل الكتاب ، والمعلوم خلاف ذلك ، ولا يجوز أن يكون وقوعه علي طريق الآحاد ، لأن ذلك مما لا تسكن النفس إليه ، ولا يجوز أن يعتمده العاقل في بناء الأمر عليه – علي ما بيناه في نظائره فيما تقدم من كلامنا في هذا الكتاب .

فإن قيل : ما أنكرتم أن يكون النبي – صلي الله عليه وآله – سمع تلك الأخبار ممن شاهده ورآه ، واتفق صدقه بما شاهده من معجزاته فأظهرها ، وادعي أنه عرفها بالوحي .

قيل له : لو كان ذلك كذلك لوجب علي الله عز وجل المنع منه ، بأن يحول بينه وبين سماعها ، وبينه وبين إظهارها ، أو بأن يظهر تلك الأخبار لغيره علي وجه لا يمكن التمويه ، لأن ذلك لو كان علي ما قلتم لكان شبهة لا يمكن حلها ، وكل شبهة لا يمكن حلها يجب علي الله عز وجل المنع منها ، علي أن هذا السؤال لا بد من أن يتضمن الإقرار بالنبوات والمعجزات . ويمكن أن يسأل في كل معجز بم يجري هذا المجري ؟ بأن يقال : يجوز أن يكون عيسي – صلي الله عليه – ظفر ببعض الخواص التي يحيي بها الموتى ، ويبرئ الأكمة والأبرص ، وأن يكون موسي – صلي الله عليه – ظفر ببعض منها يقلب بها العصا حية ، ويفلق البحر ، وليس الجواب عن ذلك إلا ما قلناه من أن ذلك – لو كان – شبهة لا يمكن حلها ، ويجب علي القديم تعالي المنع منها ، فكذلك جواب هذا السؤال ، إذا سألنا عنه ، وهذا الكلام أيضا مما تقدم بيانه في كتابنا هذا .

الباب الثاني

ذكر جملة من المعجزات التي وردت بها الأحاديث

من المشهور الظاهر ، ما روي عن النبي – صلي الله عليه وعلي آله وسلم – أنه قال لعمار(٤٠٨) " تقتلك الفئة الباغية "(٤٠٩) وهذا جري مخبره بعد نحو من ثلاثين سنة علي ما أخبر به – صلي الله عليه – وهذا الحديث معلوم صحته ، لا إشكال فيه ولا لبس عند أهل النقل ، وذلك لما اشتهر من تفاوض أصحاب معاوية(٤١٠) فيه ، واضطراب معاوية في تأويله ، فمرة يقول : أنحن قتلناه ؟ إنما قتله من جاء به يعني عليا – عليه السلام – حتى قال علي – عليه السلام – حين بلغه ذلك : فعلي هذا يجب بأن يكون النبي صلي الله عليه وآله – قتل حمزة بن

---

٤٠٨ – هو أبو اليقظان عمار بن ياسر بن عامر الكناني العنسي المذحجي حليف بني مخزوم ، ولد في مكة سنة ٥٧ ق . هـ ، وكان عمار وأبوه وأمه من السابقين للإسلام فعُذبوا في سبيل الله ، هاجر الهجرتين وشهد جميع المشاهد مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وشهد مع علي وقعتي الجمل وصفّين فقتله جماعة معاوية يوم صفين في ربيع الآخر سنة ٣٧ هـ وقد زاد عمره على التسعين (الإصابة ٢ : ٥١٢ ، القاموس الإسلامي ٥ : ٤٩٥).

٤٠٩ – أنظر فتح الباري ١ : ٥٤١ كتاب الصلاة ، حديث ٤٤٧ ، ومسلم في كتاب الفتن .

٤١٠ – معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (ت ٦٨٠): مؤسس الدولة الأموية. أول خليفة أموي (٦٦١-٦٨٠). أحد دهاة العرب الأربعة: عمرو بن العاص، المغيرة بن شعبة وزياد بن أبيه ومعاوية. أسلم يوم فتح مكة. اشترك مع أخيه يزيد الذي كان والياً على الشام. خلفه معاوية زمن عمر بن الخطاب، وأقره عثمان بن عفان في منصبه. أظهر كفاءة إدارية، واستمال إليه أهل ولايته. خرج على علي بن أبي طالب، وحاربه في موقعة صفين ٦٥٧، التي انتهت إلى اتفاق الطرفين على التحكيم، مما أضعف موقف علي. فلما فشل التحكيم استأنفا القتال، واستولى معاوية على مصر، وأغار على العراق. في ٦٥٩ اتخذ لنفسه لقب خليفة في بيت المقدس، وأخذ لنفسه البيعة من أهل الشام. أعد علي حملة كبيرة ضده، لكنه اغتيل قبل ذلك. تنازل له الحسن بن علي عن الخلافة، فاصبح أول خليفة أموي ٦٦١. اتخذ دمشق عاصمة له. ونجح في توحيد البلاد، بفضل حنكته السياسية، فقد تفادى المنازعات القبلية وصاهر قبيلة كلب العربية الجنوبية. ينسب إليه إنشاء ديوان البريد، وديوان الخاتم، واتخاذ مقصورة في الجامع. توسعت الدولة الإسلامية في عهده شرقاً حتى بلاد ما وراء النهر، وغرباً في شمال أفريقيا. حارب الروم، وأغار عليهم باستمرار براً وبحراً في حملات الصوائف التي كانت تجري كل صيف، والشواتي التي كانت تجري كل شتاء. حاول فتح القسطنطينية، لكنه فشل أمام أسوارها المنيعة. استخلف ابنه يزيداً قبل موته، فكان أول من حول الخلافة الإسلامية إلى وراثية [البداية والنهاية (وفيات سنة ٦٠ هـ) ؛ ومناهج السنة ٢/٢٠١ ــ ٢٢٦ ؛ وابن الأثير ٢/٤ ؛ والإصابة ٣/٤٣٣]

عبد المطلب[٤١١] حين حمله إلي أحد ، ومرة يقول : نحن البغاة ، لأنا نبغي دم عثمان.

فلولا أن الحديث كان مشهورا ، فيما بينهم ، قد عرفوه ضرورة بالشهرة والاستفاضة ، وبكثرة من سمعه من النبي – صلي الله عليه وآله – لأنكره معاوية ، ولم يشتغل بتلك التأويلات البعيدة .

وقد روي أهل النقل أن ذا الكلاع[٤١٢] كان يفاوض معاوية – في هذا الحديث ويضطرب في قتل عمار ، فكان معاوية يلبس عليه ويقول له : ما يقتل عمارا غير أهل العراق ، فانا نقلته عن رأيه ونستدعيه إلينا ، وسيقتل في جملة عسكرنا إلي أن قتل ذو الكلاع في جملة أصحاب معاوية وعمار رضي الله عنه في جملة أصحاب علي – صلوات الله عليه – في يوم واحد ، فكان معاوية – يقول : إنا بقتل ذي الكلاع ، أسر مني بقتل عمار فانه لو بقي بعد عمار أفسد علي عسكري ، فكل ذلك يدل علي أن الحديث كان معلوما عندهم .

وأيضاً : أن الزبير[٤١٣] اضطرب يوم الجمل حين بلغه أن عمارا – رضي الله عنه – في عسكر علي – عليه السلام – وجعل يروح عن نفسه بمنعه من بلغه

---

٤١١ – حمزة بن عبد المطلب (أبو عمارة)، عم النبي –صلى الله عليه وسلم– وأخوه من الرضاعة فهما من جيل واحد نشأ معا، ولعبا معا، وتآخيا معا كان يتمتع بقوة الجسم، وبرجاحة العقل، وقوة الإرادة، فأخذ يفسح لنفسه بين زعماء مكة وسادات قريش، وعندما بدأت الدعوة لدين الله كان يبهره ثبات ابن أخيه، وتفانيه في سبيل إيمانه ودعوته، فطوى صدره على أمر ظهر في اليوم الموعود... يوم إسلامه.

٤١٢ – اسمه أيفع بن ناكور من اليمن أظنه من حمير يقال إنه ابن عم كعب الأحبار يكنى أبا شرحبيل.

٤١٣ – الزبير بن العوام (؟ ــ ٣٦ هــ) هو الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد ، أبو عبد الله ،القرشي الأسدي . ابن عمه النبي صلي الله علية وسلم . أمه صفية بنت عبد المطلب بن هاشم . حوراي رسول الله صلي الله علية وسلم . هو أحد العشرة المبشرين بالجنة وأحد الستة أصحاب الشوري بعد عمر رضي الله عنه . أسلم وله اثنتا عشرة سنة ، وقيل ثمانية سنين . هاجر الهجرتين . وهو أول من سل سيفاً في سبيل الله . شهد بدراً ولم يتخلف عن غزوة غزاها رسول الله

التصديق إلي أن أخرج عينا له ، فرجع وعرفه أنه في جملتهم ، فقال الزبير : وأقطع ظهراه ، وأجدع أنفاه ،ووقع عليه الأفكل ، حتى قعقع ما عليه من السلاح ، وذلك ما عرف من قول النبي – صلي الله عليه ،وعلي آله : " تقتله الفئة الباغية "

ومن الخبر المشهور : الذي لا يرتاب فيه أهل النقل ، وهو معلوم بينهم : ما كان من النبي –صلي الله عليه وآله – من إنذار عائشة ، وتعريفه إياها : أن كلاب الحوأب تنبحها في مسراها ، وأنها لما بلغت الحوأب ونبحتها كلابها ، سألت الجمال عن ذلك الموضع فعرفها أنه الحوأب ، فأمرت أن يناخ بعيرها ، وفزعت واضطربت حتى جاء بها أصحابها ، وحلف علي ما في الخبر نحوا من ثلاثين رجلا أن ذلك الموضع ليس بحوأب ، واشتهرت القصة فيه حتى ذكر كلاب الحوأب ، أهل اللغة في كتبهم ، وقال الخليل في كتاب (العين) (٤١٤) : " الحوأب موضع حيث نبحت الكلاب عائشة " وقال ثعلب في كتاب " الفصيح "(٤١٥) : " وهي كلاب الحوأب مهموز يعني الحواب " وقد ذكر أيضا القتيبي في (أدب الكتاب) ولشهرة هذه القصة لا يكاد يذكر الحوأب إلا ويذكر الكلاب التي نبحت عائشة .

ومن الخبر المشهور قوله: – صلي الله عليه وآله – لعلي : " أنك تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين " يعني بالناكثين : أصحاب الجمل والقاسطين

صلي الله علية وسلم روى عنه ابناه عبد الله وعروة ، وروى عنه أيضاً الأحنف بن قيس ومالك بن أوس وغيرهم . قتل يوم الجمل ودفن بناحية البصرة . [الإصابة في تميز الصحابة ٥٤٥/١؛ وتهذيب التهذيب ٣١٨/٣] .

٤١٤ – معجم "العين" للخليل بن أحمد الفراهيدي هو أول معجم عربي يؤلف في اللغة العربية، و جاء حافلاً بالمعلومات الصوتية والصرفية والنحوية والتأصيلية: أصالة ودخيلاً ومعرباً، واللهجات واللغات والسماع والقياس والفروقات اللغوية بين المدن والأمصار والأقطار... إلى جانب ثروته الاستشهادية نثراً وشعراً، حديثاً وقرآناً، أمثالاً وحكماً ويتميز هذا المعجم بطريقة بنائه على مخارج الحروف. وقد شكلت هذه الطريقة صعوبة أمام استعمال هذا المعجم وبخاصة في العصور الحديثة، وحالت دون الإفادة منه إفادة عامة.

٤١٥ – كتاب الفَصيح فِى اللُّغَةِ لأبى العباس أحمد بن يحيى المعروف باسم ثعلب المتوفى سنة ٢٩١هجرية.

أهل الشام ، والمارقين : أهل النهروان ، فكان كل ذلك علي ما أخبر صلي الله عليه وآله .

ومن المشهور قوله – صلي الله عليه – لعلي : " أشقي الأولين عاقر الناقة ، وأشقي الآخرين قاتلك ، يخضب هذه من هذه " وأشار صلي الله عليه – إلي لحيته ورأسه ، فكان ذلك علي ما أخبر به صلي الله عليه .

ومن المشهور المستفيض : حديث ذي الثدية ، وهو أن عليا – عليه السلام – لما قتل أهل النهروان قال : أطلبوا ذا الثدية ، فطلب ، فلم يوجد ، فقال علي – عليه السلام ، : والله ما كذبت ، ولا كذبت ، فاطلبوا " وما زالوا يطلبونه حتى وجدوه ، فإذا هو رجل محدج اليد إذا مددتها امتدت ، وإذا أرسلتها انقبضت ، في رأسها حلمة كحلمة ثدي المرأة ، فسر أمير المؤمنين – عليه السلام – وسر الناس ، ولا يجوز أن يكون علي – عليه السلام – عرفه إلا بخبر رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله .

علي أن في أكثر الأخبار أن عليا – عليه السلام – قال : أن رسول الله صلي الله عليه – أخبرني أن فيهم رجلا يده كهيئة الثدي " .

ومن المشهور المستفيض الذي لا يرتاب فيه أهل النقل ، وأصحاب السير والتواريخ ولاشتهارها ، يعرفها كثير من العامة : **قصة كسرى** ، وهو أن رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – كتب إليه كتابا يدعوه إلي شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، فلما ورد عليه الكتاب مزقه ، فلما بلغ رسول الله – صلي الله عليه – الخبر ، قال : " **مزق ملكه** " فكان كما قال صلي الله عليه وسلم ، ثم غضب كسري ، وكتب إلي صاحبه : باذان(٤١٦) ، وكان علي اليمن ، يأمره بأشخاص رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله ، فبعث (باذان) رسولين إليه – صلي الله عليه وآله ، يعرفانه بالصورة ، ويقولان له : أجب شاهنشاه الملوك :

---

٤١٦ – نائب كسرى على اليمن.

كسري ، فإنك إن فعلت ذلك كتب لك الملك باذان إليه ، ليحسن إليك ، وإن أبيت فهو من تعلم ، يعنيان كسري ، يهلك ويهلك قومك ، ويخرب ديارك ، فقال لهما رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله : " انصرفا وعودا إلي غدا " فأتاه – صلي الله عليه – الوحي بأن كسري وثب عليه ابنه : شيرويه(٤١٧) ، وقتله في ساعة كذا ، من ليلة كذا ، من شهر كذا ، فلما دخلا عليه – صلي الله عليه – عرفهما ما نزل الوحي به من وثوب شيرويه علي أبيه كسري ، وقتله له ، فاستعظما ذلك وعادا إلي باذان ، فقصا عليه القصص ، فقال باذان : ما هذا كلام ملك ، بل هو كلام نبي مرسل ، لكنا ننتظر ، فان ورد الخبر بما قال فهو نبي مرسل ، لا شك فيه ، وان يكن غير ذلك نري فيه رأينا ، فورد عليه كتاب شيرويه بذلك فأسلم باذان ، ومن معه من الفرس .

ولست أقول : أن هذا التفصيل مشهور عند كثير من العامة والخاصة ، وإنما أقول : أن قدر المعجز منه مشهور ، وهو ورود الرسل علي رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله ، بالتهديد ، وتعريفه – صلي الله عليه وعلي آله ، إياهم ، أن كسري قد قتل .

ومن ذلك **قصة العباس** بن عبد المطلب حين أسر يوم بدر ، فلما جاء إلي المدينة قال له – صلي الله عليه : " أفد نفسك ، وابني أخويك عقيل بن أبي طالب(٤١٨) ، ونوفل بن الحارث "(٤١٩) قال : ليس لي مال . قال : " فأين المال الذي وضعته بمكة، حين خرجت أم الفضل(٤٢٠) ، ليس معكما أحد ، ثم قلت لها :

---

٤١٧ – شيرويه بن أبرويز بن هرمز بن أنوشروان،.

٤١٨ – **عقيل بن أبي طالب**، أخو علي و جعفر و طالب بن أبي طالب. كان أكبر من جعفر بعشر سنين، وجعفر أكبر من علي بعشر سنين، كما أن طالب أكبر من عقيل بعشر، وكلهم أسلم إلا طالباً، أسلم عقيل قبل الحديبية وشهد مؤتة .

٤١٩ – نوفل بن الحارث بن عبد المطلب القرشي الهاشمي،.

٤٢٠ – لبابة بنت الحارث ، هي زوج العباس بن عبد المطلب ، عم النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم أولاده الرجال الستة النجباء الذين لم تلد امرأة مثلهم وهم : الفضل ، وعبد الله ، وعبيد الله ، ومعبد ، وقثم ، وعبد الرحمن.

إن أصبت في سفري هذا ، فللفضل كذا ، ولعبد الله كذا ، ولقثم كـذا ، ولعبيـد الله كذا " فقال العباس : والذي بعثك بالحق ما علم هذا غيري وغيرها ، وأني لأعلـم أنك رسول الله – صلي الله عليك – ففدي العباس نفسه ، وأبني أخويـه ، وهـذه قصة مشهورة ظاهرة عند أهل النقل .

ومن ذ لك **قصة عمير بن وهب الجمحي**(٤٢١) في سبب إسلامه ، وهي أنـه وصفوان بن أمية الجمحي(٤٢٢) قعدا في الحجر يتذاكران قتلي بدر ، ويتوجعان لهم ، ويقول صفوان : لا خير في العيش بعدهم ، فقال عمير : لولا دين علي ، ومـا أخشي من ضيعة عيالي بعدي . كتبت إلي محمد بعلة أسير لي في أيديهم ، وقتلته ، فقال له صفوان : فعلي دينك . وعيالك أسوة بعيالي ، فتكاتمـا ذلـك ، وخـرج عمير حتى قدم المدينة ، ودخل علي رسول الله – صلي الله عليه وعلـي آلـه – متوشحا بسيفه ، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه في عنقـه فلبـسه ، فلمـا رآه رسول الله – صلي الله عليه – قال : أرسله يا عمر ، ادن يا عمير ، ما حاجتك ؟ قال : جئت للأسير الذي في أيديكم ، فقال – صـلي الله عليـه وعلـي آلـه – " أصدقني ما الذي جئت له ؟ " قال : ما جئت إلا لذلك ، فقال له صـلي الله عليـه وعلي آله : " بل قعدت أنت وصفوان في الحجر " وقص عليه ما كان جري منهما . وقال له : " جئت لتقتلني والله حائل بيني وبينك " فقال عمير : أشهد أنك رسول الله . هذا أمر ما حضره غيره وغير صفوان وما أخبرك به إلا الله عـز وجـل ، فأسلم ، وشهد شهادة الحق ، وحسن إسلامه .

ومن المشهور : أن ناقة ضلت لرسول الله – صلي الله عليه وعلي آلـه – في بعض غزواته ، فطلبوها ، فلم يجدوا ، فتكلم أهل النفاق ، وقالوا أنـه يخبرنـا

---

٤٢١ – هو الصحابي عمير بن وهب الجمحي لقب بشيطان الجاهلية في الجاهلية وكـان أهـل مكـة يلقبونـه بشيطان قريش لصدق حدسه وشدة بأسه ولما أسلم أصبح يلقب بحواريّ الإسلام.

٤٢٢ – صفوان بن أميّة بن خلف بن وهب الجمحي القرشي، أسلم بعد فتح مكة قُتِلَ أبوه يوم بدر كافراً، وكـان من كبراء قريش، وكان صفوان أحد العشرة الذين انتهى إليهم شرَفُ الجاهلية، ووصله لهم الإسلام من عـشر بطون، شهد اليرموك وكان أميراً على كُرْدُوس من الجيش.

أخبار السماء ، ولا يدري أين ناقته ؟ فأتاه – صلي الله عليه – الوحي بموضعها وحالها ، فقال للناس : أني لا أعلم إلا ما علمني الله ، وأن الناقة في موضع بعينه ، ذكره – قد تعلق زمامها بشجرة بعينها فمضوا وطلبوا فوجدوها كما أخبر به صلي الله عليه وعلي آله .

ومنها أن رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – أخذ حفنة من الحصا ، فاستقبل بها قريشا ، ثم قال : " شاهت الوجوه ، ثم نفحهم بها " فكانت الهزيمة ، فأنزل الله عز وجل في ذلك : " **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى** ﴾ (٤٢٣) ولا يجوز أن يخاطب الله عز وجل في كتابه – صلي الله عليه – إلا وذلك الرمي مشهور حاله عندهم ، لأن أحواله – صلي الله عليه وعلي آله – في تلك الحملة كانت معلومة لأصحابه ظاهرة فيهم لا خفاء به عندهم .

ومن ذلك نعيه النجاشي(٤٢٤) وهو – صلي الله عليه – بالمدينة وصلاته عليه ، ثم ورد الخبر بموته في اليوم الذي كان نعاه ، ولشهرته جعل كثير من الفقهاء تكبيره – صلي الله عليه وعلي آله – أصلا في الصلاة علي الجنائز .

ومن ذلك حديث المسري : فان رسول الله – صلي الله عليه – لما أسري به إلي بيت المقدس ، وعاد إلي مكة في ليلة واحدة حدث أصحابه بما شاهد في طريقه ، فسئل عن عير كانت لقريش في الطريق ، فقال " لقيتها بمكان كذا ، ومررت عليها ، ففزع فلان " فقيل له : يا فلان ما رأيت ؟ فقال : ما رأيت شيئا ، إلا أن الإبل نفرت ، وقالوا له :أخبرنا متي تأتينا ؟ قال : " تأتيكم يوم كذا وكذا يقدمهم جمل أورقه عليه غرارتان ، أحداهما سوداء ، والأخرى ، بيضاء " قالو : أي ساعة ؟ قال : " ما أدري أطلوع الشمس من هاهنا أسرع ،أو طلوع العير من

---

٤٢٣ – الأنفال : ١٧

٤٢٤ – النجاشي : كلمة حبشية تُستخدم لقباً للملك ، مثل كسرى وقيصر ، تعني العطية (سيرة ابن هشام (١ / ٢٣١) ، أنساب الأشراف (١٨٨) ، لسان العرب (مادة نجش)

هاهنا ؟ قال : فلما كان ذلك اليوم بعثوا رجلا من هاهنا ، ورجلا من هاهنا. فقال رجل : هذه الشمس قد طلعت ، وقال الآخر : هذه عيركم قد طلعت . وقال أيضا – صلي الله عليه – " مررت بالعير فوجدت أربابها نياما ، ولهم أناء فيه ماء ، وقد غطوا عليه فكشفت غطاءه وشربت ما فيه ، ثم رددت الغطاء كما كان " وان القوم لما وردوا سئلوا عن الإناء وحاله ، فكان الأمر علي ما قال – صلي الله عليه وآله – وفي الحديث :" أن المشركين لما سمعوا ذلك أنكروه ، وحكوا ذلك لأبي بكر فقال " أن كان قال ذلك ، فقد صدق " فسمي " صديقا " وقال له المشركون ، " صف لنا بيت المقدس ،فوصفه – صلي الله عليه وآله – لهم . وقال : جعل المسجد بحذائي ، حتى وصفته " وهذه قصة مشهورة ، ولشهرتها ذكرها اله عز وجل في كتابه .

ومن ذلك . حديث الشاة المسمومة ([٤٢٥]) التي قدمتها امرأة يهودية إلي رسول الله– صلي الله عليه وعلي آله – وهو بخيبر ، فلما أكل منها لقمة أو لقمتين ، وأكل منها من هناك من أصحابه ، قال : " إنها تخبرني أنها مسمومة" وقال لها : " لم فعلت ذلك ؟ " قالت : " أردت إن كنت كاذبا أن يستريح الناس منك وان كنت نبيا لم يضرك" وهذه قصة مشهورة حتى تكلم المتكلمون في كيفية خبر الشاة ، وان ذلك يكون كلامها ، أو كلاما يخلقه الله تعالي فيها ، ومن يكون متكلما به ؟

وروي عن النبي صلي الله عليه – أنه قال عند وفاته " ما زالت أكلة خيبر تعاودني ، فالآن قطع أبهري " وكل ذلك يبين اشتهارته واستفاضته .

---

[٤٢٥] – عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال : " أهدت امرأة يهودية إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – شاة سميطا ، فلما مد يده إليها ليأكل قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إن عضواً من أعضائها يخبرني أنها مسمومة ، فامتنع رسول الله وامتنع من معه ، فأرسل إلى اليهودية ، فقال : ما حملك على أن أفسدتها بعد أن أصلحتها ؟ قالت : أردت أن أعلم إن كنت نبياً فإنك ستعلم ذلك ، وإن كنت غير نبي أرحت الناس منك " (رواه البزار ، ورجاله رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٨ / ٢٩٥).

ومن ذلك حديث الاستسقاء ([٤٢٦])، وهو أن رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – شكي إليه الجدب وهلاك المواشي ، لانقطاع الأمطار فرفع رسول الله – صلي الله عليه – يده إلى السماء ، صلي الله عليه ، يده إلي نحره وصدره ، حتى ابتدائت السحائب ، ترتفع وتجتمع وأرخت عزاليها ، ثم جاءوا إلي رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – يقولون : الغرق ، الغرق . تهدمت البيوت ، فقال صلي الله عليه : " حوالينا ولا علينا " اللهم علي الظهران والجبال ، وبطون الأودية " فانجاب السحاب عن المدينة ، وصار حولها كالإكليل ، ومطروا بعد ذلك مدة طويلة ، وقد اختلفوا في مقدار تلك المدة ، فقال – صلي الله عليه : " لله در أبي طالب ، لو كان حيا لقرت عيناه ، من ينشدنا قوله ؟ " فقام علي– عليه السلام – فقال يا رسول الله . كأنك أردت :

وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى ، عصمة للأرامل ؟

إلي آخر الأبيات ، وهذه قصة مشهورة حتي صار قوله – صلي الله عليه : " حوالينا لا علينا " مثلا يضرب لاشتهاره .

---

[٤٢٦] – روى البخاري ومسلم في صحيحيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : أصابت الناس سنة (أي قحط) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يخطب على المنبر يوم الجمعة قام أعرابي فقال : يا رسول الله هلك المال وجاع العيال فادع الله لنا أن يسقينا ، قال : فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وما في السماء من قزعة (أي قطعة رقيقة من السحاب) قال : فثار السحاب أمثال الجبال ثم لم ينزل عن منبره حتى رأيت المطر يتحادر على لحيته ، قال : فمطرنا يومنا ذلك ومن الغد ومن بعد الغد والذي يليه إلى الجمعة الأخرى ، فقام ذلك الأعرابي أو رجل غيره فقال : يا رسول الله تهدم البناء وغرق المال فادع الله لنا ، فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه وقال : "اللهم حوالينا ولا علينا" قال : فما جعل يشير بيده إلى ناحية من السماء إلا تفرجت حتى صارت المدينة في مثل الجوبة (أي الفرجة المستديرة الواسعة والسحاب محيطاً بأفاق المدينة) حتى سال الوادي وادي قناة شهراً قال : فلم يجيء أحد من ناحية إلا حدث بالجود. (الفتح ١٧٣/٣ ، ومسلم ١٩٤/٦) .

ومن المشهور : أنه صلي الله عليه لما احتاج أصحابه إلي الماء وضع يده في الإناء فانفجر الماء من بين أصابعه حتى توضئوا وشربوا ، وقد ذكر في مواضع عدة . وفي أوقات مختلفة . ([427])

ومن المشهور ، حنين الجذع ، ([428]) وذلك أن رسول الله – صلي الله عليه – كان أذا خطب في المسجد خطب إلي جذع فيه ، فلما عمل له المنبر ، وقام عليه حن الجذع حنين الناقة ، فأتاه رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – فاحتضنه ومسحه بيده ، حتي سكن .

ومن ذلك ما كان من رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – حين نزل بالحديبية ، فقيل له : ليس بالوادي ما ينزل عليه الناس . فأخرج سهما من كنانته ، فأعطاه رجلا من أصحابه ، فنزل في قليب هناك ، ففرزه فيه ، فجاش الماء حتي أخذ الناس حاجتهم ، وصدروا عنه .

وروي أن رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – بصف فيها ولشهرة ذلك بصق مسيلمة الكذاب في بئر فيه وشل . فغار ماؤها ، وجف قرارها .

---

[427] – عن البراء بن عازب رضي الله عنه قال : كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في مسيرة ، فأتينا على ركية دمنة ، (أي قليلة الماء) قال : فنزل فيها ستة أنا سادسهم ، قال : فأدليت إلينا دلو ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم على شفة الركى ، قال : فجعلنا فيها نصفها أو قريب ثلثيها ، فرفعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال البراء : فجئت بإنائي هل أجد شيئاً أجعله في حلقي فما وجدت ، فرفعت الدلو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فغمس يده فيها فقال : ما شاء الله أن يقول ، فأعيدت إلينا الدلو بما فيها ، قال : فقد رأيت آخرنا أخرج بقوة خشية الغرق ، قال : ثم ساحت . (رواه أحمد والطبراني ورجالهما رجال الصحيح ، مجمع الزوائد ٣١١/٨ ، وهو في الصحيح باختصار).

[428] – عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن امرأة من الأنصار قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ألا أجعل لك شيئاً تقعد عليه ؟ فإن لي غلاماً نجاراً ، قال : "إن شئت" فعملت له المنبر ، فلما كان يوم الجمعة قعد النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر الذي صنع فصاحت النخلة التي كان يخطب عندها حتى كادت أن تنشق فنزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى أخذها فضمها إليه فجعلت تئن أنين الصبي الذي يسكت حتى استقرت ، قال : "بكت على ما كانت تسمع من الذكر". (رواه البخاري).

ومن المشهور تعريفه – صلي الله عليه – أويس القرني ،([429]) وأنه به برص ، دعا له الله فبرئ منه إلا قدر الدرهم([430]) إلي غير ذلك من أحواله ، حتي ذكره عمر ، وسأل عنه وطلبه حتي ظفر به .

ومن ذلك أن الطعام أعوز أصحابه – صلي الله عليه وعلي آله – في غزوة تبوك([431]) ، وضاق عليهم فشكوا ذلك إلي رسول الله – صلي الله عليه – فقال :" من كان عنده فضل طعام فليأتنا به ، فأتي بنيف وعشرين صاعا ، فجلس رسول الله – صلي الله عليه – ودعا بالبركة ، ثم دعا الناس ، فقال : خذوا فاخذوا حتي اكتفوا وصدروا ، وفضلت فضلة ، وهذه الآية – أعني تكثير القليل من الطعام ، وإشباع الكثير منه – قد تكررت في مواضع([432]) واشتهر منها بمكة في أول البعثة لما نزل قوله عز وجل : " وأنذرك عشيرتك الأقربين " دعا صلي الله عليه رهطا من عشيرته ، فقدم إليهم يسيرا من الطعام ، فأكلوا منه وشبعوا .

---

٤٢٩ – روى مسلم في صحيحه عن أسير بن جابر قال : كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن (هم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو) سألهم : أفيكم أويس بن عامر ؟ حتى أتى على أويس فقال : أنت أويس بن عامر ؟ قال : نعم ، قال : من مراد ثم من قرن ؟ قال : نعم ، قال : فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم ؟ قال : نعم ، قال : هل لك والدة ؟ قال : نعم ، قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : "يأتي عليكم أويس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد ثم من قرن كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم ، له والدة هو بها أبر لو أقسم على الله لأبره ، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعل" فاستغفر لي ، فاستغفر له. (مسلم ١٦/٩٥).

٤٣٠ – الدرهم : فارسي معرب والجمع دراهم وهو ستون عشيرا (المروج ٢ / ٣٤٢)

٤٣١ – في رجب سنة تسع من الهجرة ، و(تبوك) موضع بين وادي القرى من أرض الحجاز وبين الشام و. وفي غزوة تبوك أنظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٨/ ١١٠، والبداية والنهاية أول الجزء الخامس و تبوك : موضع بين وادي القرى من أرض الحجاز وبين الشام أنظر: (معجم البلدان : ج٢ ، ص ١٤ ، وفتح الباري شرح صحيح البخاري في كتاب المغازي ٨/ ١١٠)

٤٣٢ – ومن ذلك أيضاً نبع الماء من بين أصابع النبي – صلى الله عليه وسلم – في مواطن متعددة ، فعن أنس بن مالك – رضي الله عنه – أنه قال : "رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وحانت صلاة العصر ، فالتمس الناس الوضوء فلم يجدوه ، فأتى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بوضوء ، فوضع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في ذلك الإناء يده ، وأمر الناس أن يتوضئوا منه ، قال : فرأيت الماء ينبع من بين أصابعه – صلى الله عليه وسلم – فتوضأ الناس حتى توضئوا من عند آخرهم" (أنظر فتح الباري ٦ : ٥٨٠)

ومنها خبر دعائه صلي الله عليه جابرا إلي الطعام ، وكان أعد له يسيرا – فدعا – صلي الله عليه وعلي آله – عددا كثيرا من أصحابه حتي أكلـوا وشـبعوا. (٤٣٣)

ومنها، حديث عبد الرحمن بن أبي بكر(٤٣٤) ، قال : كنا مـع رسـول الله – صلي الله عليه – ثلاثين ومائة فقال – صلي الله عليه وعلي أهله : " هل مع أحـد منكم طعام ؟ " فإذا مع رجل صاع واحد ، فأطعم الجميع منه إلي أن شبعوا وفضل

ومن ذلك حديث جابر(٤٣٥) أن رسول الله – صلي الله عليه – أعطي رجـلا وسق شعير ، فما زال الرجل يأكل منه وامرأته ،حتي كالوه ، فقال لهم صـلي الله عليه : " لو لم تكيلوه لأكلتم منه ، وأقام لكم " وغير ذلك فيما يكثر عدده .

ومن المستفيض ، أن جابر بن عبد الله الأنصاري أتي محمدا ابن علي بـن الحسين – عليهم السلام – وهو في الكتاب فقبله ، وقـال لـه : أن رسـول الله – صلي الله عليه وعلي آله – أمرني أن أقرئك السلام .

ومن ذلك أنه صلي الله عليه نعي جعفر بن أبي طالب ، وهو علي بعد منه.

---

٤٣٣ – عن جابر – رضي الله عنه – : أن رجلاً أتى النبي – صلى الله عليه وسلم – يـستطعمه ، فاسـتطعمه شطر وسق شعير . فما زال يأكل منه وامرأته وضيفه حتى كاله ، فأتى النبـي – صـلى الله عليـه وسـلم – فأخبره ، فقال : لو لم تكله لأكلتم منه ولقام بكم . (أنظر صحيح مسلم : كتاب الفضائل).

وأيضاً حديث جابر – رضي الله عنه – أن النبي – صلى الله عليه وسلم– أطعم يـوم الخنـدق ألـف رجل من صاع من شعير وعناق . قال جابر – رضي الله عنه – : فأقسم بالله لأكلوا حتى تركـوه وانحرفـوا وإن برمتنا لتغط كما هي ، وإن عجيننا ليخبز ، وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بصق فـي العجـين والبرمة وبارك . (أنظر فتح الباري ٧ : ٣٩٥).

٤٣٤ – عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي قحافة –رضي الله عنه–، يكنى أبا عبد الله، وقيل أبا محمد، وأمـه أم رومان بنت الحارث، وهو شقيق أم المؤمنين عائشة.

٤٣٥ – جابر (١٦ ق هـ – ٧٨ هـ) هو جابر بن عبد الله بن عمـر بـن حـرام . أنـصاري ، سـلمي . صحابي ؛ شهد بيعة العقبة . وغزا مع النبي صلي الله عليه وسلم ، وكانت له في أواخر أيامه حلقة بالمـسجد النبوي ويؤخذ عنه فيها العلم . كف بصره قبل موته بالمدينة . رضي الله عنه .

[الاصابة (ط التجارية ٢١٤/١) ، والأعلام للزركلي ٩٢/٢]

الجامع ، نوح بن ابي مريم :ر : أبو عصمة .

ومن ذلك مجئ الشجرة فأنه تكرر في مواضع منها مكة والمدينة ، حتي أقبلت إليه تشق الأرض شقا ، ومرتين في الصحراء ، حين أراد قضاء الحاجة اجتمعت له – صلي الله عليه – شجرتان ، فاستتر بهما : وقضي الحاجة ، ثم افترقا وعـاد إلـي مكانهما ، ودعا – صلي الله عليه – غصنا من شجر فأتاه ، حتي رأي ذلـك مـن كان طلب الآية ، ثم عاد إلي مكانه .

ومن ذلك انشقاق القمر : وقد رواه عدة من أصحابه ، وان كان الأشـهر رواية عبد الله بن مسعود ، فقد قال : أني رأيته فلقتين ، وروي أنس : " أن أهـل مكة سألوا رسول الله – صلي الله عليه – آية " فأراهم انشقاق القمر ، وكان يحدث به في تفسير قوله عز وجل : " **وانشق القمر** " وعن عبد الله بن مسعود ، قـال : انشق القمر بمكة ، فقالت قريش : هذا سحر سحركم به ، فقال بعضهم : انظـروا إلي السفار ، فسألوهم فقالوا : قد رأينا القمر انشق " .

وروي ذلك عن حذيفة([٤٣٦]) وابن عباس وجبير بن مطعـم : ويـدل علـي صحته : أن النبي – صلي الله عليه – تلا عليهم قولـه عـز وجـل : " **اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ** ﴾ ([٤٣٧]) ولـو لم يكن ذلك ظاهرا بينهم لأنكروا ذلك ، وكذبوا قوله صلي الله عليه ولقـالوا ، لـم ينشق القمر، ولم يحوجوا إلي أن يقولوا : أنه سحر مستمر فوضح بذلك أنهم كانوا شاهدوا ذلك وعرفوه ولا وجه لتأويل من يتأوله علي أنه بمعني ينشق يوم القيامـة

---

٤٣٦ – حذيفة (؟ ـ ٣٦ هـ) هو حذيفة بن اليمان (واليمان لقبه واسمه : حسيل ويقال حسل) أبـو عبـد الله العبسي . من كبار الصحابة ،وصاحب سر رسول الله صلي الله علية وسلم . أسلم هو وأبـوه وأراد شـهود بدر فصدهما المشركون، وشهدا أحداً فاستشهد اليمان بها .شهد حذيفة الخندق وما بعدها ، كمـا شـهد فتـوح العراق ، وله بها آثار شهيرة . خيرة النبي صلي الله علية وسلم بين الهجـرة والنـصرة فاختـار النـصرة . استعمله عمر على المدائن فل م يزل حتى مات بعد بيعة علي بأربعين يوماً .

روى عن النبي صلي الله علية وسلم الكثير ، وعن عمر ، وروى عنه جابر وجنـدب وعبـد الله بـن يزيـد وآخرون . [تهذيب التهذيب ٢١٩/٢، والإصابة ٣١٧/١؛ وتهذيب تـاريخ ابـن عـساكر ٩٣/٤؛ والأعـلام للزركلي ١٨٠/٢].

٤٣٧ – القمر : ١–٢

لوجوه منها : أنهم لا يقولون في الآيات يوم القيامة إنها سحر ، لأنهم يعرفون تلك الأحوال ضرورة .(٤٣٨)

فإن قيل : لا نسلم لكم يوم القيامة ولا كون الآيات فيها ، فكيف نسلم أنهـا تعلم ضرورة ؟

قيل له : لسنا نحتاج إلي تسليمكم صحة ذلك لأن ذلك معلوم من دين النبـي – صلي الله عليه – وأديان سائر الأنبياء – صلوات الله علـيهم – ولا يجـوز أن يخبر النبي – صلي الله عليه – بخبر يعلم خلافه من دينه ضرورة .

ومنها : أنه ليس في القرآن . ولا في شئ من الأخبار الصحيحة أن القمـر ينشق يوم القيامة ، وأن في القرآن " وخسف القمر وجمع الشمس والقمر " ومنها : أن ظاهر الآية خبر عن الماضي فلو لم يكن ذلك معلوما عند الكفار لراجعوه فيـه حتي يعرفهم – صلي الله عليه – مراده ، ولما لم يجز ذلك ثبت صحة ما قلنـاه ، ولا وجه أيضا لتأويل من يتأول فيه فيقول : أن المراد به ضرب المثل لوضـوح الأمر ، كما يقال : هذا أمر قد طلع فجره ، وأشرقت شمسه . لأن ضرب المثـل بطلوع الفجر وإشراق الشمس يصح ؛ لأن طلوع الفجر وإشراق الشمس يزيـدان في الضوء ، ولو انشق القمر لم يجب أن يتزايد الضوء بل يكون ذلك إلى تناقصه أقرب ، فكيف يصح ضرب المثل به لوضوح الأمر ؟

ولا معني لقول من يقول : أن ذلك لو كان لم يخـف علـي أهـل الـشرق والغرب ، لأنه لا يمتنع أن يعلم ثقة : أن الأصلح إظهاره لقوم بعينهم دون سـائر الخلق ، فيخفيه علي سائر الخلق بالغمام ، في بعض المواضع ،وبالشغل أو النـوم لآخرين .

---

٤٣٨ – أنظر فتح الباري ٦ : ٦٣١ من كتاب المناقب ، صحيح مسلم كتاب صفة القيامة والجنة والنار.

ومن المشهور قوله – صلي الله عليه – لسراقة بن جعشم([٤٣٩]) ، وقد نظر إلي ذراعيه : " كأني بك ، وقد لبست سواري كسري " وكان سراقة أشعر الذراعين دقيقهما ، ولما كان ما كان في زمان عمر ابن الخطاب ، وفتحت خزائن كسري حمل المال ، فوضع في المسجد فرأي عمر منظرا لم ير مثله ، والذهب والياقوت والزبرجد واللؤلؤ يتلألأ . فقال : أين سراقة بن جعشم ؟ فأتي به فقال: البسهما ففعل . فقال : الله أكبر ، الحمد لله الذي سلبهما كسري ، وألبسهما سراقة بن جعشم ، فكان ذلك آية ظاهرة لرسول الله – صلي الله عليه .([٤٤٠])

ومن المشهور . ما روي عن أمير المؤمنين – عليه السلام – أنه قال : لما غسلت رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – ما أردت عضوا أغسله إلا قلب لي حتي أغسله ، ولقد رأيت يد غيري عليه ، وسمعت مناديا ينادي في جانب البيت : " لا تخلعوا القميص " ولقد رأيت أن أكبه فنوديت " ألا تكبه " .

وروي أنه لما توفي رسول الله – صلي الله عليه – جاءهم آت ، يسمعون حسه ، ولا يرون شخصه ، فقال : " السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته " كل نفس ذائقة الموت ، وإنما توفون أجوركم يوم القيامة " إن في الله عزاء من كل مصيبة ، وخلفا من كل هالك " .

---

٤٣٩ – هو أبو سفيان سراقة بن مالك بن جعشم الكناني المدلجي ، كان في الجاهلية قائفاً – أي يقتص الأثر – فلما خرج الرسول – صلى الله عليه وسلم – مهاجراً خرج سراقة يقتاف أثره طمعاً في المكافأة من المشركين ، فلما أدركه ساخت أقدام فرسه في الأرض أكثر من مرة ، فأعطاه الرسول – صلى الله عليه وسلم – الأمان ووعده بسواري كسرى ، فرجع يُعمّي الأخبار على المشركين ، وأسلم يوم فتح مكة سنة ٨ هـ ، ولما أتى عمر – رضي الله عنه – بغنائم فارس وبسواري كسرى بن هرمز ألبسهما سراقة تنفيذاً لوعد النبي – صلى الله عليه وسلم – وقد توفي سراقة في خلافة عثمان سنة ٢٤ هـ (الإصابة ٢ : ١٨ ، القاموس الإسلامي ٣ : ٢٩٣).

٤٤٠ – أنظر دلائل النبوة للبيهقي ٦ : ٣٢٥-٣٢٦ ، البداية والنهاية ٦ : ٢٢٠

فهذه أخبار مشهورة ظاهرة ، ولم نتتبع من معجزاته – صلي الله عليه – التي رواها الواحد والاثنان ، فان ذلك يكثر ويبلغ نحو ألف معجز .

فإن قيل : فما تقولون في هذه الأخبار التي رويتموها ؟ هل تقولون : أنها توجب العلم علي التفاصيل ؟

قيل له : في جملة هذه الأخبار : أخبار توجب العلم لمن عني بسماعها والبحث عنها ، وفيها ما يوجب اجتماعها ، والعلم علي الجملة : بأنه – صلي الله عليه وعلي آله – كان يظهر عليه آيات ناقضة للعادة ، بأنه – صلي الله عليه وعلي آله – ولا يمتنع أن تكون أخبار الآحاد إذا توردت تتضمن أمرا من الأمور أن يقع العلم بذلك الأمر علي الجملة . ألا تري أن عامة ما يروي عن علي – عليه السلام – من مسائل الفقه طريقها الآحاد ، ثم يحصل العلم الضروري بأنه كان فقيها ، وكذلك حال عبد الله بن مسعود ، وابن عباس وغيرهما من فقهاء الصحابة ، وكذلك كل موقف لعلي – عليه السلام – في الحروب لا يكاد يثبت إلا من طريق الآحاد ، ثم يجعل الضروري أنه كان شجاعا ، وكذلك حال الزبير ، وأبي دجانة(٤٤١) ، وغيرهما من الشجعان من الصحابة وغيرهم . وهذه الطريقة هي التي اعتمدها أصحابنا في إثبات إجماع الصحابة علي القول بالقياس وخبر الواحد وبمثل هذه الطريقة يعلم جود الأجواد . وبخل البخلاء ، وسير الملوك في العدل والظلم ، فيجب علي ما بينها أن تكون هذه الأخبار الواردة في معجزات نبينا – صلي الله عليه – وان لم يكن كل واحد منهما واردا موردا يوجب العلم بجملتها ، موجبة للعلم بأنه صلي الله عليه وعلي آله ، كانت تظهر عليه آيات ناقضة للعادة .

---

٤٤١ – **أبو دجانة** سماك بن خرشة ،أحد صاحب رسول الله وأعطاه سيفه يوم أحد ولبس عصبته الحمراء وقتل خلق كثير من المشركين حتى كاد أن يقتل هند بنت عتبة فرفع سيف رسول الله عنها إكراما لسيف الرسول ،وقد اخذ السيف بحق من رسول اله وقال الأنصار لبس أبو دجانة عصابة الموت ، إشارة إلى عصبته الحمراء استشهد في اليمامة بعد أن تنازع مع وحشي الحبشي في قتل مسيلمة، وقيل قاتل مع علي يوم صفين واستشهد.

فإن قيل : أن هذه الأخبار لم ينقلها إلا من كان مصدقا به – صلي الله عليه وعلي آله – وهذا يمنع الاعتماد عليها .

قيل له : الاعتبار في إيجاب الأخبار للعلم لا يرجع إلي أحوالهم في باب الديانات ، وإنما يرجع إلي أحوالهم في الكثرة ، وكونهم عالمين صرفة بما يخبروا به ، أو استحالة التواطؤ منهم علي وضع ما يخبرون به ، فوجب بذلك سقوط هذا السؤال .

علي أن هذا السائل لا يخلو من أن يكون من غثاء الملحدة ، أو من أهل الكتاب ، فان كان من أهل الكتاب ، فقد علم الكلم منهم أنه لم ينقل معجزات أحد من الأنبياء صلوات الله عليهم – إلا من كان مصدقا بهم ، ولم يوجب ذلك طعنا في معجزاتهم ، أو في نقلهم ، فوجب أن يكون ذلك حال نقل معجزات نبينا صلي الله عليه وعلي آله .

وليس يؤثر فيه قول اليهود : أن معجزات موسي – صلي الله عليه – قد نقلها النصارى والمسلمون ، وقول النصارى ، أن معجزات عيسي – صلي الله عليه – قد نقلها المسلمون ؛ لأن ذلك لا يخرجها من أن يكون نقلها من جهة المصدقين بها – صلي الله عليهما – ألا تري أن ملحدة الفلاسفة والمجوس لا ينقلون شيئا من ذلك ولا يصدقون به .

فإن قيل : فإن المخالفين اليهود في التهود ، قد نقلوا معجزات موسي – صلي الله عليه – وكذلك المخالفون للنصارى في التنصر ، قد نقلوا معجزات المسيح ، وليس للمسلمين من يخالفهم في الإسلام ، وينقل مع ذلك معجزات محمد – صلي الله عليه وعلي آله .

قيل له : فليخبرنا اليهود ، هل نقل معجزات موسي عليه السلام قبل مبعث المسيح – عليه السلام –غير اليهود ؟ ولتخبرنا النصارى : هل نقل معجزات المسيح ، قبل مبعث النبي – صلي الله عليه وعلي آله – غير النصارى ؟ فلا بد

لهم من أن يقولوا : لم ينقل ذلك غير من ذكرتم . قيل له : فهل قدح ذلك في نقل معجزات موسي – صلي الله عليه – أو معجزات المسيح – عليه السلام – في تلك الأزمنة ، فلا بد لهم من أن يقولوا : لم يقدح ذلك في نقل تلك المعجزات .

قيل لهم : فكذلك حالك نقل المسلمين معجزات النبي – صلي الله عليه وعلي آله – في أنه لا يقدح فيها أن غيرهم لا ينقلها .

علي أنا نقول لليهود والنصارى ، نحن لا ننقل شيئا من معجزات موسي وعيسي – عليهما السلام – إلا من جهة القرآن ، وإخبار النبي – صلي الله عليه وعلي آله – بها . فلو لم تثبت نبوة نبينا – صلي الله عليه- لم يثبت عندنا شئ من معجزات موسي وعيسي – عليهما السلام – يكشف ذلك : أن علمنا بنار إبراهيم – صلي الله عليه – كعلمنا بفلق البحر . وان كان اليهود والنصارى ينكرون نار إبراهيم . وعلمنا بكلام المسيح في المهد كعلمنا بإبرائه الأكمه والأبرص ، وإحيائه الموتى . وإن كان النصارى ينكرون كلامه في المهد ، وإنما أردنا بذلك أنا لم نعلم شيئا من ذلك إلا من جهة القرآن وخبر الرسول – صلي الله عليه – وان كان السائل من ملحدة الفلاسفة والمجوس .

قيل لهم : فأنتم أيضا قد علمتم كثيرا من أحوال (أرسطاطيس) (٤٤٢) و (أفلاطون) (٤٤٣) ومن جري مجراهما وإخبارهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يكن ذلك

---

٤٤٢ – أرسطوطاليس (أرسطو) (٣٨٤ _ ٣٢٢ ق.م) : فيلسوف يوناني مقدوني ، تكاملت على يديه الفلسفة اليونانية فبلغت الذروة في نضوجها. يعده مؤرخ الفلسفة المعروف الدكتور عبد الرحمن بدوي هو وأستاذه أفلاطون (أعظم فلاسفة العالم على طول تاريخ الفكر الانساني)، و لُقِّب بـ (المعلم الأول) و(صاحب المنطق). ترك عدداً كبيراً من المؤلفات ذكر بطليموس الغريب ٨٢ عنواناً منها، تتألف من ٥٥٠ مقالة. لكن قسماً كبيراً منها ضاع ولم يصل إلينا. لكن لحسن الحظ أن الذي بقي هو الجانب الأهم)

٤٤٣ – أفلاطون فيلسوف يوناني قديم، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين، حتى ان الفلسفة الغربية اعتبرت أنها ماهي الا حواشي لأفلاطون. عرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن. كانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وإبيغرامات(ابيغرام:قصيدة قصيرة محكمة منتهيه بحكمه وسخريه يعرف أرسطو الفلسفة بمصطلحات الجواهر ، فيعرفها قائلا أنها علم الجوهر الكلي لكل ما هو واقعي . في حين يحدد أفلاطون الفلسفة بأنها عالم الأفكار قاصدا بالفكرة الأساس اللاشرطي للظاهرة . بالرغم من هذا الاختلاف فإن كلا من المعلم و التلميذ يدرسان مواضيع الفلسفة من حيث علاقتها بالكلي ، فأرسطو يجد الكلي في الأشياء

عندكم موجبا للقدح في ذلك النقل، وكذلك يقال للمجوس :وأنتم أيضا قد عرفتم كثيرا من أخبار (زرادشت) [٤٤٤] وأخبار ملوكهم بنقل أصحابهم لها ، ولم يقدح ذلك عندهم في نقلهم ،فكذلك حال نقل المسلمين لمعجزات الرسول – صلي الله عليه وعلي آله – لا يوجب فيه قدحا .

والأصل في هذا الباب : أن الأحوال التي يكون العهد بها متقادما ، لا ينقلها ، ولا يهتم بحفظ أخبارها إلا من كانت له دواع قوية إلي ذلك فليراع ما ذكرناه ، في أخبار الأمم كلها، ونقلتها ، وليس يجب أن يكون ذلك قادحا في شئ من النقل . فكذلك حال المسلمين .

فإن قيل : ما تنكرون علي من قال لكم : أن هذه الأخبار كانت في الأصل ضعافا ، وإنما قويت فروعها بالديانات والعصبيات وتلقي الأتباع لها بالتصديق ، وإلا فأصولها انتشرت بنفسها ثلاثة من أصحاب المغازي كابن اسحق[٤٤٥] ونحوه.

الواقعية الموجودة في حين يجد أفلاطون الكلي مستقلا بعيدا عن الأشياء المادية ، و علاقة الكلي بالظواهر و الأشياء المادية هي علاقة المثال (المثل) و التطبيق . الطريقة الفلسفية عند أرسطو كانت تعني الصعود من دراسة الظواهر الطبيعية وصولا إلى تحديد الكلي و تعريفه ، أما عند أفلاطون فكانت تبدأ من الأفكار و المثل لتنزل بعد ذلك إلى تمثلات الأفكار و تطبيقاتها على أرض الواقع .

٤٤٤ – زرادشت (عاش ما بين ٦٦٠ – ٥٨٣ ق.م) هو مؤسس الديانة الزردشتية و كان من الطبيعي أن تحاوط الاساطير والخوارق كلا من مولده ومماته على السواء، كطفل معجزة . وذلك أنه حين ولد لم يبكِ ولم يصح قط، على عادة الاطفال، سوى أنه كان دائم الضحك والحبور فلقد لازمت مأثورات حياته، ونموه – كبطل خارق – جسد الممارسات والشعائر الايرانية حين تزوج ورأى وجه عروسه للمرة الأولى، وكذا طقوس أخذ وشها ومعاشرتها، والاوضاع الجنسية وكيفية التعامل مع المرأة الزوجة، واخلاقيات الأسرة بعامة.

٤٤٥ – العلامة الحافظ الإخباري محمد بن إسحاق بن يسار بن خيار ، وقيل يسار بن كوتان ــ المطلبى بالولاء ، المدينى ، نسبة إلى مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وكان يكنى بأبى بكر ، وقيل بأبى عبدالله ، وكان جده يسار من أهل قرية عين التمر بالعراق وهو صاحب السيرة النبوية ، قال ابن سعد : كان ابن إسحاق أول من جمع مغاري رسول الله ﷺ (ولعله يقصد على وجه الاستقصاء) وإلا فقد سبقه عروة وموسى بن عقبة.

قيل له : أما من ذهب من العلماء إلي أن الاعتبار في باب الأخبار الموجبة للعلم ، هو تحصيل العلم الضروري دون أوصاف الأخبار والمخبرين ، فإن هـذا السؤال ساقط عنهم .

فأما من راعي صفات المخبرين ، فجوابه : أن يقول من أين لهذا الـسائل أن هذه الأخبار في الأصل كانت ضعيفة ؟ بل المعلوم من حالها أنها كانـت فـي الأصل أقوي وأظهر . ولئن جاز لقائل أن يقول في الأخبار هذا القول ، ويـدعي هذه الدعوي من غير أن يقيم عليها برهانا ويكون لها أدلة لجاز أن يقال مثله فـي أخبار البلدان أجمع وسير الملوك وأحوالهم كلها . وهذا يؤدي إلي أن لا يثبت شـئ من الأخبار ، ولا يصح أن يعلم بها شئ من الأمور المتباعـدة ، وهـذا واضـح السقوط لأنه من المعلوم من أحوال الأمم أجمع أنهم قد علموا من أحوال سلفهم من الملوك وغيرهم أمورا كثيرة من جهة الأخبار . وهذا السؤال أن صح أدي إلي أن لا يصح العلم بشئ من ذلك ، وفي علمنا : أن الأمر بخلاف ذلـك ممـا يكـشف فساده .

ثم يقال له : مما يفسد دعواك هذه : ويوضح سقوط سؤالك هذا : أنـا قـد علمنا أن هذه المعجزات لم تزل تنقل من أيام الصحابة إلي يومنا هذا ، عصرا بعد عصر وزمانا بعد زمان ، ومن المعلوم : أن هذا النقل كان ظاهرا مستفيضا قبـل مولد أصحاب المغازي نحو ابن اسحق وغيره . فكيف يصح أن ينسب ذلك إليهم ؟

فإن قيل : عامة هذه الأخبار ينقلها الواحد والاثنان والثلاثة، وما يزيد علي ذلك ، ولا يمكن أن يذكر من نقلها إلا نحو هذا العدد .

قيل له : لا يمتنع أن يكون الخبر مستفيضا شائعا يجب العلم به ، وان كان ما نذكر من أسماء الناقلين هذا القدر ، ألا تري أنا نعلم ضرورة أنه كان يوم بـدر ،وجري فيه ما جري ، وظفر المسلمون علي المشركين ونعلم أيضا يوم أحد ومـا جري فيه .

وكذلك سائر المغازي ، ونعلم ضرورة من دين النبي – صلي الله عليـه – أن الظهر أربع والمغرب ثلاث ، ولو تتبعنا أسماء من ينقل ذلك ممن لهم ذكر فـي

الكتب ، لم يزد علي ما ذكرتم ، وهذا لا يوجب الشك في هذه الأخبـار ، فكـذلك حال المعجزات .

فإن قيل : ما الفرق بين هذا النقل ، وبين نقل الإماميـة نـصوص أئمـتهم ومعجزاتهم .؟

قيل له : الفرق بينهما ظاهر لا يخفي علي من تأمل حال النقلين ، وذلك أن ما نقلته الأمامية من ذلك لم يثبت أن أئمتهم ادعوا شيئا من ذلك ، بل الثابت عـنهم أنهم كانوا ينكرون ذلك ويتبرءون منه ، ولظهور إنكارهم ذلك ما قالت الإماميـة ، أن ذلك الإنكار منهم كان علي سبيل التقية ، ولم يقولوا : انه لا أصل لـه ، إلا أن يتواقح اليوم بعض من يدعي كلام منهم فيجحده ، ثم هم لم يدعوا أن شـيئا مـن ذلك كان ظاهرا علي الولي والعدو . وإنما يدعون أمورا يلبسونها إلي أنها كانـت في السر ، وبحيث لم تظهر إلا للواحد والاثنين وأحوال معجزات الرسول – صلي الله عليه – بخلاف ذلك ، لأنه لا يرتاب في أن النبي – صلي الله عليه وآله – كان يدعي ذلك . وأن ما نقل منها ، وادعي كان علي رؤوس الأشهاد ، وحضور الملأ من المسلمين والمشركين ، كما نقل ذلك في حديث الاستسقاء وتكثير الطعام وخبر الميضأة ،وما كان منه – صلي الله عليه وعلي آله – من غرز الـسهم فـي بئـر بالحديبية ونحو ذلك . فأي فرق بين النقلين أوضح وأُبَين مما ذكرناه ؟

فإن قيل : فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل اليهود والنـصارى أنهـم قتلـوا المسيح وصلبوه ؟

قيل لهم : إننا لا ننكر أنهم رأوا شخصا مقتولا مصلوبا وأنهم في هذا القدر صادقون . وإنما شبه لهم فظنوا : أن المقتول هو المسيح .

واختلف أهل العلم في كيفية التشبيه ؟ فذهب الأكثر إلي أنه تعالي ألقي شبه عيسي – صلي الله عليه – علي رجل من أصحابه ،فظنوا أنـه عيـسي ، وهـذا التأويل عندي سائغ .

وذهب بعض العلماء ، إلي أن اليهود لما لم يجدوا عيسي ؛ لأن الله عز وجل كان قد رفعه إليه ، أخذوا رجلا من أصحابه فألبسوه ثيابه ، وستروا وجهه ، ثم قتلوه وصلبوه ، وأوهموا الباقين ، أنهم قد قتلوا المسيح – صلي الله عليه – والذين فعلوا ذلك من اليهود ، كانوا عدد يسيرا من رؤسائهم ، وهذا أيضا محتمل جائز ، فأي الأمرين كان . فالأمر فيه مخالف لنقل المسلمين معجزات النبي – صلي الله عليه – لما بينا من كون عمومها لم يخف علي المسلمين ولا المشركين ، وأهل الكتاب لظهورها ووقوعها علي وجه من شاهدوها وعاينوها علي ما ذكرناه.

فإن قيل : فما الفرق بين نقلكم هذا ونقل الصوفية معجزات بشار الراعي ، وبشر الحافي(٤٤٦) ، وإبراهيم بن أدهم(٤٤٧) ، ومن نحا نحوهم ؟

قيل له : الفرق بينهما هو بعينه ما ذكرنا في الفرق بين نقلنا ونقل الإمامية؛ لأنه لم يثبت أن هؤلاء الصالحين ادعوا شيئا من ذلك ، بل الأظهر أنهم كانوا ينكرون ذلك خشية الفتنة ، وما جري مجراه ، ولم يمكنهم أنهم – رحمهم الله – ينكروا ذلك ، ثم من ينقله لا ينقل أن شيئا من ذلك كان بين الجمع العظيم ، وإنما يدعي أنه ظهر علي سبيل الإخفاء ، أو لآخر معه ، فأي اشتباه يقع بين نقل المسلمين معجزات النبي صلي الله عليه ، وبين نقل الصوفية الذي سألتم عنه ؟

وقد أشار إلي هذا صاحب الكتاب الملقب بالزمرد : بأن قال : " القوم الذين شاهدوا هذه الآيات ، لم يخلو من أن يكونوا وقفوا حوله – صلي الله عليه وعلي

---

٤٤٦ – هو أبو نصر بشر بن الحارث الحافي أصله من مرو وقد سكن بغداد ومات فيها وكان كبير الشأن من أغني أغنياء بغداد وقد كان قمّاراً خمّاراً زمّارا وكان لا يتورع عن فعل المنكرات والمحرمات الكبيرة.

٤٤٧ – إبراهيم بن أدهم إبراهيم بن أدهم ابن منصور بن يزيد بن جابر ، القدوة الإمام العارف ، سيد الزهاد أبو إسحاق العجلي ، وقيل : التميمي ، الخراساني البلخي ، نزيل الشام . مولده في حدود المائة . حدث عن : أبيه ، ومحمد بن زياد الجمحي –صاحب أبي هريرة –وأبي إسحاق السبيعي ، ومنصور بن المعتمر ، ومالك بن دينار ، وأبي جعفر محمد بن علي ، وسليمان الأعمش ، وابن عجلان ، ومقاتل بن حيان حدث عنه : رفيقة سفيان الثوري ، وشقيق البلخي ، وبقية بن الوليد ، وضمرة بن ربيعة ، ومحمد بن حمير ، وخلف بن تميم ، ومحمد بن يوسف الفريابي ، وإبراهيم بن بشار الخراساني خادمه ، وسهل بن هاشم ، وعتبة بن السكن ، وحكى عنه الأوزاعي ، وأبو إسحاق الفزاري.

آله – علي مقدار دائرة ضيقة تسع لنحو من خمسين رجلا ، أو علي مقدار دائـــرة عظيمة تسع الخلق العظيم ، فان كانوا في مقدار دائرة واسعة اقتضي ذلك بعـــدهم عما يشاهدونه ، وذلك يجوز التأبيس ، وأن يكون للشك فيه مسوغ " .

وعن هذا بحمد الله أجوبة . أحدها : أن يقال لهذا الجاهل المزري بعقلــه . أما علمت أن هذا السؤال يؤدي إلي أن لا يصح أن يعلم شئ من الأحداث والكوائن التي جرت في الدنيا من طريق الأخبار والنقل ؛ لأنه يصح أن يقال في كل حادثة أو كائنة : أن المحدثين بها لمشاهدتها . أما أن كانوا في مقدار دائــرة ضــيقة أو واسعة . فان كانوا في مقدار دائرة ضيقة صح عليهم التواطؤ ، وان كـــانوا فـــي مقدار دائرة واسعة لم يمتنع أن يحل إليهم الحادث علي قدر ما هو عليه ، فيلزمـــا جميع ما ذكرنا أو يشك حتي لا يصح أن أحدا أقيل ولا أن أحـــدا ولـــي ، ولا أن أحدا ناظر أحدا في شئ من أمور الدين أو الدنيا ، فان التزم ذلك وضح خزيـــه ، وبان ضلالته ، وان أجاب عنه بشئ فهو جوابنا فيما سأل عنه .

ومنها أن يقال له : أن المحدقين لا يجرون مجري السور المبني أو الحائط المشيد ، بل لا يمتنع أن يكون من خلفهم يطلع فيري ما يراه الأولون ، ويعاين مـــا يعاينونه .

ومنها أن يقال : لا يمتنع في كثير من هذه الآيـــات أن يـــشاهده قـــوم ثـــم يتأخرون ، ويتقدم آخرون ، فيشاهدوا ما شاهده الأولون .

ومنها أن يقال له : لا يمتنع أن يقـــع العلـــم بخبـــر الخمـــسين ، أو دون الخمسين إذا أخبروا علي وجه يعلم أنهم لم يتواطؤا ، وكل ذلك يوضح سقوط مـــا ذكره هذا الجاهل .

الباب الثالث

ذكر ما وجد في الكتب المتقدمة من البشارات بالنبي صلي الله عليه وعلي آله [٤٤٨]

هذه فصول يعرفها أهل الكتاب في كتبهم . وليسوا ينكرونها وقد جاريت فيها منهم من كان يرجع إلي حفظ كثير وضبطها ، وغير أنهم يتأولونها تأويلات فاسدة .

فمن ذلك ما وجد في التوراة ، وقيل هو في السفر " الأخير[٤٤٩] في الفصل الثالث والثلاثين ": جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران " [٤٥٠]

---

٤٤٨ – يقول تعالي في شأن أهل الكتاب: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ وَإِنَّ فَرِيقاً مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

ويقول تعالي : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٧]

وقد أشارت إليه السنة في حديث عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت أخبرني عن صفة رسول الله صلي الله عليه وسلم في التوراة، قال :أجل والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفاته في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً ﴾ ، وحرزا للأميين (أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل ،ليس بفظ ولا غليظ ولا صخّاب بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة ولكن يجزي بالسيئة الحسنة ويعفو ويغفر ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء فأفتح به أعيناً عميا وآذاناً صُمًّا وقلوبا غلفا بأن يقولوا : " لا إله إلاّ الله " .

٤٤٩ – المقصود سفر التثنية ، وهو يشمل الوصايا العشر والكثير من الوصايا التي وضعها الله للشعب اليهودي ، ثم عن كلمة الوداع التي قالها موسى – عليه السلام – قبل رحيله وتكليف يشوع بقيادة الشعب اليهودي بعد موت موسى .

٤٥٠ – ١وَهذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، ٢فَقَالَ: «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ. ٣فَأَحَبَّ الشَّعْبَ. جَمِيعُ قِدِّيسِيهِ فِي يَدِكَ، وَهُمْ جَالِسُونَ عِنْدَ قَدَمِكَ يَتَقَبَّلُونَ مِنْ أَقْوَالِكَ. ٤بِنَامُوسٍ أَوْصَانَا مُوسَى مِيرَاثًا لِجَمَاعَةِ يَعْقُوبَ. ٥وَكَانَ فِي يَشُورُونَ مَلِكًا حِينَ اجْتَمَعَ رُؤَسَاءُ الشَّعْبِ أَسْبَاطُ إِسْرَائِيلَ مَعًا. ٦لِيَحْيَ رَأُوبَيْنُ وَلاَ يَمُتْ، وَلاَ يَكُنْ رِجَالُهُ قَلِيلِينَ». (أنظر سفر التثنية ، الإصحاح ٣٣ : ١–٦).

فقوله : " جاء الله من سيناء "(٤٥١) أراد ابتعاثه موسي – صلي الله عليه – من قبل طور سيناء ، وقوله : " وأشرق من ساعير "(٤٥٢) أراد ابتعاثه المسيح – صلي الله عليه – وساعير : الناحية التي كان فيها عيسي – صلي الله عليه – وقوله " واستعلن من جبل فاران "(٤٥٣) أراد به ابتعاثه محمدا – صلي الله عليه وعلي آله – من جبال مكة ؛ لأن جبال مكة تسمي في التوراة " جبل فاران " لا ينكر ذلك أحد ممن عرف التوراة . (٤٥٤)

---

٤٥١ – سيناء هي المكان الأول وتشير إلى المكان الذي فيه موسى ، ودليل ذلك : " ١٦وَحَلَّ مَجْدُ الرَّبِّ عَلَى جَبَلِ سِينَاءَ، وَغَطَّاهُ السَّحَابُ سِتَّةَ أَيَّامٍ. وَفِي الْيَوْمِ السَّابعِ دُعِيَ مُوسَى مِنْ وَسَطِ السَّحَابِ. ١٧وَكَانَ مَنْظَرُ مَجْدِ الرَّبِّ كَنَارٍ آكِلَةٍ عَلَى رَأْسِ الْجَبَلِ أَمَامَ عُيُونِ بَنِي إِسْرَائِيلَ. ١٨وَدَخَلَ مُوسَى فِي وَسَطِ السَّحَابِ وَصَعِدَ إِلَى الْجَبَلِ. وَكَانَ مُوسَى فِي الْجَبَلِ أَرْبَعِينَ نَهَارًا وَأَرْبَعِينَ لَيْلَةً " (خروج ٢٤ : ١٦–١٨).

٤٥٢ – سعير هي المكان الثاني وهي تعني أرض فلسطين التي سكنها عيسو أخو يعقوب ، ودليل ذلك : ٨فَسَكَنَ عِيسُو فِي جَبَلِ سَعِيرَ. وَعِيسُو هُوَ أَدُومُ " (تكوين ٣٦ : ٨).

٤٥٣ – فاران إشارة إلى إسماعيل عليه السلام والنبي الذي يأتي من نسله . حيث يقول الله عن إسماعيل : " ٢١وَسَكَنَ فِي بَرِّيَّةِ فَارَانَ، وَأَخَذَتْ لَهُ أُمُّهُ زَوْجَةً مِنْ أَرْضِ مِصْرَ " . (أنظر سفر التكوين ، الإصحاح ٢١ : ١٧–٢١).

٤٥٤ – في النسخ الحديثة من الكتاب المقدس (جاء الرب) وليس (جاء الله) ، والرب كلمة معربة عن العبرية تعني السيد والمعلم . ومن النص السابق يتضح أن موسى عليه السلام قسم البركة قبل موته على : (سيناء .... جاء) ، (ساعير .... أشرق) ، (فاران .... تلألأ). فعندما يقول : جاء الرب ، أي ظهور ملاك الرب على نبيه وتلقينه كلام الله . وعندما يقول : أشرق ، المراد تجلية الشريعة وتوضيحها . وفي هذا المعنى يقول المسيح نفسه "لا تظنوا أني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء . ما جئت لأنقض بل لأكمل" (متى ٥ : ١٧).
وعندما يقول : تلألأ ، المراد قمة البيان والهيمنة .

وعلى ذلك يكون معنى النص : " إن الله تعالي ناجي موسي وأوحي إليه بسيناء ، وأرسل عيسي وأوحي إليه بسعير وهي من أرض الجبل المقدس ، وبعث محمداً صلي الله عليه وسلم من مكة الواقعة بين جبال فاران كجبل أبي قبيس وحراء وغيرهما من جبال مكة المحيطة بها " (أنظر عقيدة المؤمن : أبو بكر جابر الجزائري ، ص ٣٠٦ بتصرف) . وقد شبه الله سبحانه وتعالي نبوة موسي بمجيء الصباح ونبوة المسيح بعدها بإشراقه وضيائه ونبوة خاتم الأنبياء بعدهما باستعلاء الشمس وظهور ضوئها في الأفاق ووقع الأمر كما أخبر به سواء . فإن الله سبحانه وتعالى صدع بنبوة موسي ليل الكفر فأضاء فجره بنبوته وزاد الضياء والإشراق بنبوة المسيح وكمل الضياء واستعلن وطبق الأرض بنبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم.

وذكر هذه النبوات الثلاثة التي اشتملت عليها هذه البشارة نظير ذكرها في أول سورة ﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ وَطُورِ سِينِينَ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ ﴾ (التين : ١–٣).

فذكر أمكنة هؤلاء الأنبياء وأرضهم التي خرجوا منها "والتين والزيتون" والمراد بهما منبتهما وأرضهما وهي الأرض المقدسة التي هي مظهر المسيح.

وفي التوراة : أن إبراهيم – صلي الله عليه – أسكن هاجر[٤٥٥] وإسماعيل – صلي الله عليه – فاران يعني : مكة ، ولم يبعث أحد من الأنبياء ابتعاثا ظاهرا ، فشا أمره في مشارق الأرض ومغاربها ، كما اقتضي قوله : " استعلن " لأن " استعلن " هو بمعني : علن . إذا ظهر وانكشف (ولم يستعلن) غير محمد – صلي الله عليه وعلي آله وسلم – فلم يبق ريب في أنه هو المراد بهذه اللفظة .

وفي التوراة : أن هاجر تراءي لها ملاك ، وقال : " يا هاجر أني سأكثر ذريتك ، وزرعك حتي لا يحصوا كثرة ، وها أنت تحبلين وتلدين ابنا ، وتسمينه إسماعيل ؛ لأن الله عز وجل قد سمع خشوعك ، وتكون يده فوق يد الجميع ، ويد الجميع مبسوطة إليه بالخضوع " .[٤٥٦]

وقد علمنا أن المراد بهذه : ولد إسماعيل ، وهو رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – لأن إسماعيل نفسه لم تكن يده فوق يد إسحاق ، ولا يد ولديه يعقوب – صلي الله عليه – وعيسي ، مبسوطة إليه بالخضوع ولم يكن في ولد إسماعيل من كانت أيدي أولاد إسرائيل ، وعيسو وسائر الناس مبسوطة إليه ، غير رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله ".

إنه هو الذي دانت له الملوك من آل إبراهيم – صلي الله عليه– وغيرهم ، وخشعت له رقابهم ، وخضعت له الأمم ، وصارت الإمامة والملك في أهله ، وصارت أيديهم فوق أيدي الجميع ،وأيدي الجميع مبسوطة إليهم ، كما وعدت هاجر ، فوضح أنه بشارة رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله .

"وطور سنين" الجبل الذي كلم الله عليه موسي فهو مظهر نبوته.

"وهذا البلد الأمين" مكة حرم الله وأمنه التي هي مظهر نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليهم . فهذه الثلاثة نظير تلك الثلاثة سواء قالت اليهود : " فاران " هي أرض الشام وليست أرض الحجاز أم لم تقل ، وليس هذا ببدع من بهتهم وتحريفهم . (أنظر هداية الحيارى : ابن القيم ، ص ١١٩).

٤٥٥ – أم الذبيح إسماعيل عليه السلام وزوجة إبراهيم عليه السلام .

٤٥٦ – ١٠وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «تَكْثِيرًا أُكَثِّرُ نَسْلَكِ فَلاَ يُعَدُّ مِنَ الْكَثْرَةِ». ١١وَقَالَ لَهَا مَلاَكُ الرَّبِّ: «هَا أَنْتِ حُبْلَى، فَتَلِدِينَ ابْنًا وَتَدْعِينَ اسْمَهُ إِسْمَاعِيلَ، لأَنَّ الرَّبَّ قَدْ سَمِعَ لِمَذَلَّتِكِ. ١٢وَإِنَّهُ يَكُونُ إِنْسَانًا وَحْشِيًّا، يَدُهُ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ، وَيَدُ كُلِّ وَاحِدٍ عَلَيْهِ، وَأَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ يَسْكُنُ». (أنظر سفر التكوين ، الإصحاح ١٦ : ١٠-١٢).

وفي فصل من كتاب أشعياء النبي – صلي الله عليه –" لتفرح أرض البادية العطشى ، ولتبتهج البراري والفلوات ، ولتنزه لأنها ستعطي بأحمد محاسن لبنان ، وكمال حسن الدساكر والرياض " (٤٥٧)

ومن المعلوم : أن البادية لم يحصل لها ولفلواتها المحاسن إلا بالإسلام والمسلمين ، فبان أنه بشارة بالنبي – صلي الله عليه وعلي آله – وإن كان في أهل الكتاب من ينكر الاسم علي عادتهم في التحريف . (٤٥٨)

---

٤٥٧ – ١تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ. ٢يُزْهِرُ إِزْهَارًا وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجًا وَيُرَنِّمُ. يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ. هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ، بَهَاءَ إِلهِنَا. ٣شَدِّدُوا الأَيَادِيَ الْمُسْتَرْخِيَةَ، وَالرُّكَبَ الْمُرْتَعِشَةَ ثَبِّتُوهَا. ٤قُولُوا لِخَائِفِي الْقُلُوبِ: «تَشَدَّدُوا لاَ تَخَافُوا. هُوَذَا إِلهُكُمْ. الانْتِقَامُ يَأْتِي. جَزَاءُ اللهِ. هُوَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُكُمْ».

٤٥٨ – من تنبؤات أشعياء قوله في الإصحاح الثاني والأربعون : «هُوَذَا عَبْدِي الَّذِي أَعْضُدُهُ، مُخْتَارِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. وَضَعْتُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْرِجُ الْحَقَّ لِلأُمَمِ. ٢لاَ يَصِيحُ وَلاَ يَرْفَعُ وَلاَ يُسْمِعُ فِي الشَّارِعِ صَوْتَهُ. ٣قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً خَامِدَةً لاَ يُطْفِئُ. إِلَى الأَمَانِ يُخْرِجُ الْحَقَّ. ٤لاَ يَكِلُّ وَلاَ يَنْكَسِرُ حَتَّى يَضَعَ الْحَقَّ فِي الأَرْضِ، وَتَنْتَظِرُ الْجَزَائِرُ شَرِيعَتَهُ». الفقرة السابقة من سفر أشعياء تتحدث عن نبي اشتهر بأنه عبد الله ورسوله، وفي هذا يقول الله سبحانه وتعالي: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] ويقول تعالي: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ [القلم : ٤] ، إن الأوصاف التي حددها أشعياء النبي لا تنطبق إلا علي النبي محمد صلي الله عليه وسلم، وأكدتها الآيات السابقة من القرآن الكريم. وبالجملة فإن سفر أشعياء يتحدث عن وصف نبي الإسلام وقومه وحالهم قبل مجيئه ثمّ حالهم بعد مجيئه. ويمكن تقسيم السفر إلي فقرات ثمّ تجمع لتعطي معني متكاملاً كالأتي:

٦«أَنَا الرَّبَّ قَدْ دَعَوْتُكَ بِالْبِرِّ، فَأُمْسِكُ بِيَدِكَ وَأَحْفَظُكَ وَأَجْعَلُكَ عَهْدًا لِلشَّعْبِ وَنُورًا لِلأُمَمِ، ٧لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ. (أنظر سفر أشعياء ، الإصحاح ٤٢ : ٦–٧). وهذه الفقرة تبين أن الله يعصمه من الناس حتى يكمل رسالته أي أنه لن يموت ولن يقتل حتى يكتمل الدين ، وفي هذا يقول الحق سبحانه وتعالي: ﴿ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ [المائدة : ٦٧] ، والفقرة السابقة لا يمكن تطبيقها علي المسيح ؛ لأن الأناجيل تحدثنا أنه كلّ وانكسر سريعاً إذ أنها تزعم أنه قتل بعد فترة وجيزة من بدء دعوته. وبالرجوع للفقرة السابقة نجدها تقول: " ٧لِتَفْتَحَ عُيُونَ الْعُمْيِ، لِتُخْرِجَ مِنَ الْحَبْسِ الْمَأْسُورِينَ، مِنْ بَيْتِ السِّجْنِ الْجَالِسِينَ فِي الظُّلْمَةِ. ". وهنا يقول الحق سبحانه وتعالي: ﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنِ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة : ١٥–١٦] ، وفي نفس السفر نجد " ١١لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا. ١٢لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْدًا وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِي الْجَزَائِرِ. ١٣الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ. يَهْتِفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ. " (أشعياء ٤٢ : ١١–١٣). وهذه

الفقرة تبين أن النبي الآتي من نسل إسماعيل بن إبراهيم " الديار التي سكنها قيدار " وقيدار هو الإبن الثاني لإسماعيل " ١٢وَهذِهِ مَوَالِيدُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ، الَّذِي وَلَدَتْهُ هَاجَرُ الْمِصْرِيَّةُ جَارِيَةُ سَارَةَ لإِبْرَاهِيمَ. ١٣وَهذِهِ أَسْمَاءُ بَنِي إِسْمَاعِيلَ بِأَسْمَائِهِمْ حَسَبَ مَوَالِيدِهِمْ: نَبَايُوتُ بِكْرُ إِسْمَاعِيلَ، وَقِيدَارُ،.....الخ" (التكوين ٢٥ : ١٢-١٣). وعرب الحجاز كلهم ينتسبون إلي ولديه: نبايوت وقيدار. "سالع" السلع هو الشق في الجبل ونحوه ، ولعل المراد بالشق في الجبل "سنيات الوداع" . فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: لمّا قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة جعل النساء والصبيان يقلن:

طلع البدر علينا ... من سنيات الوداع
وجب الشكر علينا ... ما دعا لله داع

والنص السابق به " الرب كالجبار يخرج كرجل حروب ينهض غيرته" إن الله وعد أن ينصر رسله ، وفي التوراة والإنجيل قرائن تؤكد هذه الحقيقة . وفي القرآن قرائن تؤكد نصر الله لنبيه محمد صلي الله عليه وسلم . يقول تعالي : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَـكِنَّ اللّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَـكِنَّ اللّهَ رَمَى وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاء حَسَناً إِنَّ اللّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال : ١٧] ، ويقول تعالي: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَن يَكْفِيكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاَثَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُنزَلِينَ بَلَى إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَـذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ وَمَا جَعَلَهُ اللّهُ إِلاَّ بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ [آل عمران : ١٢٣-١٢٦].

إن الفقرة السابقة تبين أن في دينه هتاف من رؤوس الجبال وتسبيح وتكبير ومؤتمر عالمي يعقد سنوياً. والإسلام هو الدين الوحيد الذي يحدث فيه هذا إذ يجتمع كل الحجيج من ملوك وشعوب ومن مختلف البيئات والأعمار، لا يجتمعون في القصور وإنما في رؤوس الجبال. إن هذه الفقرة تقول: "من رؤوس الجبال ليهتفوا ليعطوا الرب مجداً ويخبرون بتسبيحه في الجزائر" . إن هذا ما يحدث في الإسلام فقط وذلك في ركنه الخامس وهو الحج . لقد تنبأ أشعياء عن الكعبة المشرفة بأنها منارة الهدي تتوهج بنور التوحيد فتبدد الظلام الذي خيم علي الأرض، ظلام الجهل والشرك، فقال: «قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. ٢لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى. ٣فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ. (أشعياء ٦٠ : ١-٣). وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم فقال: ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] ، ويخبرنا السفر بأنه " شَعْبٌ مَنْهُوبٌ وَمَسْلُوبٌ. قَدِ اصْطِيدَ فِي الْحُفَرِ كُلُّهُ، وَفِي بُيُوتِ الْحُبُوسِ اخْتَبَأُوا. صَارُوا نَهْبًا وَلاَ مُنْقِذَ، وَسَلَبًا وَلَيْسَ مَنْ يَقُولُ: «رُدَّ!»." (أشعياء ٤٢ : ٢٢). وهذه الفقرة تبين أن الشعب الذي ظهر فيه هذا النبي كان ضعيفاً جداً وكان طعمة لكل آكل . لقد كان معروفاً حال العرب قبل الإسلام فقد كانت الحدود الشمالية الشرقية نهباً للفرس ، ولكن بعد أن جاءهم هذا النبي وظهر فيهم هذا الدين تحول العمي إلي مبصرين والمرضي إلي أصحاء ، فانطلقوا في العالم . راجع الفقرة مرة أخري " لتفتح عيون العمي ، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين في الظلمة " [أشعياء ٤٢ : ٧). وأيضاً " ١٦وَأُسَيِّرُ الْعُمْيَ فِي طَرِيق لَمْ يَعْرِفُوهَا. فِي مَسَالِكَ لَمْ يَدْرُوهَا أُمَشِّيهِمْ. أَجْعَلُ الظُّلْمَةَ أَمَامَهُمْ نُورًا، وَالْمُعْوَجَّاتِ مُسْتَقِيمَةً. هذِهِ الأُمُورُ أَفْعَلُهَا وَلاَ أَتْرُكُهُمْ. " (أشعياء ٤٢ : ١٦). وبعد ذلك يختتم السفر نبوته بأنه نبي البر يعظم شريعة الله ويكرمها وهذا ما عرف عن محمد – صلي الله علي وسلم – الذي شمل بره الحيوانات والضعفاء من الأطفال واليتامى والنساء والأرامل . لقد كان يحترم النفس البشرية مهما كانت .

وإليك النص: " ٢١الرَّبُّ قَدْ سُرَّ مِنْ أَجْلِ بِرِّهِ. يُعَظِّمُ الشَّرِيعَةَ وَيُكْرِمُهَا. ٢٢ولكِنَّهُ شَعْبٌ مَنْهُوبٌ وَمَسْلُوبٌ....الخ" . وقد يقول قائل : إن هذه النبوة جاءت في نبي آخر غير محمد ، نقول له بيننا وبينك الإنجيل . لقد ظهر في بني إسرائيل أنبياء كثيرون بعد أشعياء وتتابعوا حتى جاء المسيح . فنجد أن إنجيل متّى حاول تحقيق هذه النبوة في المسيح فهو يقول: «هُوَذَا فَتَايَ الَّذِي اخْتَرْتُهُ، حَبِيبِي الَّذِي سُرَّتْ بِهِ نَفْسِي. أَضَعُ رُوحِي عَلَيْهِ فَيُخْبِرُ الأُمَمَ بِالْحَقِّ. ١٩لاَ يُخَاصِمُ وَلاَ يَصِيحُ، وَلاَ يَسْمَعُ أَحَدٌ فِي الشَّوَارِعِ صَوْتَهُ. ٢٠قَصَبَةً مَرْضُوضَةً لاَ يَقْصِفُ، وَفَتِيلَةً مُدَخِّنَةً لاَ يُطْفِئُ، حَتَّى يُخْرِجَ الْحَقَّ إِلَى النُّصْرَةِ. ٢١وَعَلَى اسْمِهِ يَكُونُ رَجَاءُ الأُمَمِ» (إنجيل متّى ١٢ : ٢١). يلاحظ أن الكاتب حرف الكلم من بعد مواضعه فوضع كلمة "فتاي"بدلاً من "عبدي" ونحن كمسلمين نقول لهذا القائل ومن علي شاكلته بوركت لكم هذه النبوة التي تعتقدون أنها تختص بالمسيح بشرط أن تأخذوها جميعاً كما جاءت بسفر أشعياء. فهي تقول : (هوذا عبدي الذي أعضده. مختاري الذي سرت به نفسي وضعت روحي عليه فيخرج الحق للأمم). فإذا آمنتم بأن المسيح هو حقاً عبد الله ورسوله وأنَّ الله أيّده بالروح فنحن كمسلمين نوافقكم علي ذلك . ولكن الحقيقة تقول أن بقيَّة نبوة أشعياء في (الإصحاح ٤٢) لا يمكن تطبيقها علي المسيح بأي حال من الأحوال فما كان الشعب اليهودي الذي ظهر فيه المسيح شعباً وثنياً وما كان المسيح رجل حرب ...الخ ، وفي إصحاح آخر عند أشعياء يقول: " ٣صَوْتُ صَارِخٍ فِي الْبَرِّيَّةِ: «أَعِدُّوا طَرِيقَ الرَّبِّ. قَوِّمُوا فِي الْقَفْرِ سَبِيلاً لإِلهِنَا. ٤كُلُّ وَطَاءٍ يَرْتَفِعُ، وَكُلُّ جَبَل وَأَكَمَةٍ يَنْخَفِضُ، وَيَصِيرُ الْمُعْوَجُّ مُسْتَقِيمًا، وَالْعَرَاقِيبُ سَهْلاً. ٥فَيُعْلَنُ مَجْدُ الرَّبِّ وَيَرَاهُ كُلُّ بَشَرٍ جَمِيعًا، لأَنَّ فَمَ الرَّبِّ تَكَلَّمَ» (أشعياء ٤٠ : ٣-٥). فكلمة القفر تكتب في العبرية (ع ر ف ت) مع وجود علامة الفتحة الطويلة تحت حرف الفاء، فتنطق: عرفات. وأيضاً يقول أشعياء: " ١١وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ دُومَةَ: صَرَخَ إِلَيَّ صَارِخٌ مِنْ سَعِيرَ: «يَا حَارِسُ، مَا مِنَ اللَّيْلِ؟ يَا حَارِسُ، مَا مِنَ اللَّيْلِ؟» ١٢قَالَ الْحَارِسُ: «أَتَى صَبَاحٌ وَأَيْضًا لَيْلٌ. إِنْ كُنْتُمْ تَطْلُبُونَ فَاطْلُبُوا. ارْجِعُوا، تَعَالَوْا» ١٣وَحْيٌ مِنْ جِهَةِ بِلاَدِ الْعَرَبِ: فِي الْوَعْرِ فِي بِلاَدِ الْعَرَبِ تَبِيتِينَ، يَا قَوَافِلَ الدَّدَانِيِّينَ. ١٤هَاتُوا مَاءً لِمُلاَقَاةِ الْعَطْشَانِ، يَا سُكَّانَ أَرْضِ تَيْمَاءَ. وَافُوا الْهَارِبَ بِخُبْزِهِ. ١٥فَإِنَّهُمْ مِنْ أَمَامِ السُّيُوفِ قَدْ هَرَبُوا. مِنْ أَمَامِ السَّيْفِ الْمَسْلُولِ، وَمِنْ أَمَامِ الْقَوْسِ الْمَشْدُودَةِ، وَمِنْ أَمَامِ شِدَّةِ الْحَرْبِ " (أشعياء ٢١ : ١١-١٥). وعنوان الفقرة في الإنجليزية هو: Oracles about Edom and Arabia وينبغي أن نفرق بين معان الكلمات الآتية:

Arabia وهي تعني أرض شبه الجزيرة العربية ، أما كلمة Arabs فهي تعني العرب كجنس بشري ، وكلمة Arabians إنما تعني السكان العرب المقيمون بشبه جزيرة العرب. وبالرجوع للنص السابق، فإن (دومة) هي المنطقة التي سكنها دومة ابن إسماعيل وذريته من بعده. وبالتالي يكون معني النص الإنجليزي السابق: وحي من جهة دومة ومن جهة الجزيرة العربية. وأخيرا يقول أشعياء : " ١تَفْرَحُ الْبَرِّيَّةُ وَالأَرْضُ الْيَابِسَةُ، وَيَبْتَهِجُ الْقَفْرُ وَيُزْهِرُ كَالنَّرْجِسِ. ٢يُزْهِرُ إِزْهَارًا وَيَبْتَهِجُ ابْتِهَاجًا وَيُرَنِّمُ. يُدْفَعُ إِلَيْهِ مَجْدُ لُبْنَانَ. بَهَاءُ كَرْمَلَ وَشَارُونَ. هُمْ يَرَوْنَ مَجْدَ الرَّبِّ، بَهَاءَ إِلهِنَا. ٣شَدِّدُوا الأَيَادِيَ الْمُسْتَرْخِيَةَ، وَالرُّكَبَ الْمُرْتَعِشَةَ ثَبِّتُوهَا. ٤قُولُوا لِخَائِفِي الْقُلُوبِ: «تَشَدَّدُوا لاَ تَخَافُوا. هُوَذَا إِلهُكُمْ. الانْتِقَامُ يَأْتِي. جِزَاءُ اللهِ. هُوَ يَأْتِي وَيُخَلِّصُكُمْ» ٥حِينَئِذٍ تَتَفَقَّعُ عُيُونُ الْعُمْيِ، وَآذَانُ الصُّمِّ تَتَفَتَّحُ. ٦حِينَئِذٍ يَقْفِزُ الأَعْرَجُ كَالإِيَّلِ وَيَتَرَنَّمُ لِسَانُ الأَخْرَسِ، لأَنَّهُ قَدِ انْفَجَرَتْ فِي الْبَرِّيَّةِ مِيَاهٌ، وَأَنْهَارٌ فِي الْقَفْرِ. ٧وَيَصِيرُ السَّرَابُ أَجَمًا، وَالْمَعْطَشَةُ يَنَابِيعَ مَاءٍ. فِي مَسْكِنِ الذِّئَابِ، فِي مَرْبِضِهَا دَارٌ لِلْقَصَبِ وَالْبَرْدِيِّ. ٨وَتَكُونُ هُنَاكَ سِكَّةٌ وَطَرِيقٌ يُقَالُ لَهَا: «الطَّرِيقُ الْمُقَدَّسَةُ». لاَ يَعْبُرُ فِيهَا نَجِسٌ، بَلْ هِيَ لَهُمْ. مَنْ سَلَكَ فِي الطَّرِيقِ حَتَّى الْجُهَّالُ، لاَ يَضِلُّ. وباختصار شديد فهناك بعد سبعين كيلومتر من مدينة جدة يوجد طريق

وعن حبقوق(٤٥٩) النبي – صلي الله عليه : " جاء الله من التيمن ، والقدوس من جبال فاران ، وامتلأت الأرض من تمجيد أحمد ، وتقديسه وملك الأرض ، ورقاب الأمم " (٤٦٠) وقد بينا أن جبال مكة تسمي في التوراة : جبال فاران .(٤٦١)

الطائف وعلي الطريق المتجه ناحية الشمال لافتة مكتوب عليها : " المدينة المقدسة ممنوع الدخول لغير المسلمين ".

٤٥٩ – ظهر حبقوق في أثناء السنوات الأخيرة قبل سقوط أُورشليم في سنة ٥٨٦ ق.م.، وقد رأى بعين النبوءة، في أواخر القرن السابع، الدينونة الماحقة التي ستحل بيهوذا، وتساءل بانزعاج: لماذا سمح الله بشُيُوع الشر في أوساط يهوذا وكيف يرضى الله أن يستخدم أُمة وثنية كالبابليين لمعاقبة يهوذا على شرها. وقد أجاب الله عن حيرة حبقوق وكشف له عن أكثر مما طلب، إذ أعطاه رؤْيا عن ذاته المقدسة. هذه البصيرة الجديدة لإدراك ذات الله، وتبين النبي عجزه ونقصه أمام كمال الله، منحاه الشجاعة على تحمل نكبات تلك الأيام السود بقوة وتصميم.

٤٦٠ – يقول النص : " ٣اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. ٤وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ. " (حبقوق ٣ : ٣–٤).

إن هذه النبؤة تشير إلي مكة المكرمة ، فقوله: " اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ " تشير إلي بلد في جنوب شرقي تبوك قرب من المدينة المنورة . وقوله : " اَلْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ " إنما هي إشارة إلي مكة ، وحينما يقول " جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ " إنه الأذان ، إنها صيحات " الله أكبر " التي تتردد في الآفاق في كل الأرض التي يسكنها المسلمون . إنها جلال الله الذي يغطي السماوات والأرض . إنها لا يمكن أن تشير إلي كنيس اليهود الذي يستخدم البوق ، ولا إلي كنيسة النصارى التي تستخدم الجرس ، ولكنها تشير إلي مئذنة المسجد حيث يعلوها المؤذن ليشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله . حتى إذا ما أقيمت الصلاة قام المسلمون خاشعين لله يسبحون ويكبرون ويسجدون بجباههم علي الأرض تعظيماً لله ولا يحدث هذا إلا في صلاة المسلمين. وأما قوله : " وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ " فما أعظم وما أمجد أن يرفع القرآن عالياً ففيه النعمة وفيه الهداية وفيه البركة وفيه كل الخير.

٤٦١ – إن "فاران" اسم مكة بالعبرانية ، وقيل اسم لجبال مكة وقد تطلق علي جبال الحجاز كلها . بينما يفهم من قاموس الكتاب المقدس أن فاران هي صحراء جنوب فلسطين المتاخمة لسيناء والممتدة إلي إيلات "العقبة" علي الخليج . فجعلت فاران بين سيناء وسعير وهو أمر ظاهر الخطأ (قاموس الكتاب المقدس ، ص ١٦٣).

ولنا أن نسأل أولئك الذين يصرون على أن فاران هي فاران سيناء : من هو القدوس الذي تلألأ من ذلكم الجبل الذي لا يرتبط بأدنى علاقة بأي من أحداث الإنسانية المهمة ، فمن الذي تلألأ عليه ؟ كما أن فاران صيغة تثنية من فار أو فارّ، بمعني الفارّان من مكان إلي مكان آخر أو المهاجران مع ملاحظة أن الفرار هنا كان لله تعالي﴿ ففروا إلي الله﴾. وهناك فرق : فالفارّ يخرج من مكان إلي مكان آخر بفعل فاعل وبغض النظر عن صفة هذا الفاعل ، والمهاجر هو الخارج من مكان إلي آخر طواعية ليس بفعل فاعل . وهاتان الصفتان نجدهما في حالة هاجر وابنها إسماعيل عليهما السلام . ففي ذلك المكان المعظم لجأ المهاجران هاجر

وإسماعيل بعد أن صحبهما إبراهيم عليه السلام إليه فأقاما فيه ، وعلي مقربة منهما وقف إبراهيم عليه السلام ينادي ربه: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ [إبراهيم : ٣٧] وفي تلك البرية الذي أطلق عليها إبراهيم عليه السلام اسم وادي غير ذي زرع ، يوجد جبل فاران الذي يحيط بذلك الوادي والذي وقف عليه إبراهيم يؤذن للناس ليأتوا إليه من كل فج عميق ثم دعا بدعوتيه السابقتين . وفي سفر التكوين: "ودعا هناك إبراهيم باسم الرب" .

فعندما يقول إبراهيم عليه السلام: ﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ نعلم من النص أن ذلك المكان لم يكن له اسم معروف وإنما أخذ اسمه من الأحداث التي جرت فيه (نبي أرض الجنوب : الشرقاوي ، ص ٨٩). والقصة كما رواها ابن عباس رضي الله عنه، وسجلها لنا الإمام البخاري في صحيحه نذكرها هنا نقلاً عن البداية والنهاية لابن كثير:

"أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل وهي ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم في أعلي المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جراباً فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفي إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس به إنس ولاشيء فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له : الله أمرك بهذا ؟ قال نعم . قالت : إذاً لا يضيعنا . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات ورفع يديه فقال :﴿ رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يلتوي أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل في الأرض يليها فقامت عليه استقبلت الوادي تنظر هل تري أحداً فلم تري أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفعت طرف ذراعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى إذا جاوزت الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل تري أحداً فلم تر أحداً ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس قال النبي صلي الله عليه وسلم فلذلك سعي الناس بينهما . فلما أشرفت علي المروة سمعت صوتاً فقالت صه تريد نفسها . ثم تسمعت فسمعت أيضاً فقالت قد أسمعت إن كان عندك غواث فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تخوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء في سقائها وهي تفور بعد ما تغرف . قال بن عباس: قال النبي صلي الله عليه وسلم يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ، أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عيناً معيناً. فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافي الضيعة فإن هنها بيت الله يبني هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله وكان البيت مرتفعاً من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كذا فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور علي الماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جرياً أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا تأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم ولكن لاحق لكم في الماء قالوا نعم . قال عبد الله بن عباس قال النبي صلي الله عليه وسلم فألفي ذلك أم إسماعيل وهي تحب الإنس فنزلوا وأرسلوا إلي أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات

وقال داوود – صلي الله عليه : في مزموره ، في صفة النبي صلي الله عليه – " أنه يجوز من البحر إلي البحر ، ومن لدن الأنهار إلي منقطع الأنهار ، وانه تجثو أهل الجزائر بين يديه علي ركبهم ، ويلحس أعداؤه التراب . تأتيه الملوك بالقرابين تسجد له وتدين له الأمم بالطاعة والانقياد ، لأنه يخلص المضطهد البائس ممن هو أقوي منه ، وينقذ الضعيف الذي لا ناصر له ، ويرؤف بالضعفاء والمساكين ، وأنه يعطي من ذهب بلاد سبأ ، ويصلي عليه في كل وقت ، ويبارك عليه في كل يوم ، ويدوم ذكره إلي الأبد ، وأن اسمه لموجود قبل الشمس والأمم كلها يتبركون به ، وكلهم يحمدونه " (٤٦٢)

منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته فقالت خرج يبتغي لنا . ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر في ضيق وشدة وشكت إليه . قال فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئاً فقال هل جاءكم من أحد ؟ فقالت : نعم جاءنا شيخ كذا وكذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة . قال فهل أوصاك بشيء ؟ قالت نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول لك غير عتبة بابك . قال : ذاك أبي وأمرني أن أفارقك ، فألحقي بأهلك فطلقها وتزوج منهم أخري ولبث عنه إبراهيم ما شاء الله . ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل علي امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا . قال : كيف أنتم وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت علي الله فقال ما طعامكم قالت : اللحم . قال : فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي صلي الله عليه وسلم : ولم يكن لهم يومئذ حب . ولو كان لهم حب لدعا لهم فيه فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال فأوصاك بشيء ؟ قالت نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال ذاك أبي وأمرني أن أمسكك . ثم لبث عنهم ما شاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الولد بالوالد والوالد بالولد. ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال فاصنع ما أمرك به ربك . قال وتعينني ؟ قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلي أكمة مرتفعة علي ما حولها قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذ ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم . قال وجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم."

٤٦٢ – أنظر سفر المزامير (مزمور ٧٢) : اللهم أعط أحكامك ... الخ .

ومن مزمور آخر لداوود – صلي الله عليه وعلي آله – " تقلد السيف ، فان ناموسك وشريعتك مقرونة بهيبة ، وسهامك مسنونة ، والأمم يخرون تحتك " (٤٦٣)

وليس في الأنبياء بعد داوود – صلي الله عليه – من تقلد السيف وحارب الأمم تحته . ومن قرنت شريعته بالهيبة غير نبينا – صلي الله عليه .

وأيضا في الزبور :" أن الله اصطفي أمته ، وأعطاه النصر ، وسدد الصالحين منهم بالكرامة ، ويسبحونه علي مضاجعهم ، ويكبرون الله بأصوات مرتفعة ، بأيديهم سيوف ذوات شفرتين ، لينتقم الله عز وجل من الأمم الذي لا يعبدونه ، يوثقون ملوكهم بالقيود ، وأشرافهم بالأغلال " (٤٦٤)

ومن الظاهر أن هذه صفة أمة نبينا – صلي الله عليه وعلي آله – لأنه ليس في غيرهم من الأمم من يكبر الله بأصوات مرتفعة ، ومعهم سيوف ذوات شفرتين ، يقاتلون بها من لا يعبد الله .

---

٤٦٣ – مزمور ٤٥ وإتماماً للفائدة رأينا عرض المزمور كاملاً ، فهو ينطبق على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – : " ١فَاضَ قَلْبِي بِكَلاَمٍ صَالِحٍ. مُتَكَلِّمٌ أَنَا بِإِنْشَائِي لِلْمَلِكِ. لِسَانِي قَلَمُ كَاتِبٍ مَاهِرٍ. ٢أَنْتَ أَبْرَعُ جَمَالاً مِنْ بَنِي الْبَشَرِ. انْسَكَبَتِ النِّعْمَةُ عَلَى شَفَتَيْكَ، لِذلِكَ بَارَكَكَ اللهُ إِلَى الأَبَدِ. ٣تَقَلَّدْ سَيْفَكَ عَلَى فَخْذِكَ أَيُّهَا الْجَبَّارُ، جَلاَلَكَ وَبَهَاءَكَ. ٤وَبِجَلاَلِكَ اقْتَحِمِ. ارْكَبْ. مِنْ أَجْلِ الْحَقِّ وَالدَّعَةِ وَالْبِرِّ، فَتُرِيكَ يَمِينُكَ مَخَاوِفَ. ٥نَبْلُكَ الْمَسْنُونَةُ فِي قَلْبِ أَعْدَاءِ الْمَلِكِ. شُعُوبٌ تَحْتَكَ يَسْقُطُونَ. ٦كُرْسِيُّكَ يَا اَللهُ إِلَى دَهْرِ الدُّهُورِ. قَضِيبُ اسْتِقَامَةٍ قَضِيبُ مُلْكِكَ. ٧أَحْبَبْتَ الْبِرَّ وَأَبْغَضْتَ الإِثْمَ، مِنْ أَجْلِ ذلِكَ مَسَحَكَ اللهُ إِلهُكَ بِدُهْنِ الابْتِهَاجِ أَكْثَرَ مِنْ رُفَقَائِكَ. ٨كُلُّ ثِيَابِكَ مُرٌّ وَعُودٌ وَسَلِيخَةٌ. مِنْ قُصُورِ الْعَاجِ سَرَّتْكَ الأَوْتَارُ. ٩بَنَاتُ مُلُوكٍ بَيْنَ حَظِيَّاتِكَ. جُعِلَتِ الْمَلِكَةُ عَنْ يَمِينِكَ بِذَهَبِ أُوفِيرٍ. ١٠اِسْمَعِي يَا بِنْتُ وَانْظُرِي، وَأَمِيلِي أُذُنَكِ، وَانْسَيْ شَعْبَكِ وَبَيْتَ أَبِيكِ، ١١فَيَشْتَهِيَ الْمَلِكُ حُسْنَكِ، لأَنَّهُ هُوَ سَيِّدُكِ فَاسْجُدِي لَهُ. ١٢وَبِنْتُ صُورٍ أَغْنَى الشُّعُوبِ تَتَرَضَّى وَجْهَكِ بِهَدِيَّةٍ. ١٣كُلُّهَا مَجْدٌ ابْنَةُ الْمَلِكِ فِي خِدْرِهَا. مَنْسُوجَةٌ بِذَهَبٍ مَلاَبِسُهَا. ١٤بِمَلاَبِسَ مُطَرَّزَةٍ تُحْضَرُ إِلَى الْمَلِكِ. فِي إِثْرِهَا عَذَارَى صَاحِبَاتُهَا. مُقَدَّمَاتٌ إِلَيْكَ. ١٥يُحْضَرْنَ بِفَرَحٍ وَابْتِهَاجٍ. يَدْخُلْنَ إِلَى قَصْرِ الْمَلِكِ. ١٦عِوَضًا عَنْ آبَائِكَ يَكُونُ بَنُوكَ، تُقِيمُهُمْ رُؤَسَاءَ فِي كُلِّ الأَرْضِ. ١٧أَذْكُرُ اسْمَكَ فِي كُلِّ دَوْرٍ فَدَوْرٍ. مِنْ أَجْلِ ذلِكَ تَحْمَدُكَ الشُّعُوبُ إِلَى الدَّهْرِ وَالأَبَدِ. "

٤٦٤ – " ١هَلِّلُويَا. غَنُّوا لِلرَّبِّ تَرْنِيمَةً جَدِيدَةً، تَسْبِيحَتَهُ فِي جَمَاعَةِ الأَتْقِيَاءِ. ٢لِيَفْرَحْ إِسْرَائِيلُ بِخَالِقِهِ. لِيَبْتَهِجْ بَنُو صِهْيَوْنَ بِمَلِكِهِمْ. ٣لِيُسَبِّحُوا اسْمَهُ بِرَقْصٍ. بِدُفٍّ وَعُودٍ لِيُرَنِّمُوا لَهُ. ٤لأَنَّ الرَّبَّ رَاضٍ عَنْ شَعْبِهِ. يُجَمِّلُ الْوُدَعَاءَ بِالْخَلاَصِ. ٥لِيَبْتَهِجِ الأَتْقِيَاءُ بِمَجْدٍ. لِيُرَنِّمُوا عَلَى مَضَاجِعِهِمْ. ٦تَنْوِيهَاتُ اللهِ فِي أَفْوَاهِهِمْ، وَسَيْفٌ ذُو حَدَّيْنِ فِي يَدِهِمْ. ٧لِيَصْنَعُوا نَقْمَةً فِي الأُمَمِ، وَتَأْدِيبَاتٍ فِي الشُّعُوبِ. ٨لأَسْرِ مُلُوكِهِمْ بِقُيُودٍ، وَشُرَفَائِهِمْ بِكُبُولٍ مِنْ حَدِيدٍ. ٩لِيُجْرُوا بِهِمِ الْحُكْمَ الْمَكْتُوبَ. كَرَامَةٌ هذَا لِجَمِيعِ أَتْقِيَائِهِ. هَلِّلُويَا. " (مزمور ١٤٩).

وعن إشعياء النبي – صلي الله عليه – وقيل أنه في الفصل التاسع : " **لنا ابن سلطانه كتفه ، وسلطانه هو حجته** " (٤٦٥) وقيل : أن هذا في النقل السرياني ، وأما النقل العبراني فقيل : أن فيه " علي كتفه علامة النبوة " وهذا التفسيران متقاربان . ومن المعلوم المستفيض : أن نبينا – صلي الله عليه وعلي آله – كان علي كتفه خاتم النبوة ، ولم ينقل أن ذلك كان لأحد من الأنبياء – صلوات الله عليهم ، سواه .

وفي التوراة ، وقيل أنه في السفر الخامس : قال الله عز وجل : " **أني أقيم لبني إسرائيل نبيا من إخوتهم مثلك ، اجعل كلامي علي فمه** " (٤٦٦)

---

٤٦٥ – أنظر سفر أشعياء " ٦لأَنَّهُ يُولَدُ لَنَا وَلَدٌ وَنُعْطَى ابْنًا، وَتَكُونُ الرِّيَاسَةُ عَلَى كَتِفِهِ، وَيُدْعَى اسْمُهُ عَجِيبًا، مُشِيرًا، إِلهًا قَدِيرًا، أَبًا أَبَدِيًّا، رَئِيسَ السَّلاَمِ. " (أشعياء ٩ : ٦). وفي صحيح الإمام مسلم من حديث جابر بن سَمُرَة قال : كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد شَمِطَ مُقَدَّمُ رأسهِ ولحيتهِ . وكان إذا ادَّهنَ لَم يتبينَّ ، وإذا شَعِثَ رأسه تَبَين . وكان كثير شعر اللحية . فقال رجل : وَجهُهُ مثل السيف ؟ قال : لا . بل كان مثل الشمس والقمر . وكان مستديراً . ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة يشبه جسده . وفي رواية أخرى يقول جابر بن سمرة : رأيت خاتماً في ظهر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأنه بيضة حمام . وعن الجعد بن عبد الرحمن ، قال : سمعت السائبَ بن يزيد يقول : ذهبت بي خالتي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقالت : يا رسول الله إن ابن أختي وَجِعُ . فمسح رأسي ودعا لي بالبركة . ثم توضأ فشربت من وضوئه .ثم قُمتُ خلف ظهرهِ فنظرتُ إلى خاتمِهِ بين كتفيه مثل زرِّ الحجلة . وقد وافقه البخاري (ج١) ، والترمذي (ج٥) . والحجلة بفتح الحاء والجيم هذا هو الصحيح المشهور ، والمراد بالحجلة واحدة الحجال ، وهي بيت كالقبة لها أزرار كبار وعرى ، هذا هو الصواب المشهور الذي قاله الجمهور . وجاء في صحيح البخاري : كانت بضعة ناشزة ، أي مرتفعة على جسده . (أنظر صحيح مسلم بشرح النووي ، ج٨ ، ص ١٠٩).

٤٦٦ – النص يقول : " ١٨أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. " وهذه النبوة ظنها البعض أنها تنطبق على يسوع المسيح ، كما ظنها بطرس كذلك فقال في خطابه في رواق سليمان : " ٢٢فَإِنَّ مُوسَى قَالَ لِلآبَاءِ: إِنَّ نَبِيًّا مِثْلِي سَيُقِيمُ لَكُمُ الرَّبُّ إِلهُكُمْ مِنْ إِخْوَتِكُمْ. لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ. ٢٣وَيَكُونُ أَنَّ كُلَّ نَفْسٍ لاَ تَسْمَعُ لِذلِكَ النَّبِيِّ تُبَادُ مِنَ الشَّعْبِ. ٢٤وَجَمِيعُ الأَنْبِيَاءِ أَيْضًا مِنْ صَمُوئِيلَ فَمَا بَعْدَهُ، جَمِيعُ الَّذِينَ تَكَلَّمُوا، سَبَقُوا وَأَنْبَأُوا بِهذِهِ الأَيَّامِ. ٢٥أَنْتُمْ أَبْنَاءُ الأَنْبِيَاءِ، وَالْعَهْدِ الَّذِي عَاهَدَ بِهِ اللهُ آبَاءَنَا قَائِلاً لإِبْرَاهِيمَ: وَبِنَسْلِكَ تَتَبَارَكُ جَمِيعُ قَبَائِلِ الأَرْضِ. " ، فحينما يقول النص على لسان موسى – عليه السلام – : " أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم " فإنَّ الضمير الغائب المتصل [هم] من كلمة (إخوتهم) يشكل حقيقة من الحقائق لو شاء الرب أن يجعل هذا النبي المنتظر أن يكون من بني إسرائيل لقال " أقيم لهم نبياً من وسط إخوتكم "

فيكون الضمير للمخاطب. أمّا أن يكون الضمير للغائب فمعني هذا أن النبوة ارتفعت بسلسلة النسب إلي إبراهيم عليه السلام . تقول التوراة : لقد بورك إبراهيم في الأرض التي قيل عنها أرض الميعاد ولم يرزق بعد بولد ثمَّ أُعطِيَ الولد . ونري في سفر التكوين[١٧: ١٨] أن إبراهيم يقول لله سبحانه : " لَيْتَ إِسْمَاعِيلَ يَعِيشُ أَمَامَكَ! " فقال الله له : " ٢٠وَأَمَّا إِسْمَاعِيلُ فَقَدْ سَمِعْتُ لَكَ فِيهِ. هَا أَنَا أُبَارِكُهُ وَأُثْمِرُهُ وَأُكَثِّرُهُ كَثِيرًا جِدًّا. اِثْنَيْ عَشَرَ رَئِيسًا يَلِدُ، وَأَجْعَلُهُ أُمَّةً كَبِيرَةً. هذا هو الوعد الذي وعده الله لسيدنا إبراهيم عليه السلام ، وهذا يدل علي أن النبي الذي يأتي لابد أن يأتي من ذرية إبراهيم عليه السلام وهو بتحديد أكثر من ذرية إسماعيل عليه السلام ؛ لأن الخطاب في تلك النبوءة موجه للغائب ، إذ لو كان النبي المنتظر من بني إسرائيل فحسب لقيل" من إخوانكم " ، ولكن النص يقول : " من وسط إخوتهم " ، والمراد بذلك أبناء عمومتهم . وإليك القرائن الدالة علي ذلك : ١- عن إسماعيل وذريته " ١٨وَسَكَنُوا مِنْ حَوِيلَةَ إِلَى شُورَ الَّتِي أَمَامَ مِصْرَ حِينَمَا تَجِيءُ نَحْوَ أَشُّورَ. أَمَامَ جَمِيعِ إِخْوَتِهِ نَزَلَ.(تكوين ٢٥ : ١٨). ٢- أدوم الذي هو عيسو:" ٤وَأَوْصِ الشَّعْبَ قَائِلاً: أَنْتُمْ مَارُّونَ بِتُخْمِ إِخْوَتِكُمْ بَنِي عِيسُو السَّاكِنِينَ فِي سِعِيرَ، فَيَخَافُونَ مِنْكُمْ فَاحْتَرِزُوا جِدًّا. " (تثنية ٢ : ٤). ٣- وصايا الله " ٧لاَ تَكْرَهْ أَدُومِيًّا لأَنَّهُ أَخُوكَ." (تثنية ٢٣ : ٧). ومن هنا فإنَّ لفظ الأخوة مقصود به أبناء إسماعيل لأنه جاء لفظ الأخوة بهذا الاستعمال الحقيقي في وعد الله هاجر في حق إسماعيل : "وأمام جميع إخوته يسكن ".

والنص كاملاً من سفر التثنية يقول : " يُقِيمُ لَكَ الرَّبُّ إِلهُكَ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِكَ مِنْ إِخْوَتِكَ مِثْلِي. لَهُ تَسْمَعُونَ. ١٦حَسَبَ كُلِّ مَا طَلَبْتَ مِنَ الرَّبِّ إِلهِكَ فِي حُورِيبَ يَوْمَ الاجْتِمَاعِ قَائِلاً: لاَ أَعُودُ أَسْمَعُ صَوْتَ الرَّبِّ إِلهِي وَلاَ أَرَى هذِهِ النَّارَ الْعَظِيمَةَ أَيْضًا لِئَلاَّ أَمُوتَ. ١٧قَالَ لِيَ الرَّبُّ: قَدْ أَحْسَنُوا فِي مَا تَكَلَّمُوا. ١٨أُقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِنْ وَسَطِ إِخْوَتِهِمْ مِثْلَكَ، وَأَجْعَلُ كَلاَمِي فِي فَمِهِ، فَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ مَا أُوصِيهِ بِهِ. ١٩وَيَكُونُ أَنَّ الإِنْسَانَ الَّذِي لاَ يَسْمَعُ لِكَلاَمِي الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي أَنَا أُطَالِبُهُ. ٢٠وَأَمَّا النَّبِيُّ الَّذِي يُطْغِي، فَيَتَكَلَّمُ بِاسْمِي كَلاَمًا لَمْ أُوصِهِ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ، أَوِ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِاسْمِ آلِهَةٍ أُخْرَى، فَيَمُوتُ ذلِكَ النَّبِيُّ. ٢١وَإِنْ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: كَيْفَ نَعْرِفُ الْكَلاَمَ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ؟ ٢٢فَمَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ بِاسْمِ الرَّبِّ وَلَمْ يَحْدُثْ وَلَمْ يَصِرْ، فَهُوَ الْكَلاَمُ الَّذِي لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهِ الرَّبُّ، بَلْ بِطُغْيَانٍ تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ، فَلاَ تَخَفْ مِنْهُ." (التثنية ١٨ : ١٥-٢٢). والأوصاف التسعة التي يتحدث عنها النص تنطبق بوضوح علي نبي الإسلام صلي الله عليه وسلم إذا حذفنا " من وسطك " فهذه العبارة وضعها الكاتب ضمن النص الأصلي للبس الحق بالباطل ليؤكد أن هذا النبي إذا جاء فإنه سيكون من بني إسرائيل ، والدليل علي ذلك أن النص يوضح من صفات النبي المنتظر أن يسمع اليهود ويطيعون أي يكون مشرعاً مثل موسي، وقد نصت شريعة موسي علي أنه لن يأتي نبي مشرع من بني إسرائيل كما أوضح سفر التثنية " ١٠وَلَمْ يَقُمْ بَعْدُ نَبِيٌّ فِي إِسْرَائِيلَ مِثْلُ مُوسَى الَّذِي عَرَفَهُ الرَّبُّ وَجْهًا لِوَجْهٍ " (سفر التثنية ٣٤: ١٠). كما أن عبارة "من إخوتك" تحريف للكلم من بعد مواضعه لأنها تحتمل معنيين:

المعني الأول: من إخوة اليهود أي أنه سيكون إسرائيلياً. والمعني الثاني: من إخوة اليهود أي أنه سيكون من بني إسماعيل ؛ لأن إسماعيل أخ لإسحاق ، وأولاد الأعمام يطلق عليهم إخوة . ولا ينصرف لفظ من إخوتك علي بني عيسو أخي يعقوب ولا علي أولاد إبراهيم من زوجته قطورة لأن اليهود والنصارى متفقون علي حرمان هؤلاء من هبات النبوة.

لقد حدد النص أن الأتي في المستقبل نبي مثل موسي . فهل عيسى في معتقد النصارى نبي أم اله ؟ إنه نبي في اعتقادنا نحن المسلمين وليس إلها. أما في اعتقاد النصارى فإنه إله. ففي كتاب الأبجية صلاة باكر: " هلم

وهذا يجب أن يكون المراد به نبينا – صلي الله عليه وآله – لأن أخوة بني إسرائيل يجب أن تكون غيرهم ، ويجب أن يكونوا أولاد إسماعيل – صلي الله

نسجد. هلم نسأل المسيح إلهنا ....هلُمَّ نسجد...هلُمَّ نطلب من المسيح ملكنا " ص ١٠. كما أن النصارى يقولون أن عيسى عليه السلام من نسل داود عليه السلام من سبط يهوذا من جهة الأُم ، ومن أوصاف النبي المنتظر أن يسمع اليهود له ويطيعونه في كل ما يكلمهم به ، إذاً فهو مشرع لهم . ولكن شريعة موسي نصت علي أنه لا مشرعَ غيره من بني إسرائيل " ولم يَقُم بعدُ نبي في إسرائيل مثل موسي الذي عَرِفَ الرب وجهاً لوجه " ، وعلي ذلك فلا يكون النبي المنتظر هو المسيح لأنه من بني إسرائيل.

ألم يقل النص "وأجعل كلامي في فمه" ؟ إنه التلقين ، وهو إشارة إلى أن هذا النبي ينزل عليه الكتاب وحياً لكونه أمياً ، وهو وصف القرآن للنبي محمد – صلى الله عليه وسلم – في قوله تعالى : " فَآمِنُواْ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ " [الأعراف : ١٥٨] ، وقوله تعالى : " وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ " [العنكبوت : ٤٨]. وأشعياء النبي قد تنبأ عن النبي الأُمي " ١١وَصَارَتْ لَكُمْ رُؤْيَا الْكُلِّ مِثْلَ كَلاَمِ السِّفْرِ الْمَخْتُومِ الَّذِي يَدْفَعُونَهُ لِعَارِفِ الْكِتَابَةِ قَائِلِينَ: «اقْرَأْ هذَا». فَيَقُولُ: «لاَ أَسْتَطِيعُ لأَنَّهُ مَخْتُومٌ». ١٢أَوْ يُدْفَعُ الْكِتَابُ لِمَنْ لاَ يَعْرِفُ الْكِتَابَةَ وَيُقَالُ لَهُ: «اقْرَأْ هذَا». فَيَقُولُ: « لاَ أَعْرِفُ الْكِتَابَةَ " (أشعياء ٢٩ : ١١-١٢).(

فالرسول صلى الله عليه وسلم باعتبار معجزته ذات طبيعة حجية عقلية علمية كان لابد أن يكون أمياً لا يقرأ ولا يكتب ، وذلك لإظهار الإعجاز بصورة كاملة ، فهو النبي الذي منعه الله أي معرفة قبل الوحي . أما تفسير الأمية الخاص بالأمة فله ثلاثة أبعاد :

البعد الأول : إطلاق اسم الأمية باعتبار انتسابها للنبي الأمي . ولذلك أثبت القرآن خضوع غير العرب من المسلمين لصفة الأمية باعتبار الانتساب للأمة الأمية في قوله تعالى : " وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ " [الجمعة : ٣] ، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : كُنا عند النبي – صلى الله عليه وسلم – فأنزلت عليه سورة الجمعة وآخرين منهم لمَّا يلحقوا بهم. قال قلت من هم يا رسول الله فلم يراجعه حتى سأل ثلاثا وفينا سلمانُ الفارسي وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على سلمان ثم قال لو كان الإيمان عند الثُّريا لناله رجال أو رجل من هؤلاء . (متفق عليه). ففي هذا الحديث دليل على عموم رسالته ، فقد فسر قوله تعالى وآخرين منهم لما يلحقوا بهم، قال هم الأعاجم وكل من صدق النبي من غير العرب.

البعد الثاني : هو عدم وجود أي معرفة حضارية للأمة قبل البعثة رغم معرفتها الثابتة للقرأة والكتابة .

البعد الثالث : هو البعد الجامع للأمية بين الرسول والأمة فهو معنى الأمية ومنهج الدعوة . فالأمية في منهج الدعوة ليست مستوى معرفي ولكنها أسلوب دعوي .. فنحن قوم أميون باعتبار أسلوب الدعوة الذي نراعي فيه كل المستويات البشرية الثقافية والعلمية . عن نافع عن ابن عمر – رضي الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذكر رمضان فضرب بيديه فقال الشهر هكذا وهكذا وهكذا ثم عقد إبهامه في الثالثة فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فإن أُغمي عليكم فاقدروا له ثلاثين. (متفق عليه). وهذا الحد يمثل الحد الأدنى للعقول التي نتعامل معها في دعوتنا ، وهو نقل الرسالة كما هي باعتبارها فطرة (رفاعي سرور ، في النفس والدعوة ، ص ٢٨٦).

عليه – وأولاد عيسو[٤٦٧] ، أو أولاد اسحق ، ولم يكن في أولاد عيسو بن اسحق نبي ، غير أيوب[٤٦٨] – صلي الله عليه – وكان هو قبل موسي – صلي الله عليه – فلا يصح أن يكون هو المراد . فيجب أن يكون المراد نبينا – صلي الله عليه – من ولد إسماعيل . يبين ذلك : أن بني إسرائيل لم يبعث فيهم نبي مثل موسي له شريعة ظاهرة قبل المسيح ، ولا يصح أن يقال : أن المراد به هو المسيح – صلي الله عليه – لأن القائل به ، إما أن يكون يهوديا منكرا لنبوته أو نصرانيا ، لا يقول : أنه كان مثل موسي – صلي الله عليه – لأن النصارى يقولون : أن المسيح ابن الله ، فلا يصح أن يكون مثل موسي – صلي الله عليه – فلم يبق إلا أن يكون المراد به نبينا – صلي الله عليه وآله – علي أن عيسي – صلي الله عليه – لم يكن مثل موسي – صلي الله عليه – لأن شريعته مبنية علي شريعة موسي[٤٦٩] ، وشريعة نبينا مثل شريعة موسي – صلي الله عليه – فإنها لم تبن علي شريعة غيره .

وعن أشعياء – صلي الله عليه : " قيل لي قم نظارا ، فانظر ما تري تخبر به ، قلت : أري راكبين مقبلين : أحدهما علي حمار والآخر علي جمل ، يقول أحدهما : هوت آلهة بابل[٤٧٠] ، وتكسرت عليه أصنامها المنجورة "[٤٧١] فكان

---

٤٦٧ – وعيسو اخ توأم ليعقوب و هو الأكبر (او من ولد اولا)كما أن يعقوب سرق منه البكورية بمساعدة أمه و عاد من الغربة التي هرب إليها بعد ما فعل ذلك و اعتذر لأخيه.

٤٦٨ – من سلالة سيدنا إبراهيم كان من النبيين الموحى إليهم، كان أيوب ذا مال وأولاد كثيرين ولكن الله ابتلاه في هذا كله فزال عنه، وابتلي في جسده بأنواع البلاء واستمر مرضه ١٣ أو ١٨ عاما اعتزله فيها الناس إلا امرأته صبرت وعملت لكي توفر قوت يومهما حتى عافاه الله من مرضه وأخلفه في كل ما ابتلي فيه، ولذلك يضرب المثل بأيوب في صبره وفي بلائه، روي أن الله يحتج يوم القيامة بأيوب عليه السلام على أهل البلاء.

٤٦٩ – ودليل ذلك من إنجيل متّى " ١٧لاَ تَظُنُّوا أَنِّي جِئْتُ لأَنْقُضَ النَّامُوسَ أَوِ الأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لأَنْقُضَ بَلْ لأُكَمِّلَ. ". (أنظر إنجيل متى ٥ : ١٧).

٤٧٠ – بابل : من البابلية باب + ايلو أي " باب الله " (من إعجاز القرآن ، ج١ ، ص ١٩٦)

٤٧١ – يقول النص : " ٦لأَنَّهُ هكَذَا قَالَ لِي السَّيِّدُ: «اذْهَبْ أَقِمِ الْحَارِسَ. لِيُخْبِرْ بِمَا يَرَى». ٧فَرَأَى رُكَّابًا أَزْوَاجَ فُرْسَانٍ. رُكَّابَ حَمِيرٍ. رُكَّابَ جِمَال. فَأَصْغَى إِصْغَاءً شَدِيدًا، ٨ثُمَّ صَرَخَ كَأَسَدٍ: «أَيُّهَا السَّيِّدُ، أَنَا قَائِمٌ عَلَى الْمَرْصَدِ دَائِمًا فِي النَّهَارِ، وَأَنَا وَاقِفٌ عَلَى الْمَحْرَسِ كُلَّ اللَّيَالِي. ٩وَهُوَذَا رُكَّابٌ مِنَ الرِّجَالِ. أَزْوَاجٌ مِنَ الْفُرْسَانِ». فَأَجَابَ وَقَالَ: «سَقَطَتْ، سَقَطَتْ بَابِلُ، وَجَمِيعُ تَمَاثِيلِ آلِهَتِهَا الْمَنْحُوتَةِ كَسَّرَهَا إِلَى الأَرْضِ "

راكب الحمار ، عيسي – صلي الله عليه – وراكب الجمل نبينا – صلي الله عليه وآله – وآلهة بابل لم تزل تعبد من لدن إبراهيم – صلي الله عليه – إلي أن بعث الله نبيه – صلي الله عليه – فعندما هوت وتكسرت ، واشتهار ركوب النبي – صلي الله عليه وعلي آله – الجمل ، كاشتهار ركوب عيسي – صلي الله عليه – الحمار. (٤٧٢)

وفي التوراة : " إذا جاءت الأمة الآخرة ، اتباع راكب البعير ، يسبحون الله تسبيحا جديدا في الكنائس الجدد ، فليفرح بنو إسرائيل ويسيرون إلي صهيون ، ولتطمئن قلوبهم ، لأنه اصطفي منهم في الأيام الآخرة أمة جديدة ، يسبحون الله بأصوات عالية ، بأيديهم سيوف ذات شفرتين ، فينتقمون له من الأمم الكافرة في جميع الأقطار . (٤٧٣)

وعن أشعياء النبي صلي الله عليه : " هكذا يقول الرب أنك ستأتي من جهة التيمن ، من بلد بعيد ، ومن أرض البادية مسرعا ، قدامك الروائع والرعارع والرياح "(٤٧٤) والتيمن هو ناحية الجنوب . (٤٧٥)

---

٤٧٢ – من النصوص الدالة على ذلك ما ورد في إنجيل متى : " ١وَلَمَّا قَرُبُوا مِنْ أُورُشَلِيمَ وَجَاءُوا إِلَى بَيْتِ فَاجِي عِنْدَ جَبَلِ الزَّيْتُونِ، حِينَئِذٍ أَرْسَلَ يَسُوعُ تِلْمِيذَيْنِ ٢قَائِلاً لَهُمَا:«اذْهَبَا إِلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمَامَكُمَا، فَلِلْوَقْتِ تَجِدَانِ أَتَانًا مَرْبُوطَةً وَجَحْشًا مَعَهَا، فَحُلاَّهُمَا وَأْتِيَانِي بِهِمَا. ٣وَإِنْ قَالَ لَكُمَا أَحَدٌ شَيْئًا، فَقُولاَ: الرَّبُّ مُحْتَاجٌ إِلَيْهِمَا. فَلِلْوَقْتِ يُرْسِلُهُمَا». ٤فَكَانَ هذَا كُلُّهُ لِكَيْ يَتِمَّ مَا قِيلَ بِالنَّبِيِّ الْقَائِلِ: ٥«قُولُوا لابْنَةِ صِهْيَوْنَ: هُوَذَا مَلِكُكِ يَأْتِيكِ وَدِيعًا، رَاكِبًا عَلَى أَتَانٍ وَجَحْشٍ ابْنِ أَتَانٍ». ٦فَذَهَبَ التِّلْمِيذَانِ وَفَعَلاَ كَمَا أَمَرَهُمَا يَسُوعُ، ٧وَأَتَيَا بِالأَتَانِ وَالْجَحْشِ، وَوَضَعَا عَلَيْهِمَا ثِيَابَهُمَا فَجَلَسَ عَلَيْهِمَا. (إنجيل متى ٢١ : ١–٧).

٤٧٣ – أنظر مزمور ١٤٩

٤٧٤ – يقول النص : " ٢٦فَيَرْفَعُ رَايَةً لِلأُمَمِ مِنْ بَعِيدٍ، وَيَصْفِرُ لَهُمْ مِنْ أَقْصَى الأَرْضِ، فَإِذَا هُمْ بِالْعَجَلَةِ يَأْتُونَ سَرِيعًا. ٢٧لَيْسَ فِيهِمْ رَازِحٌ وَلاَ عَاثِرٌ. لاَ يَنْعَسُونَ وَلاَ يَنَامُونَ، وَلاَ تَنْحَلُّ حُزُمُ أَحْقَائِهِمْ، وَلاَ تَنْقَطِعُ سُيُورُ أَحْذِيَتِهِمْ. ٢٨الَّذِينَ سِهَامُهُمْ مَسْنُونَةٌ، وَجَمِيعُ قِسِيِّهِمْ مَمْدُودَةٌ. حَوَافِرُ خَيْلِهِمْ تُحْسَبُ كَالصَّوَّانِ، وَبَكَرَاتُهُمْ كَالزَّوْبَعَةِ. ٢٩لَهُمْ زَمْجَرَةٌ كَاللَّبْوَةِ، وَيُزَمْجِرُونَ كَالشِّبْلِ، وَيَهِرُّونَ وَيُمْسِكُونَ الْفَرِيسَةَ وَيَسْتَخْلِصُونَهَا وَلاَ مُنْقِذَ. ٣٠يَهِرُّونَ عَلَيْهِمْ فِي ذلِكَ الْيَوْمِ كَهَدِيرِ الْبَحْرِ. فَإِنْ نُظِرَ إِلَى الأَرْضِ فَهُوَذَا ظَلاَمُ الضِّيقِ، وَالنُّورُ قَدْ أَظْلَمَ بِسُحُبِهَا. "

٤٧٥ – ورد في سفر أشعياء : " ١قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ، وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. ٢لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى. ٣فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ. ٤ارْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ. جَاءُوا إِلَيْكِ. يَأْتِي

وعنه من فضل ذكر هاجر ، وقال مخاطبا لها ولبلادها وولدها " مكة قومي ، وأنيري مصباحك فقد دنا وقتك ، وكرامة الله طالعة عليك ، فقد تخلل الأرض

بَنُوكِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي. ٥حِينَئِذٍ تَنْظُرِينَ وَتُنِيرِينَ وَيَخْفِقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ، لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ الْبَحْرِ، وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ. ٦تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ.(الله أكبر ، الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله ، الله أكبر الله أكبر ، ولله الحمد) ٧كُلُّ غَنَمِ (الأضحية) قِيدَارَ (جد النبي صلى الله عليه وسلم) تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ. كِبَاشُ نَبَايُوتَ تَخْدِمُكِ. تَصْعَدُ مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي، وَأُزَيِّنُ بَيْتَ جَمَالِي. ٨مَنْ هؤُلاَءِ الطَّائِرُونَ كَسَحَابٍ وَكَالْحَمَامِ إِلَى بُيُوتِهَا ؟ ٩إِنَّ الْجَزَائِرَ تَنْتَظِرُنِي، وَسُفُنَ تَرْشِيشَ فِي الأَوَّلِ، لِتَأْتِيَ بِبَنِيكِ مِنْ بَعِيدٍ وَفِضَّتُهُمْ وَذَهَبُهُمْ مَعَهُمْ، لاسْمِ الرَّبِّ إِلهِكِ وَقُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ، لأَنَّهُ قَدْ مَجَّدَكِ. " (أشعياء ٦٠ : ١-٨). لاحظ أن الكلام هنا عبارة عن نبوة مستقبلية وينصرف إلى مدينة بعينها ، إنها مدينة يأتي إليها الناس من كل دول العالم براً وبحراً وجواً وتنحر فيها الأضاحي من جمال مديان وعيفه وشبا ، وغنم قيدار وكباش نبايوت . وكل هذه المسميات من مواقع جغرافيه وأسماء قبائل ، كلها تقع في أرض الجنوب في شبه الجزيرة العربية ولا علاقة لها بفلسطين أو أورشليم . فمناطق مديان وعيفه وشبا تشمل الجزء الغربي لشبه الجزيرة العربية من خليج العقبة شمالا وحتى أقصى الجنوب في اليمن العربي بمحاذاة ساحل البحر الأحمر أي تشمل إقليم الحجاز كاملا . فقيدار ونبايوت من أبناء إسماعيل عليه السلام ، والمقصود هنا القبائل العربية التي من نسل قيدار ونبايوت المقيمون بوادي بكة وبرية فاران . ومن ذرية قيدار بن إسماعيل جاء النبي العربي الأمي محمد – صلي الله عليه وسلم – ولا دخل للمسيحيين بهذا النص ؛ لأنهم لا يقدمون الأضاحي لله تعالي كما يفعل المسلمون ، كما أنه لا دخل لليهود بهذا النص فمدينتهم المقدسة ليست بأرض الجنوب . " ١فَصَعِدَ أَبْرَامُ مِنْ مِصْرَ هُوَ وَامْرَأَتُهُ وَكُلُّ مَا كَانَ لَهُ، وَلُوطٌ مَعَهُ إِلَى الْجَنُوبِ." فكلمة الجنوب تشير إلي خروج القافلة الإبراهيمية من مصر وبالتحديد عبر شبه جزيرة سيناء . وبرسم خريطة مبسطة لطريق الخروج عبر سيناء نجد أن اتجاه الجنوب من سيناء يشير إلي إقليم الحجاز في شبه جزيرة العرب . والنص هنا يتكلم عن الصعود من سيناء مصر ، أي السير إلي جهة الجنوب بالنسبة إلي سيناء ثم التأكيد علي اتجاه السير بعبارة : إلي الجنوب . فالفقرة الأولي من النص تتكلم عن الاتجاهات الجغرافية لسير القافلة ولا تتكلم عن محطات الانتقال ولا مسميات الأماكن . والمسيحيون لا يعترفون بأن إبراهيم قد صعد إلي مكة المكرمة ، فماذا يفعلون حيال ذلك النص الذي ينسف رفضهم للتواجد الإبراهيمي بمكة المكرمة ؟!

" ٣وَسَارَ فِي رِحْلاَتِهِ مِنَ الْجَنُوبِ إِلَى بَيْتِ إِيلَ، إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي كَانَتْ خَيْمَتُهُ فِيهِ فِي الْبَدَاءَةِ، بَيْنَ بَيْتِ إِيلَ وَعَايَ، ٤إِلَى مَكَانِ الْمَذْبَحِ الَّذِي عَمِلَهُ هُنَاكَ أَوَّلاً. وَدَعَا هُنَاكَ أَبْرَامُ بِاسْمِ الرَّبِّ. " (التكوين ١٣ : ٣-٤).

أي أن الهدف من هذه الرحلة الجنوبية هو الوصول إلي (بيت إيل) ، والغرض من الوصول هناك هو أن يقوم إبراهيم عليه السلام بالدعاء باسم الرب. فإذا كان الهدف هو الوصول إلي مكان بيت إيل والرحلة بدأت طريقها إليه متخذة اتجاه الجنوب ، فإنه بالتأكيد يوجد في اتجاه الجنوب . وإلا فلا معني لسير القافلة جنوباً وبيت إيل يوجد في أقصي الشمال الشرقي لحدود مصر أي فلسطين . (أنظر جمال الشرقاوي ، نبي أرض الجنوب ، ص ٢٦). كما أن المسميات التي ذكرت في النص مثل: مديان وعيفه وشبا وترشيش وقيدار ونبايوت . هي مسميات عربية ، سواء لأماكن أو قبائل أو أشخاص .

الظلام ، وغطي علي الأمم الضباب ، فالرب يشرق عليك إشراقا ، ويظهر كرامته عليك ، وتسير الأمم الضباب ، فالرب يشرق عليك إشراقا ، ويظهر كرامتك عليك ، وتسير الأمم إلي نورك والملوك إلي ضوء طلوعك ، أرفعي بصرك إلي ما حولك وتأملي ، فإنهم سيجتمعون كلهم إليك ويحجونك ، ويأتيك ولدك من بلد بعيد ، وسترين ذلك فتبتهجين ، وتفرحين ، ويستروح قلبك ، من أجل أنه يميل إليك ذخائر البحر ، وتحج إليك عساكر الإبل ، حتي تعمرك الإبل المابلة ، وتضيق أرضك عن القطرات التي تجتمع أليك ويساق إليك كباش مدين وتسير إليك أغنام قيدار ،وتخدمك رجال نبايوت " ([٤٧٦]). وقيدار هو ابن إسماعيل – صلي الله عليه – وهو جد النبي- صلي الله عليه – ونبايوت هو أخو قيدار وأولاده شديدو القلب .

ومن كتاب أشعياء : " سكان البادية والمدن وقصور آل قيدار : يسبحون ،ومن رؤوس الجبال : ينادون ، هم الذين يجعلون لله الكرامة ، وينهون تسبيحه في البر والبحر ، يرفع علما لجميع الأمم ، فيصفر لهم من أقاصي الأرض فإذا هم

---

٤٧٦ – النص هو : " ١تَرَنَّمِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَمْ تَلِدْ. أَشِيدِي بِالتَّرَنُّمِ أَيَّتُهَا الَّتِي لَمْ تَمْخَضْ، لأَنَّ بَنِي الْمُسْتَوْحِشَةِ أَكْثَرُ مِنْ بَنِي ذَاتِ الْبَعْلِ، قَالَ الرَّبُّ. ٢أَوْسِعِي مَكَانَ خَيْمَتِكِ، وَلْتُبْسَطْ شُقَقُ مَسَاكِنِكِ. لاَ تُمْسِكِي. أَطِيلِي أَطْنَابَكِ وَشَدِّدِي أَوْتَادَكِ، ٣لأَنَّكِ تَمْتَدِّينَ إِلَى الْيَمِينِ وَإِلَى الْيَسَارِ، وَيَرِثُ نَسْلُكِ أُمَمًا، وَيُعْمِرُ مُدُنًا خَرِبَةً. ٤لاَ تَخَافِي لأَنَّكِ لاَ تَخْزَيْنَ، وَلاَ تَخْجَلِي لأَنَّكِ لاَ تَسْتَحِينَ. فَإِنَّكِ تَنْسَيْنَ خِزْيَ صِبَاكِ، وَعَارُ تَرَمُّلِكِ لاَ تَذْكُرِينَهُ بَعْدُ. ٥لأَنَّ بَعْلَكِ هُوَ صَانِعُكِ، رَبُّ الْجُنُودِ اسْمُهُ، وَوَلِيُّكِ قُدُّوسُ إِسْرَائِيلَ، إِلهَ كُلِّ الأَرْضِ يُدْعَى. ٦لأَنَّهُ كَامْرَأَةٍ مَهْجُورَةٍ وَمَحْزُونَةِ الرُّوحِ دَعَاكِ الرَّبُّ، وَكَزَوْجَةِ الصِّبَا إِذَا رُذِلَتْ، قَالَ إِلهُكِ. ٧لُحَيْظَةً تَرَكْتُكِ، وَبِمَرَاحِمَ عَظِيمَةٍ سَأَجْمَعُكِ. ٨بِفَيَضَانِ الْغَضَبِ حَجَبْتُ وَجْهِي عَنْكِ لَحْظَةً، وَبِإِحْسَانٍ أَبَدِيٍّ أَرْحَمُكِ، قَالَ وَلِيُّكِ الرَّبُّ. ٩لأَنَّهُ كَمِيَاهِ نُوحٍ هذِهِ لِي. كَمَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ تَعْبُرَ بَعْدُ مِيَاهُ نُوحٍ عَلَى الأَرْضِ، هكَذَا حَلَفْتُ أَنْ لاَ أَغْضَبَ عَلَيْكِ وَلاَ أَزْجُرَكِ. ١٠فَإِنَّ الْجِبَالَ تَزُولُ، وَالآكَامَ تَتَزَعْزَعُ، أَمَّا إِحْسَانِي فَلاَ يَزُولُ عَنْكِ، وَعَهْدُ سَلاَمِي لاَ يَتَزَعْزَعُ، قَالَ رَاحِمُكِ الرَّبُّ. ١١أَيَّتُهَا الذَّلِيلَةُ الْمُضْطَرِبَةُ غَيْرُ الْمُتَعَزِّيَةِ، هأَنَذَا أَبْنِي بِالأُثْمُدِ حِجَارَتَكِ، وَبِالْيَاقُوتِ الأَزْرَقِ أُؤَسِّسُكِ، ١٢وَأَجْعَلُ شُرَفَكِ يَاقُوتًا، وَأَبْوَابَكِ حِجَارَةً بَهْرَمَانِيَّةً، وَكُلَّ تُخُومِكِ حِجَارَةً كَرِيمَةً ١٣وَكُلَّ بَنِيكِ تَلاَمِيذَ الرَّبِّ، وَسَلاَمَ بَنِيكِ كَثِيرًا. ١٤بِالْبِرِّ تُثَبَّتِينَ بَعِيدَةً عَنِ الظُّلْمِ فَلاَ تَخَافِينَ، وَعَنِ الارْتِعَابِ فَلاَ يَدْنُو مِنْكِ. ١٥هَا إِنَّهُمْ يَجْتَمِعُونَ اجْتِمَاعًا لَيْسَ مِنْ عِنْدِي. مَنِ اجْتَمَعَ عَلَيْكِ فَإِلَيْكِ يَسْقُطُ. ١٦هأَنَذَا قَدْ خَلَقْتُ الْحَدَّادَ الَّذِي يَنْفُخُ الْفَحْمَ فِي النَّارِ وَيُخْرِجُ آلَةً لِعَمَلِهِ، وَأَنَا خَلَقْتُ الْمُهْلِكَ لِيَخْرِبَ. ١٧كُلُّ آلَةٍ صُوِّرَتْ ضِدَّكِ لاَ تَنْجَحُ، وَكُلُّ لِسَانٍ يَقُومُ عَلَيْكِ فِي الْقَضَاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ. هذَا هُوَ مِيرَاثُ عَبِيدِ الرَّبِّ وَبِرُّهُمْ مِنْ عِنْدِي، يَقُولُ الرَّبُّ. " (أشعياء ٥٤).

سراع يأتون " ([٤٧٧]) وقيدار بن إسماعيل هو جد النبي – صلي الله عليه وعلي آلـه – ونداؤهم بالتلبية من رؤوس الجبال ، وتسبيحهم لله جل وعز هو الذي ظهر مـن المسلمين ، والنبي – صلي الله عليه – هو صفر لمواسـم – أي نـادي – فـاتوه مسرعين .

وفي الإنجيل قال المسيح – صلي الله عليه – للحـواريين : " أنـا ذاهـب وسيأتيكم الفيرقليط ، روح الحق الذي لا يتكلم من قبل نفسه ، إنما هو كما يقال له ، وهو يشهد علي به " وفي حكاية يوحنا عن المسيح – صلي الله عليه :" الفيرقلط لا يجيئكم ما لم أذهب ، فإذا جاء وبخ العالم علي الخطية ، ولا يقـول مـن تلقـاء نفسه شيئا ، ولكن مما يسمع به يكلمكم ، ويسوسكم بالحق ، ويخبـركم بـالحوادث والغيوب " ([٤٧٨])

---

٤٧٧ – النص يقول : " ١١لِتَرْفَعِ الْبَرِّيَّةُ وَمُدُنُهَا صَوْتَهَا، الدِّيَارُ الَّتِي سَكَنَهَا قِيدَارُ. لِتَتَرَنَّمْ سُكَّانُ سَالِعَ. مِنْ رُؤُوسِ الْجِبَالِ لِيَهْتِفُوا. ١٢لِيُعْطُوا الرَّبَّ مَجْدًا وَيُخْبِرُوا بِتَسْبِيحِهِ فِي الْجَزَائِرِ. ١٣الرَّبُّ كَالْجَبَّارِ يَخْرُجُ. كَرَجُلِ حُرُوبٍ يُنْهِضُ غَيْرَتَهُ. يَهْتِفُ وَيَصْرُخُ وَيَقْوَى عَلَى أَعْدَائِهِ. " (أشعياء ٤٢ : ١١-١٣).

٤٧٨ – من أعظم بشارات العهد الجديد بالنبي الخاتم هي نبوءات المسيح عن مجيء البارقليط . وينفرد يوحنا في إنجيله بذكر هذه البشارات المتوالية من المسيح بهذا النبي المنتظر ، حيث يقول المسيح موصياً تلاميذه : " ١٥إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ، ١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، ١٧رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لاَ يَسْتَطِيعُ الْعَالَمُ أَنْ يَقْبَلَهُ، لأَنَّهُ لاَ يَرَاهُ وَلاَ يَعْرِفُهُ، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَعْرِفُونَهُ لأَنَّهُ مَاكِثٌ مَعَكُمْ وَيَكُونُ فِيكُمْ. ١٨لاَ أَتْرُكُكُمْ يَتَامَى. إِنِّي آتِي إِلَيْكُمْ. ١٩بَعْدَ قَلِيل لاَ يَرَانِي الْعَالَمُ أَيْضًا، وَأَمَّا أَنْتُمْ فَتَرَوْنَنِي. إِنِّي أَنَا حَيٌّ فَأَنْتُمْ سَتَحْيَوْنَ. ٢٠فِي ذلِكَ الْيَوْمِ تَعْلَمُونَ أَنِّي أَنَا فِي أَبِي، وَأَنْتُمْ فِيَّ، وَأَنَا فِيكُمْ. ٢١اَلَّذِي عِنْدَهُ وَصَايَايَ وَيَحْفَظُهَا فَهُوَ الَّذِي يُحِبُّنِي، وَالَّذِي يُحِبُّنِي يُحِبُّهُ أَبِي، وَأَنَا أُحِبُّهُ، وَأُظْهِرُ لَهُ ذَاتِي. ٢٢قَالَ لَهُ يَهُوذَا لَيْسَ الإِسْخَرْيُوطِيَّ:«يَا سَيِّدُ، مَاذَا حَدَثَ حَتَّى إِنَّكَ مُزْمِعٌ أَنْ تُظْهِرَ ذَاتَكَ لَنَا وَلَيْسَ لِلْعَالَمِ؟» ٢٣أَجَابَ يَسُوعُ وَقَالَ لَهُ:«إِنْ أَحَبَّنِي أَحَدٌ يَحْفَظْ كَلاَمِي، وَيُحِبُّهُ أَبِي، وَإِلَيْهِ نَأْتِي، وَعِنْدَهُ نَصْنَعُ مَنْزِلاً. ٢٤اَلَّذِي لاَ يُحِبُّنِي لاَ يَحْفَظُ كَلاَمِي. وَالْكَلاَمُ الَّذِي تَسْمَعُونَهُ لَيْسَ لِي بَلْ لِلآبِ الَّذِي أَرْسَلَنِي. ٢٥بِهذَا كَلَّمْتُكُمْ وَأَنَا عِنْدَكُمْ. ٢٦وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. ٢٧سَلاَمًا أَتْرُكُ لَكُمْ. سَلاَمِي أُعْطِيكُمْ. لَيْسَ كَمَا يُعْطِي الْعَالَمُ أُعْطِيكُمْ أَنَا. لاَ تَضْطَرِبْ قُلُوبُكُمْ وَلاَ تَرْهَبْ. ٢٨سَمِعْتُمْ أَنِّي قُلْتُ لَكُمْ: أَنَا أَذْهَبُ ثُمَّ آتِي إِلَيْكُمْ. لَوْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي لَكُنْتُمْ تَفْرَحُونَ لأَنِّي قُلْتُ أَمْضِي إِلَى الآبِ، لأَنَّ أَبِي أَعْظَمُ مِنِّي. ٢٩وَقُلْتُ لَكُمُ الآنَ قَبْلَ أَنْ يَكُونَ، حَتَّى مَتَى كَانَ تُؤْمِنُونَ. ٣٠لاَ أَتَكَلَّمُ أَيْضًا مَعَكُمْ كَثِيرًا، لأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ يَأْتِي وَلَيْسَ لَهُ فِيَّ شَيْءٌ. " (يوحنا ١٤ : ١٥-٣٠). وفي الإصحاح الذي يليه يعظ المسيح تلاميذه طالباً منهم حفظ وصاياه ، ثم يقول: " وَمَتَى جَاءَ الْمُعَزِّي الَّذِي سَأُرْسِلُهُ أَنَا إِلَيْكُمْ مِنَ الآبِ، رُوحُ الْحَقِّ، الَّذِي مِنْ عِنْدِ الآبِ يَنْبَثِقُ، فَهُوَ يَشْهَدُ لِي. ٢٧وَتَشْهَدُونَ أَنْتُمْ أَيْضًا لأَنَّكُمْ مَعِي مِنَ الابْتِدَاءِ. (يوحنا ١٥ : ٢٦).

" ١لقَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا لِكَيْ لاَ تَعْثُرُوا. ٢سَيُخْرِجُونَكُمْ مِنَ الْمَجَامِعِ، بَلْ تَأْتِي سَاعَةٌ فِيهَا يَظُنُّ كُلُّ مَنْ يَقْتُلُكُمْ أَنَّهُ يُقَدِّمُ خِدْمَةً للهِ. ٣وَسَيَفْعَلُونَ هذَا بِكُمْ لأَنَّهُمْ لَمْ يَعْرِفُوا الآبَ وَلاَ عَرَفُونِي. ٤لكِنِّي قَدْ كَلَّمْتُكُمْ بِهذَا حَتَّى إِذَا جَاءَتِ السَّاعَةُ تَذْكُرُونَ أَنِّي أَنَا قُلْتُهُ لَكُمْ. وَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ مِنَ الْبِدَايَةِ لأَنِّي كُنْتُ مَعَكُمْ. ٥وَأَمَّا الآنَ فَأَنَا مَاضٍ إِلَى الَّذِي أَرْسَلَنِي، وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْكُمْ يَسْأَلُنِي: أَيْنَ تَمْضِي؟ ٦لكِنْ لأَنِّي قُلْتُ لَكُمْ هذَا قَدْ مَلأَ الْحُزْنُ قُلُوبَكُمْ. ٧لكِنِّي أَقُولُ لَكُمُ الْحَقَّ: إِنَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ أَنْ أَنْطَلِقَ، لأَنَّهُ إِنْ لَمْ أَنْطَلِقْ لاَ يَأْتِيكُمُ الْمُعَزِّي، وَلكِنْ إِنْ ذَهَبْتُ أُرْسِلُهُ إِلَيْكُمْ. ٨وَمَتَى جَاءَ ذَاكَ يُبَكِّتُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيَّةٍ وَعَلَى بِرّ وَعَلَى دَيْنُونَةٍ: ٩أَمَّا عَلَى خَطِيَّةٍ فَلأَنَّهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ بِي. ١٠وَأَمَّا عَلَى بِرّ فَلأَنِّي ذَاهِبٌ إِلَى أَبِي وَلاَ تَرَوْنَنِي أَيْضًا. ١١وَأَمَّا عَلَى دَيْنُونَةٍ فَلأَنَّ رَئِيسَ هذَا الْعَالَمِ قَدْ دِينَ. ١٢إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. ١٣وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ١٤ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، لأَنَّهُ يَأْخُذُ مِمَّا لِي وَيُخْبِرُكُمْ. " (يوحنا ١٦ : ١-١٢). ففي هذه النصوص يتحدث المسيح عن صفات الآتي بعده ، فمن هو هذا الآتي ؟ يجيب النصارى بأن الآتي هو روح القدس الذي نزل على التلاميذ يوم الخمسين ليعزيهم في فقدهم للسيد المسيح ، وهناك " ١وَلَمَّا حَضَرَ يَوْمُ الْخَمْسِينَ كَانَ الْجَمِيعُ مَعًا بِنَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ٢وَصَارَ بَغْتَةً مِنَ السَّمَاءِ صَوْتٌ كَمَا مِنْ هُبُوبِ رِيحٍ عَاصِفَةٍ وَمَلأَ كُلَّ الْبَيْتِ حَيْثُ كَانُوا جَالِسِينَ، ٣وَظَهَرَتْ لَهُمْ أَلْسِنَةٌ مُنْقَسِمَةٌ كَأَنَّهَا مِنْ نَارٍ وَاسْتَقَرَّتْ عَلَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ. ٤وَامْتَلأَ الْجَمِيعُ مِنَ الرُّوحِ الْقُدُسِ، وَابْتَدَأُوا يَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَةٍ أُخْرَى كَمَا أَعْطَاهُمُ الرُّوحُ أَنْ يَنْطِقُوا. " (أعمال الرسل ٢ : ١-٤). ويعتقد المسلمون أن ما جاء في إنجيل يوحنا عن المعزي، إنما هو بشارة من المسيح بمحمد صلى الله عليه وسلم، ويتضح ذلك من أمور :

أن عيسي عليه السلام كان يتكلم باللسان العبراني لا باليوناني، فإذاً لا يبقي شك في أن الإنجيل الرابع (يوحنا) ترجم اسم المبشر به باليوناني بحسب عادتهم، ثمّ مترجمو العربية عرّبوا اللفظ اليوناني بـ(بارقليط). (أنظر إظهار الحق ص ١١٨٧). ومنها أن لفظة " المعزي " لفظة حديثة استبدلتها التراجم الجديدة للعهد الجديد، فيما كانت التراجم العربية القديمة تضع الكلمة اليونانية (الباركليت) كما هي، وهو ما تصنعه كثير من التراجم العالمية. (أنظر الطبعات ١٨٤٤ ، ١٨٣١ ، ١٨٢٣ ، ١٨٢١). وفي تفسير كلمة "باركليت " اليوناني نقول : المصطلح بارقليط وصورته اليونانية باركليت لا يوجد إلا في كتابات يوحنا المنسوب إليه الإنجيل الرابع ورسالتين معروفتين باسمه . ولم يتعرف علي ذلك المصطلح أحد من كتبة باقي الأناجيل اليونانية وسائر كتبة أسفار العهد الجديد سواء المعروف منها أو المكتشفة حديثاً . فلم يذكره بولس في رسالته ، ولم يذكره أصحاب الأناجيل الثلاثة وباقي كتبة رسائل العهد الجديد ، وهم جميعاً أسبق في التدوين من يوحنا. لماذا ؟

وفي النسخ العربية نجد فيها بدلاً من الاسم بارقليط الكلمات (المعزي والمعين والمؤيد والشفيع) وفي الترجمات الإنجليزية قالوا: (Comforter، Advocate ، Helper ،..... Counselor) وكل هذه المحاولات جنوح عن لغة المسيح عليه السلام . فتجد في الرسالة الأولي ليوحنا : " " ١يَا أَوْلاَدِي، أَكْتُبُ إِلَيْكُمْ هذَا لِكَيْ لاَ تُخْطِئُوا. وَإِنْ أَخْطَأَ أَحَدٌ فَلَنَا شَفِيعٌ عِنْدَ الآبِ، يَسُوعُ الْمَسِيحُ الْبَارُّ. " (رسالة يوحنا الأولى ٢ : ١).

إن هذا اللفظ اليوناني الأصل ، لا يخلو من أحد حالين ، الأول أنه " بارا كلي توس " . فيكون حسب قول النصارى بمعنى : المعزي والمعين والوكيل . والثاني أنه " بيريكليتوس " ، فيكون قريباً من معنى : محمد وأحمد . (أنظر إظهار الحق). وأحمد ومحمد تعني موضع الثناء والحمد ، وهي تترجم في اللغة اليونانية دائماً بكلمة " بيريكليتوس " . وإنجيل يوحنا حالياً في النسخة الإنجليزية يستخدم كلمة (Comforts)

أي : معزي ، بضم الميم وكسر الزاي مشددة كترجمة للكلمة اليونانية " باراكليتوس " والتي تعني شفيع أو مدافع ، وهو الشخص الذي يدعي لمساعدة آخر أو صديق حميم أكثر مما تعني معزي . وكلمة باراكليتوس هي تحريف في القرأة للكلمة الأصلية " بيريكليتوس " . (أنظر ديدات ، محمد الخليفة الطبيعي للمسيح ، ص ٣٨). يقول أسقف بني سويف الأنبا اثناسيوس في تفسيره لإنجيل يوحنا : " إن لفظ بارقليط إذا حرف نطقه قليلاً يصير " بيركليت " ، ومعناه : الحمد أو الشكر ، وهو قريب من لفظ " أحمد ". (أحمد حجازي السقا ، نبؤة محمد في الكتاب المقدس ، ص ١٠١). لقد غيروا " بيركليت " بكسر الباء ، إلي " باركليت " بفتح الباء . وقالوا إن معني " بيركليت " أحمد ومعني " باركليت " الآتي عوضا عن المسيح ليعزّي بني إسرائيل في فقدهم الملك والشريعة. (السابق ، ص ٩٩). وهنا يجب مراعاة أن كلمة قليط تحتوي علي حرفين لا يستطيع اليونانيون أن ينطقوهما نطقا صحيحا هما : القاف والطاء ، حيث يتحولان عندهم إلي الكاف والتاء ، فيقولون كليت بدلاً من قليط . (الشرقاوي ، نبي أرض الجنوب ، ص ٣٠٣ بتصرف). ويقول القمص مرقس عزيز خليل: إن الكلمة اليونانية هي: باراكليتس، ومعناها المعزي، أما بيركليتس فمعناها المحمود ، والمشهور. (استحالة تحريف الكتاب المقدس ، ص ٣٣٩). ومما يؤكد خطأ الترجمة أن اللفظة اليونانية (بيركليتس) اسم لا صفة ، فقد كان من عادة اليونانيين زيادة السين في آخر الأسماء ، وهو ما لا يصنعونه في الصفات. ويرى عبد الأحد داود أن تفسير الكنيسة للباركليت بأنه " شخص يدعى للمساعدة أو شفيع أو محام أو وسيط " غير صحيح ، فإن كلمة بارقليط اليونانية لا تفيد أياً من هذه المعاني ، فالمعزي في اليونانية يدعى (باركالوف أو باريجوريس) ، والمحامي تعريب للفظة (سانجرس) ، وأما الوسيط أو الشفيع فتستعمل له لفظة " ميديتيا "، وعليه فعزوف الكنيسة عن معنى الحمد إلى أي من هذه المعاني إنما هو نوع من التحريف. (عبد الأحد داود ، الإنجيل والصليب ، ص ٣٥). ومثل هذا التحريف لا يستغرب وقوعه في كتب القوم ، ففيها من الطوام مما يجعل تحريف كلمة " البيركليت " من السهل الهين. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل المسيح استخدم كلمة المعزي باللغة العربية ؟ بالطبع لا. لأن عيسي عليه السلام لم يكن يتحدث اللغة العربية ، وبالمثل فهو لم يكن يتحدث اللغة الإنجليزية حتى يستخدم كلمة (Comforts) التي تعني مساعد أو معاون . فمن هو المعزي : " ٢٦وَأَمَّا الْمُعَزِّي، الرُّوحُ الْقُدُسُ، الَّذِي سَيُرْسِلُهُ الآبُ بِاسْمِي، فَهُوَ يُعَلِّمُكُمْ كُلَّ شَيْءٍ، وَيُذَكِّرُكُمْ بِكُلِّ مَا قُلْتُهُ لَكُمْ. (يوحنا ١٤ : ٢٦). فهل المعزي هو الروح القدس ؟ النصارى جميعاً يجيبون بنعم ؟! إذن فلنقرأ هذا النص: " ١٦وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الآبِ فَيُعْطِيكُمْ مُعَزِّيًا آخَرَ لِيَمْكُثَ مَعَكُمْ إِلَى الأَبَدِ، " (يوحنا ١٤ : ١٦). والنص في اللغة الإنجليزية يقول: if you love me you will keep my commandment . and I will pray the father and He will give you another counselor to be with you for ever وترجمته هي : إن كنتم تحبوني حافظوا علي وصاياي وسوف أدعوا (أتوسل) للآب وهو سوف يعطيكم مرشداً (بارقليط) آخر يبقي معكم إلي الأبد. إن قول المسيح عليه السلام وسوف أدعوا أو أتوسل معناه التضرع إلي الله سبحانه وتعالي وهو لا يكون بين طرفين متساويين وإنما بين عبد وإله ، ولكن القوم ترجموها في العربية إلي (أطلب). ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم. ونركز هنا علي كلمة " آخر " ومعناها شخص بخلاف الأول ولكن من نفس النوع وإن كان يختلف بوضوح عن الشخص الأول. فمن إذاً هو المعزي الأول؟؟

أو قُل : من هو البارقليط الأول ؟ الكل متفق علي أنه المتكلم نفسه عيسي عليه السلام. إذاً فإن الآخر لابد أن يكون من نفس الطبيعة والنوعية ، يجوع ويعطش ويتعب ....الخ. ولكن المعزي الموعود " يمكث معكم إلي الأبد " إنه سيبقي ويستمر إلي الأبد.. كل الرسل يمكثون معنا إلي الأبد. موسى معنا اليوم بتعاليمه وعيسي

معنا بتعاليمه ومحمد معنا بتعاليمه ، عليهم جميعاً صلوات الله وتسليماته. (ديدات ، محمد الخليفة الطبيعي للمسيح ، ص ٥١-٣٥ بتصرف). وأياً كان المعنى للبارقليط : أحمد أو المعزي فإن الأوصاف والمقدمات التي ذكرها المسيح للبارقليط تمنع أن يكون المقصود به روح القدس ، وتؤكد أنه كائن بشري يعطيه الله النبوة . وذلك واضح من خلال التأمل في نصوص يوحنا عن البارقليط .

" ١٢ إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. ١٣ وَأَمَّا مَتَى جَاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِرُكُمْ بِأُمُورٍ آتِيَةٍ. ١٤ ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، " (يوحنا ١٦ : ١٢-١٤). فإن يوحنا استعمل في حديثه عن البارقليط أفعالاً حسية مثل (الكلام، والسمع، والتوبيخ) في قوله: " كل ما يسمع يتكلم به " وهذه الصفات لا تنطبق على الألسنة النارية التي هبت على التلاميذ يوم الخمسين، إذ لم ينقل أن الألسنة النارية تكلمت يوم ذاك بشيء، وأما الروح فغاية ما يصنعه إنما هو الإلهام القلبي، وأما الكلام فهو صفة بشرية، لا روحية. ومن صفات الآتي أنه يجيء بعد ذهاب المسيح من الدنيا، فالمسيح وذلك الرسول المعزي لا يجتمعان في الدنيا، وهذا ما يؤكد مرة أخرى أن المعزى لا يمكن أن يكون الروح القدس الذي أيد المسيح طيلة حياته، بينما المعزي لا يأتي الدنيا والمسيح فيها " إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزي". وروح القدس سابق في الوجود على المسيح، وموجود في التلاميذ من قبل ذهاب المسيح، فقد كان شاهداً عند خلق السماوات والأرض. (أنظر سفر التكوين الإصحاح الأول). كما كان له دور في ولادة عيسى حيث أن أمه " وجدت حبلى من الروح القدس " (متى ١ : ١٨). كما اجتمعا سوياً يوم تعميد المسيح، حين " نـزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة " (لوقا ٣ : ٢٢). فالروح القدس موجود مع المسيح وقبله، وأما المعزي " إن لم أنطلق لا يأتيكم "، فهو ليس الروح القدس. ومما يدل على بشرية الروح القدس أنه من نفس نوع المسيح ، والمسيح كان بشراً ، وهو يقول عنه: " وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزياً آخر " ، وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة (allon) وهي تستخدم للدلالة على الآخر من نفس النوع، فيما تستخدم كلمة (hetenos) للدلالة على آخر من نوع مغاير. وإذا قلنا إن المقصود من ذلك رسول آخر أصبح كلامنا معقولاً، ونفتقد هذه المعقولية إذا قلنا: إن المقصود هو روح القدس الآخر، لأن روح القدس واحد وغير متعدد. ثم إن الآتي عرضة للتكذيب من قبل اليهود والتلاميذ ، لذا فإن المسيح يكثر من الوصية بالإيمان به واتباعه ، فيقول لهم : " إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي " ، ويقول : " قلت لكم قبل أن يكون ، حتى إذا كان تؤمنوا " ، ويؤكد على صدقه فيقول : " لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به ". فكل هذه الوصايا لا معنى لها إن كان الآتي هو الروح القدس ، حيث نزل على شكل ألسنة نارية ، فكان أثرها في نفوسهم معرفتهم للغات مختلفة ، فمثل هذا لا يحتاج إلى وصية للإيمان به والتأكيد على صدقه. والروح القدس أحد أطراف الثالوث ، وينبغي وفق عقيدة النصارى أن يكون التلاميذ مؤمنين به ، فلم أوصاهم بالإيمان به ؟ كما أن روح القدس وفق كلام النصارى إله مساو للآب في إلوهيته ، وعليه فهو يقدر أن يتكلم من عند نفسه ، وروح الحق الآتي " لا يتكلم من نفسه ، بل كل ما يسمع يتكلم به " . إن ذلك النص يشابه ما جاء بسفر التثنية " وأجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به " (تثنية ١٨ : ١٨) ويشبه ما قاله القرآن الكريم ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴾ [النجم : ٣] وقوله تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة : ٦٧] كما أن المسيح أخبر أنه قبل أن يأتي البارقليط ستقع أحداث هامة وبارزة " سيخرجونكم من المجامع ، بل تأتي ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله " ، فالنص لا يتحدث عن اضطهاد الرومان أو اليهود لأتباع المسيح ، وإنما يتحدث عن اضطهاد رجالات الكنيسة لأتباع المسيح الموحدين ، وهم – أي رجال

الكهنوت – يظنون أنهم بذلك يحسنون صنعاً ، ويقدمون خدمة لله ودينه ، فقـررت مجـامعهم طـرد آريـوس والموحدين ، وأخرجوهم من المجامع الكنسية ، وحكموا عليهم بالحرمان والاضطهاد ، واسـتمر الاضـطهاد بأتباع المسيح حتى ندر الموحدون قبيل ظهور الإسلام. وذكر يوحنـا أن المـسيح خبّـر تلاميـذه بأوصـاف البارقليط ، والتي لم تتمثل بالروح القدس الحال على التلاميذ يوم الخمسين ، فهو شاهد تضاف شـهادته إلـى شهادة التلاميذ في المسيح " فهو يشهد لي ، وتشهدون أنتم أيضاً " فأين شهد الروح القـدس للمـسيح ؟ وبـم شهد؟ في حين نجد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم شهد للمسيح بالبراءة من الكفر وادعاء الألوهية والبنـوة لله ، كما شهد ببراءة أمه مما رماها به اليهود ﴿ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرْيَمَ بُهْتَاناً عَظِيماً ﴾ [النـساء : ١٥٦] يقول تعالي: ﴿ مَّا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ﴾ [المائـدة : ٧٥] ، ويقول تعالي:﴿ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللّهِ وَكَلِمَتُهُ ﴾ [النساء : ١٧١] ويقول تعـالي: ﴿ وَإِذْ قَـالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم ﴾ [الصف : ٦] والآيات السابقة من القرآن الكريم تـشهد علي لسان النبي محمد صلي الله عليه وسلم أن عيسى عليه السلام رسول الله. وهذه هي الشهادة. " وتـشهدون أنتم أيضاً لأنكم معي من الابتدأ ". فبماذا شـهد التلاميذ ؟

شهادة بطـرس:

" أَيُّهَا الرِّجَالُ الإِسْرَائِيلِيُّونَ اسْمَعُوا هذِهِ الأَقْوَالَ: يَسُوعُ النَّاصِرِيُّ رَجُلٌ قَدْ تَبَرْهَنَ لَكُمْ مِـنْ قِبَـلِ اللهِ بِقُوَّاتٍ وَعَجَائِبَ وَآيَاتٍ صَنَعَهَا اللهُ بِيَدِهِ فِي وَسْطِكُمْ، كَمَا أَنْتُمْ أَيْضًا تَعْلَمُونَ. " (أعمال الرسل ٢ : ٢٢).

شهادة نيقوديموس:

"يا معلم نعلم أنك قد أتيت من الله معلماً". (يوحنا ٣ : ١-٢)، فهو يشهد بأن عيـسي عليـه الـسلام رسول ومعلم.

شهادة الشاب الغني:

"وإذا واحد تقدم وقال له: أيها المعلم الصالح أي صلاح أعمل". (متى ١٩ : ١٦). فلم يدعوه ربـاً أو إلـه بل دعاه "معلم" أي رسول.. " فقالت الجموع : هذا هو يسوع النبي الذي من ناصرة الجليـل ". (متـى ٢١ : ١١). وأخبر المسيح عن تمجيد الآتي له ، فقال: " ذاك يمجدني ، لأنه يأخذ مما لي ويخبـركم " ولـم يمجـد المسـيح أحد ظـهر بعده كما مجده نبي الإسلام ، فقد أثنى عليه ، وبيّن فضله على سائر العالمين فـي حـين أنه لم ينقل لنا أي من أسفار العهد الجديد أن روح القدس أثنى على المسيح أو مجده يوم الخمسين ، حين نـزل على شكل ألسنة نارية. كما أن البارقليط " يذكركم بكل ما قلته لكم " وليس من حاجة بعد رفعه بعـشرة أيـام إلى مثل هذا التذكير، ولم ينقل العهد الجديد أن روح القدس ذكرهم بشيء ، بل إنا نجد كتاباتهم ورسائلهم فيهـا ما يدل على تقادم الزمن ونسيان الكاتب لبعض التفاصيل التي يذكرها غيره، بينما ذكر رسـول الله صـلى الله عليه وسلم بكل ما غفلت عنه البشرية من أوامر الله التي أنزلها على أنبيائه ومـنهم المـسيح عليـه الـسلام. والبارقليط له مهمات لم يقم بها الروح القدس يوم الخمسين فهو " متى جاء ذاك يبكت العـالم علـى خطيـة، وعلى بر، وعلى دينونة " ولم يوبخ الروح القدس أحداً يوم الخمسين ، بل هذا هو صنيع رسول الله صـلى الله عليه وسلم مع البشرية الكافرة. إن التوبيخ على البر قد فسره المسيح بقوله بعده: " وأما على بر فلأني ذاهـب إلى أبي ولا ترونني " ، ومعناه أنه سيوبخ القائلين بصلبه ، المنكرين لنجاته من كيد أعدائه ، وقد أخبرهم أنـه سيطلبونه ولن يجدوه ، لأنه سيصعد إلى السماء ، " يا أولادي أنا معكم زماناً قليلاً بعد، سـتطلبونني ، وكمـا قلت لليهود حيث أذهب أنا لا تقدرون أنتم أن تأتوا، أقول لكم أنتم الآن ..." (يوحنا ١٣ : ٣٢). كمـا سـيوبخ

النبي الآتي الشيطان ويدينه بما يبثه من هدي ووحي " وأما على دينونة فلأن رئيس هـذا العـالم قـد ديـن".
وصفة التوبيخ لا تناسب من سمي بالمعزي، وقيل بأنه جاء إلى التلاميذ يعزيهم بفقد سيدهم ونبيهم. ثم العـزاء إنما يكون في المصائب، والمسيح كان يبشرهم بذهابه ومجيء الآتي بعده. كما أن العزاء إنمـا يكـون حـين المصيبة وبعدها بقليل، وليس بعد عشرة أيام (موعد نزول الروح القدس على التلاميذ)، ثـم لمـاذا لـم يقـدم المعزي القادم العزاء لأم المسيح، فقد كانت أولى به. ولا يجوز للنصارى أن يعتبـروا قتـل المـسيح علـى الصليب مصيبة تستوجب العزاء ، إذ هو برأيهم سبب الخلاص والسعادة الأبدية للبشرية ، فوقوعه فرحة مـا بعدها فرحة ، وإصرار النصارى على أن التلاميذ احتاجوا لعزاء الروح القدس يبطل عقيدة الفداء والخـلاص.
ومن استعراض ما سبق ثبت بأن روح القدس ليس هو الباركليت ، فكل صفات الباركليت صفات لنبي يـأتي بعد عيسى ، وهو النبي الذي بشر به موسى عليه السلام ، فالبارقليط " لا يتكلم من نفسه ، بل كل مـا يـسمع يتكلم به " ، وكذا الذي بشر به موسى " أجعل كلامي في فمه ، فيكلمهم بكل ما أوصيه بـه " ، وهـو وصـف النبي صلي الله عليه وسلم كما قال الله ﴿ وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى ، علمه شـديد القـوى ﴾ (النجم : ٣-٥).
روح الحق :
" ١٢إِنَّ لِي أُمُورًا كَثِيرَةً أَيْضًا لأَقُولَ لَكُمْ، وَلكِنْ لاَ تَسْتَطِيعُونَ أَنْ تَحْتَمِلُوا الآنَ. ١٣وَأَمَّا مَتَـى جَـاءَ ذَاكَ، رُوحُ الْحَقِّ، فَهُوَ يُرْشِدُكُمْ إِلَى جَمِيعِ الْحَقِّ، لأَنَّهُ لاَ يَتَكَلَّمُ مِنْ نَفْسِهِ، بَلْ كُلُّ مَا يَسْمَعُ يَتَكَلَّمُ بِهِ، وَيُخْبِـرُكُمْ بِـأُمُورٍ آتِيَةٍ. ١٤ذَاكَ يُمَجِّدُنِي، " (يوحنا ١٦ : ١٢-١٤).
ويقول تعالي: ﴿ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي ﴾.
لقد تنبأ يسوع عن أنبياء كذبة وحذر منهم تلاميذه، حيث قال لهم: " احترزوا مـن الأنبيـاء الكذبـة " (متى ٧ : ١٥). ويقول يوحنا في رسالته الأولي عن الأنبياء الكذبة: " أيها الأحباء لا تصدقوا كـل روح بـل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلي العالم " (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ١).
لقد فسر يوحنا معني كلمة روح وبين أنها تعني نبي، فعبارة يوحنا (الروح الحق) معناها (النبي الحـق) وذلـك حسب رواية يوحنا ، وبناءً علي ذلك يكون البارقليط هو النبي الحق والرسول الحق. هؤلاً هم الأنبيـاء الكذبـة الذين كتب عنهم كل من يسوع ويوحنا ، وأما قول يوحنا عن النبي "البارقليط" الآتي فإن سـمته البـارزة أنـه "روح الحق". وفي نص رسالة يوحنا نلاحظ أن كلمة "روح " استخدمت مرادفة لكلمة النبي "لا تـصدقوا كـل روح بل امتحنوا الأرواح" أي أن الروح الحقيقي هو النبي الحقيقي، والروح المزيف هو النبي المزيف، وعلـي ذلك فإن الروح القدس تبعاً للقديس يوحنا هو النبي القدسي. وما هو إلا محمد صلي الله عليه وسلم.
المعيـــار:
كيف نتعرف علي النبي الحق الذي هو روح الحق؟
يقول يوحنا في رسالته الأولي: "بهذا تعرفون روح الله كل روح يعترف بيسوع المسيح أنه قد جاء في الجـسد فهو من الله" (رسالة يوحنا الأولى ٤ : ٢). عرفنا أن معني روح الله أي نبي الله ومعني كل روح أي كل نبـي طبقاً لكلمات يوحنا السابقة في الرسالة الأولي.
فماذا قال النبي محمد صلي الله عليه وسلم عن عيسي عليه السلام؟؟
هل اعترف بيسوع المسيح؟

لقد ذُكر عيسي عليه السلام باسمه "عيسي" في القرآن ٢٥ مرة، وكُنّي عنه بأوصاف مثـل: النبـي ــ روح الله ــ كلمة الله ــ من الصالحين ....الخ (ديدات ، محمد الخليفة الطبيعي للمسيح ، ص ٥٠-٥٢ بتصرف).
ويخبركم بأمور آتية

هذا يشير إلي عظمة الإسلام وعلو مصدره لأنه ــ أي القرآن ــ يحدثنا عن الإعجاز العلمي الذي مـا كان يستطيعه ذلك النبي الأمي الذي عاش في بيئة أمية في القرن السابع الميلادي، بـل مـا كـان يـستطيعه أساطين العلم والحكمة في ذلك الزمان، والقرآن الكريم يضم بين دفتيه أكثر من ٧٠٠ آية تتحدث عن الإعجـاز العلمي . وفي هذا الصدد يمكن الرجوع إلي مؤلفات الشيخ عبد المجيد الزنداني، والـدكتور محمـد منـصور حسب النبي، والدكتور زغلول النجار. "إن القرآن ليس كتاباً متخصصا في الطب أو الفلك أو طبقـات الأرض، كما أنه ليس مرجعاً في الكيميا أو الطبيعة أو الرياضيات. لكن شيئاً من ذلك قد يورده في معرض الهداية مـن قبيل إقامة الأدلة علي الحقيقة المنشودة التي سيق الكلام لها أصلاً.. وهو إذ يوردهـا فإنما يوردها مجملـة لا مفصلة مراعاة لمدارك مستقبلية من الناس، حتى لا يحدث بما لا يستطيعون إدراكه فيكذبوه..!" (عبد الحميـد ندا ، المدخل إلى التفسير ، ص ٤٦٥). يقول إبراهيم خليل أحمد: " لقد حضرت المـؤتمر الطبـي الإسـلامي الدولي عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم المنعقد بجامعة الدول العربية بالقـاهرة فـي الفتـرة مـن ٢٢-٢٦ سبتمبر ١٩٨٥وكانت المفاجأة السارة والمبهرة ونحن جلوس حول مائدة السيد رئيس الجمهورية فـي مـساء الخميس ٢٦ سبتمبر ١٩٨٥ بفندق ماريوت بالزمالك إذ نطـق البروفيـسور اليـسون بـالمر professor A. palmer رئيس اللجنة التنظيمية للمؤتمر المئوي للجمعية الجيولوجية الأمريكية نطق قائلاً: أشهد أن لا إلـه إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله. في حضرة مندوب رئيس الجمهورية والإمام الأكبر شـيخ الجـامع الأزهـر. وقال : إن القرآن الكريم لا ريب هو كلام الله، ثم تلا قوله تعالي: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ثُـمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامـاً فَكَـسَوْنَا الْعِظَـامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ [المؤمنون : ١٤] ، وتلا قوله تعالى : ﴿ الَّـذِي أَحْـسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاء مَّهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِـن رُّوحِـهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ [السجدة : ٧-٩]. وقال: إن العلماء قد قضوا سـنوات مضنية من البحوث عن نشأة الجنين في رحم المرأة وكيف تدب فيه الحياة. ولقد انبهر بالقرآن الكـريم حينمـا استمع لتلاوة الشيخ عبد المجيد الزنداني لهذه الآيات وأبصرها بنفسه وقرأها في تدبر وقال: إن القرآن الكـريم سبق العلم الحديث في هذا المضمار العلمي، ومن ثم فإن القرآن الكريم هـو كلام الله حقاً. وإنه لشرف كبيـر أن يعلن إسلامه ويبرأ من كل دين يغاير دين الإسلام. (إبراهيم خليل احمد ، محاضرات في مقارنة الأديـان ، ص ١١٩).

إعجاز للكافرين:

يقول تعالي﴿ تبت يدا أبي لهب وتب. ما أغني عنه ماله وما كسب. سيصلي ناراً ذات لهب. وامرأتـه حمالة الحطب. في جيدها حبل من مسد﴾.

فهذه السورة نزلت في أبي لهب وكان كافراً ونزلت في أمر اختياري وهو الإيمان. قالت الآيـة إن أبـا لهـب سيموت كافراً وسيدخل النار، ماذا كان يحدث لقضية الإيمان لو أن أبا لهب جمع كفار قريش وقـال لهـم: إن محمداً قال عني كلاماً .. ويقول إنه منزل من الله تعالي وأنني سأموت كافراً. وأنا أقولها لكم وأمامكم: أشـهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. لتعرفوا أن هذا الكلام الذي قاله محمد ليس من عند الله. ولكـن لأن الله

هو القائل لم يدر بخاطر أبي جهل أن يستخدم هذه القضية في هدم الإسلام، ومات أبو لهب كافراً كما قرر القرآن. (الشعراوي ، معجزات الرسول ، ص ٢٩). يقول تعالي: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئاً لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ [الحج : ٧٣-٧٤]. فهل تعلم أن الذباب فيه غدة لعابية غنية باللعاب، واللعاب الذي في الذباب يجعله إذا سقط علي شيء من الأطعمة فوراً يسقط عليه لعاباً كثيراً فيحوله إلي شيء آخر فلو أردنا أن نستخلص قطعة من السكر أخذها الذباب ما استطعنا إلي ذلك سبيلا، لماذا ؟ لأنه بمجرد أن يأخذ الشيء يفرز عليه من لعابه ويحوله إلي مادة أخري. ومع التقدم العلمي اكتشف العلم اليوم وله أدلته علي أن السماء تتسع بتكوين نجوم جديدة وتتباعد أجزائها. حتى أن بعضهم يقول الكون يشبه بالون كبير يُنفخ فيه. والله تعالي يقول: ﴿ وَالسَّمَاء بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴾ [الذاريات : ٤٧] . يقول تعالي: ﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [الرعد : ٢] . وبالمشاهدة نقول أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي. وقد أثبت العلم أن هناك عمداً غير مرئية تتمثل في قانون الجاذبية وهي التي تساعد كل هذه الأجرام علي البقاء في أمكنتها المحددة. يقول تعالي: ﴿ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً ﴾ [الأعراف : ٥٤] .

وهذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار. ولكنها تحوي إشارة رائعة إلي دوران الأرض محورياً وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل والنهار طبقاً لمعلوماتنا الحديثة ومن بين المشاهدات التي أدلي بها رجل الفضاء الروسي "جاجارين" بعد دورانه في الفضاء حول الأرض: أنه شاهد تعاقباً سريعاً للظلام والنور علي سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس. (وحيد الدين خان ، الإسلام يتحدى ، ص ١٩٩). والآيات الكونية كثيرة في صريح القرآن الكريم وصحيح السنة ، ومع ذلك نجد القرآن لم يطاوع عبقرية الصحابة فيما نبغوا فيه من سؤال يسبق زمنهم ويفوق إمكانات عصرهم ، وذلك حين سألوا عن الأهلة : لماذا يولد القمر هلالاً ، ثم يستوي بدراً ، ثم ينتهي محاقاً ؟ وتلك ظاهرة فلكية بحتة، لها علاقتها الخاصة بمنازل القمر ودورانه في فلكه الذي يسبح فيه ﴿ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس : ٤٠]

وشرح هذه الظاهرة الفلكية لا تؤمن عواقبه، بالنسبة لبداوة العقول في عمومها، ونظراً لعدم توفر وسائل الكشوف الفلكية وعدم تهيؤ العصر لعمل المراصد أو التلسكوبات .. لذلك عدل عن الجواب المباشر وأجاب عن لازم السؤال وهو آثار الأهلة وأهميتها .. فقال تعالي ﴿ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة : ١٨٩]

إذ من الرحمة بالعباد أن يحدثوا علي قدر عقولهم وأن يخاطبوا علي قدر مداركهم واستعدادهم الذهني .. ومن ثم وعد الله سبحانه وتعالي الناس بأن يكشف لهم مستقبلاً عن الحقائق الكونية التي أجملها القرآن في كثير من آياته وسوره، فقال تعالي : ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [فصلت : ٥٣] . وقال سبحانه :﴿ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنعام : ٦٧]. بل إن القرآن الكريم ليخبر أن من أسباب تكذيب أولئك الذين كذبوا بالقرآن أنهم عجزوا عن الإحاطة بعلمه، كما أنهم عجلوا دون انتظار بيانه وتأويله، فقال تعالي : ﴿ بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴾ [يونس : ٣٩]. ومن ثم أكد لهم أن الزمان سيأتي بالحقائق التي تكشف عن مصداقيته، فقال تعالي : ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴾ [ص : ٨٨]

لذلك لم يكن لرسول الله ﷺ أن يسبق الأوان ويقتحم حاجز الزمان، ولم يكن له بالتالي أن يفسر الآيات الكونية إلا بقدر، حتى لا يكون تفسيره لها بمثابة الولادة القيصرية قبل أوانها، تماماً كإجابته عبد الله

وفصول كثيرة في التوراة والزبور والإنجيل .

بن سلام حين سأله "من أي شيء ينزع الولد إلي أبيه؟" . فكان جوابه ﷺ "وأما الشبه في الولد: فإن الرجل إذا اغشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له .. وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها" .

وبالطبع لم يكن بوسعه ﷺ أن يجيب بكلام مفصل يشرح فيه عملية التكاثر مبيناً أن نطفة الرجل تحتوي على عامل الذكورة وعامل الأنوثة معاً، وأن أحدهما هو الذي ينتج عنه نوع الجنين ....الخ (المدخل ، ص ٢١٩).

ذاك يمجدني

أي ذاك يدفع عني الشبهات. وما هي الشبهات التي يدفعها نبي الإسلام محمد ﷺ عن عيسي عليه السلام ؟؟

إنها خمس شبهات:

١. الإله المتجسد.
٢. البنوة الإلهية.
٣. الثالوث المقدس.
٤. الخطيئة الأصلية.
٥. الفداء (الصليب).

دحض الشبهات:

أولاً- شبهة الإله المتجسد.

يقول تعالي: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللّهُ عَلَيهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة : ٧٢]

ثانياً- شبهة البنوة الإلهية. يقول تعالي: ﴿ قل هو الله أحد، الله الصمد، لو يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ﴾ ويقول تعالي: ﴿ وَقَالُواْ اتَّخَذَ اللّهُ وَلَداً سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة : ١١٧]

ثالثاً- شبهة التثليث.

يقول تعالي: ﴿ لاَ تَقُولُواْ ثَلاَثَةٌ انتَهُواْ خَيْراً لَّكُمْ ﴾ [النساء : ١٧١] ، ويقول تعالي: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ ثَالِثُ ثَلاَثَةٍ ﴾ [المائدة : ٧٣]

رابعاً- شبهة الخطيئة الأصلية.

يقول تعالي: ﴿ لاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ﴾ [الإسراء : ١٥].

خامساً- شبهة الصلب.

يقول تعالي: ﴿ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلاَّ اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناً بَل رَّفَعَهُ اللّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللّهُ عَزِيزاً حَكِيماً ﴾ [النساء : ١٥٧-١٥٨] .

إن كل ما ذكر عن البارقليط له شواهد في القرآن والسنة تقول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم هو صاحب هذه النبوءة، إذ هو الشاهد للمسيح، وهو المخبر بالغيوب، الذي لا نبي بعده، وقد ارتضى الله دينه إلى قيام الساعة ديناً.. (إبراهيم خليل احمد ، محاضرات في مقارنة الأديان ، ص ١٢٢ بتصرف).

وعن أشعياء وغيره من الأنبياء – صلوات الله عليهم أجمعين – غير ما ذكرنا . لكنا اقتصرنا علي هذا القدر ، لأن فيه كفاية ، وهذه الفصول يقر بها حفاظ أهل الكتاب وليسوا ينكرون منها إلا اسم نبينا – صلوات الله عليه – ويتأولون النبوءات تأويلات ظاهرة الفساد .

ومن المعلوم أن النبي – صلي الله عليه وعلي آله – تلا عليهم : ﴿ **الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ** ﴾ (٤٧٩) وتلا حكاية عن المسيح – صلي الله عليه : ﴿ **إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقاً لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّراً بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ** ﴾ (٤٨٠) وتلا ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (٤٨١) وتلا : ﴿ **الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءهُمْ** ﴾ (٤٨٢)

فلو لم تكن هذه الآيات من عند الله عز وجل ، ولم يكن اسمه مكتوبا في كتبهم ، ولم يكن أحبارهم عالمين بذلك ، لم يكن – صلي الله عليه – يورد عليهم ذلك ؛ لأنه لا يزيدهم إلا نفارا عنه ، وتحققا بتقوله ، حاشاه من ذلك .

فإن قيل : هذا الذي حكيتم من كتب الأنبياء – صلوات الله عليهم – صحيح ، وهذه الصفات موجودة في تلك الكتب ، إلا أن الموصوف بها لم يجئ بعد بتة.

قيل له : أرأيتم أن جاء من تدعونه ، ثم أنكره منكر . ما يكون برهانكم عليه ؟

فإن قيل : إذا جاء أتي بالمعجزات ، فمهما قالوا في ذلك فهو جوابنا .

ثم يقال لهم : إذا أتي من توجد فيه الأوصاف المذكورة فيجب أن نعلم أنه هو الذي بشرت به الأنبياء، صلوات الله عليه ، لأنه لا يجوز أن يعرفنا نبي من

---

٤٧٩ – [الأعراف : ١٥٧]

٤٨٠ – [الصف : ٦]

٤٨١ – آل عمران ٧٠-٧١.

٤٨٢ – البقرة ١٤٦.

الأنبياء ، أنه يأتيكم رجل حاله كذا ، وصفته كذا ، فإذا أتاكم فافعلوا به كذا ، من تصديق أو تكذيب ثم يأتينا رجل بتلك الصفة ،ولا يكون هو مرادا بذلك الخبر ، بل يكون المراد غيره ، والمقصود سواه ، لأنه لو كان ذلك كذلك كان ضربا من التلبيس ، ويجب أن يمنع الله – عز وجل منه ، وفي هذا إبطال هذا السؤال .

فإن قيل : بينوا أن تلك الأوصاف حاصلة لنبيكم – صلي الله عليه وعلي آله – .

قيل له : ما جاء في التوراة ،جاء الله من سيناء ، وأشرق من ساعير ، واستعلن من جبل فاران ، " لا التباس في أن المراد بقوله : " واستعلن من جبل فاران " هو ابتعاثه رسول الله صلي الله عليه وعلي آله – لأن جبال فاران ، لا إشكال في أنها جبال مكة ، ولم تظهر عبادة الله عز وجل وتسبيحه وتهليله وخلع الأصنام ، والأنداد بمكة ظهور انتشر في الآفاق ، وتحمله الركبان إلا برسول الله – صلي الله عليه وعلى آله وسلم – وظهوره من ساعير لم يكن إلا بعيسي – صلي الله عليه –وفي ذلك ثبوت أن هذه البشارة كانت بشارة النبي – صلي الله عليه – لأنه لو جاز أن يقال ذلك في موسي وعيسي –صلي الله عليهما – لجاز في محمد – صلي الله عليه .

وأنت إذا تأملت الأوصاف التي ذكرناها وبيناها ، وجدت جميعها في رسول الله – صلي الله عليه – وصفا وصفا . فيتبين لك : أنه الموصوف بها . فإذا ثبت ذلك ثبت أنه المشير بها . لأن خلاف ذلك مما لا يجوز في حكمة الله الحكيم – عز وجل .

الباب الرابع

ذكر ما قيل في أمره صلي الله عليه علي سبيل التأكيد

إعلم أن الفصول التي نذكرها في هذا الباب من العلماء من ذكر كثيرا منها علي سبيل الاستدلال ، علي صحة نبوته – صلي الله عليه وعلي آله – وإن كـــان الأوضح أن ذكرها ، علي سبيل التأكيد والإيضاح ، لما تقدم من الأدلة والبـــراهين أولاً .

وإن كان ما ذهب إليه أولئك العلماء – رحمهم الله – ليس ببعيد .

فمن ذلك ، ما اختص به – صلي الله عليه وعلي آله – من الأحوال التي اجتمعـــت فيه علي وجه لم يصح أنه اجتمع في أحد ، علي ما نقل وذكـــر ، كـــالحكم الـــذي رسخ فيه – صلي الله عليه وعلي آله – فإنه من مولده إلي مبعثه ، والي أن اختار الله – جل وعز – له دار كرامته مع اختلاف الأحوال عليه ، وتقلب الأمور لديه ، ومباشرته ما باشره من دعاء أعدائه إلي الدين مع غلظـــتهم عليـــه ، وإظهـــارهم الجفاء له من كل وجه أمكنهم ، ووجدوا السبيل إليه لم يقع منه ما ينسب إلي الحدة ، أو يعد من الخفة ، أو يجري مجري النزق والطيش .

ومن تتبع أخباره – صلي الله عليه وعلي آله – وأحواله : عرف ذلـــك وتحققـــه . هذا مع أن أحدا ممن ادعي الحلم . وانتسب إليه . لم يخل في كثير مـــن الأوقـــات مما يجري مجري الحدة ، والنزق ، كأحنف ابن قيس ، ومعاوية – وغيرهما ، فقد حكي علي كل ، ولكل منهم أمور منكرة من ذلك .

ثم اختص – صلي الله عليه – مع ذلك بالصبر في مواطن الجزع ، علي وجـــه لم يسمع بمثله لغيره فقد جري عليه في أول مبعثه – صلي الله عليه وعلي آلـــه – ما لا يخفي علي حامل أثر ، ولا ناقد خبر ، من الأذي ما يطول ذكره ، ثم جـــري علي عمه حمزة بن عبد المطلب رحمه الله عليه – بمرأي منه ومسمع ، وجـــري عليه – صلي الله عليه وآله – في نفسه يوم أحد من الكفار ما جـــري ، وجـــري عليه من المنافقين قبل ذلك وبعده ، ما هو مشهور عند أهل الآثار . ومع ما كـــان يقاسيه من الضر والجوع ، ويقاسي معه أهل عنايته وهو في أثناء نكد الأحوال لم

ينفد صبره ساعة من حياة ، ولم يظهر لأحد ضيق صدره ، ولا جزع لشئ من ذلك .

ثم كان صلي الله عليه وعلي آله من الوفاء بحيث لم يدع عليه عدو مكاشح، ولا منابذ مكافح خلاف ذلك لظهور الأمر فيه ، ثم انضم إلي الزهد الخشن . الذي لم يرتب فيه ،فأنه – صلي الله عليه وآله – ملك العرب . وأقصي اليمين إلي أقصي الحجاز ، وإلي عمان ، ثم توفي – صلي الله عليه وعلي آله – ولم ينقل أنه ترك عينا ولا ورقا ، ولا كان بني دارا ، ولا شق نهرا ، ولا استبقي عينا ، واستأثر الله به ، وعليه دين ، وكفن – صلي الله عليه وعلي آله – في ثيابه التي كان يعبد الله فيها .

وحاله في ذلك أجمع كانت مشهورة عند أوليائه وأعدائه لم يختلف فيه اثنان ، ثم كان مع ذلك أشد الناس تواضعا ، كان يأكل علي الأرض ويجلس عليها ويلبس الخلق ويمشي في الأسواق ، كواحد من العامة ، ويجالس المساكين ، وروي أنه كان يقول :" أنما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد . وأشرب كما يشرب العبيد " ثم كان مع ذلك أشجع الناس ، وأقواهم قلبا ، وأثبتهم وأشدهم جماحا ، مافر قط ، ولا خاف ، ولا كان منه ما اتفق للشجعان من حوله ، أو قوته .

ويوم حنين ، لما ولي أصحابه مدبرين ، ثبت هو الثبات الحسن في نفر من عترته ، حتي رجع إليه أصحابه ، وأظفره الله علي أعدائه ، ويوم أحد لما شاع في أصحابه القتل الذريع ، وجري علي حمزة – صلي الله عليه – ما جري ، ثبت أحسن الثبات ،ولم يول القوم دبره ، ولم يقف موقفا مع قلة تجلد أصحابه وكثرة أعدائه ، إلا ثبت ، ولم يعرض له فيه اضطراب ، ولا عجز ، ثم انضاف إلي ذلك كرم عفوه ، وعظيم صفحه ، مع كثرة الأعداء عليه ، فأنه – صلي الله عليه و علي آله – لم يقف من أحد ، ولا وقف مع أحد موقف المغتابا الحنق ، بل كان يعفو ويصفح ، ثم لا يتتبع ذلك منا ولا أذي ، ولا يفسده بتنغيص أو تكدير وأظهره الله بأبي سفيان بعد تمثيله بعمه حمزة – عليه السلام– وبذله الواسع في معاداته ، فلم يلقه إلا بأحسن صفح وأكرم عفو ، وتجاوز عنه أحسن التجاوز ، ولما أظهر الاسلام أكرمه بقوله : " من دخل دار أبي سفيان فهو آمن " ولم يشف غيظه من

أحد من أهل مكة ،مع ما كان منهم – صلي الله عليه وعلي آله – وإلي أصحابه من الأسباب القبيحة ، وطلبهم دمه ، ودماء أصحابه ، وتسفههم عليه وعليهم ، ولم يكافئ أحدا منهم علي سوء صنيعه ، وقبيح فعاله ، ولم يعاتب أحدا منهم علي ما كان منه ، ولم يوافقه عليه ، وقال لما قام فيهم خطيبا : " أقول كما قال أخي يوسف – صلي الله عليه :" لا تثريب عليكم اليوم . يغفر الله لكم "

ثم انضاف إلي ذلك حسن العشرة ، مع القريب والبعيد ، والولي والعدو ، وخفض الجناح ، ولين الجانب وبعده عن الغلظة ، والفظاظة ، كما قال الله – عز وجل :" ولو كنت فظا غليظ القلب ، لانفضوا من حولك " .

فتأمل رحمك الله ، هذه الخلال التي خصه الله بها ، وأبانه بفضائلها دون الناس كافة ، فتنبه ذلك علي أنه – صلي الله عليه وعلي آله – مراد لأمر جسيم ، وخطر عظيم ، كما قال الله عز وجل : " وأنك لعلي خلق عظيم " وقال : " والله أعلم حيث يجعل رسالته " .

ومن ذلك ما اشتهر وعرف من أحواله – صلي الله عليه وعلي أله – أنه لم يكن في مولده ومنشأه وخروجه إلي ناحية الشام – حين خرج – يخالط أهل الكتاب – ولا يشتغل بمدارستهم ومجالستهم ومجاراتهم ، وأن قومه الذين كانوا نشوؤه معهم ، وبين أظهرهم لم يكونوا يتعاطون شيئا من علوم أهل الكتاب ، بل لم يكونوا يعرفون شيئا منه ، فهو – صلي الله عليه وعلي آله – لم يفارق قومه في مقامه ، ولا ظعنه ولا شئ من أحواله ، ثم أنه – صلي الله عليه – أتي بالأقاصيص التي كانت في كتبهم من قصة إبليس([٤٨٣]) مع آدم – صلي الله عليه – وسائر أقاصيص آدم ، ومن بعده إلي قصة المسيح – صلي الله عليه – وسردها وتلاها ، علي ما في كتبهم ، ولم ينكر أهل الكتاب إلا يسيرا ، فكيف يجوز أن يكون عرف تلك . إلا من جهة علام الغيوب ؟

---

٤٨٣ – إبليس : هو اسم الشيطان ، وكلمة إبليس يقال أنها ذات أصل يوناني Diabolos ، ومعناها المشتكي، ويقال أيضا أن اسم إبليس مشتق من فعل أبلس من رحمة الله أي يئس، ومنه سمي إبليس بعدما كفر لاعتراضه على الله يقول تعالى " وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ : سورة البقرة (٣٤)

وكيف يرتاب في ذلك من علم من حاله ، أنه لم يكن يشتغل بعلوم أهل الكتـاب ؟ كما يعلم أنه لم يكن يشتغل بعلوم التنجيم والهندسة والفلسفة ، وهذا مما ذكره بعض العلماء علي سبيل الاستدلال به .

فأما ما ذكره علي سبيل التأكيد فمما لا مرية فيه ولا شبهة ، والحمد لله ، وقد نبـه الله عز وجل علي ذلك بقوله تعالي : " **وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذاً لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ** " ([٤٨٤])

ومن ذلك سلامة القرآن مما أتي به – صلي الله عليه – من الشرائع عن التناقض والتدافع ، واستمرارها علي طريقة واحدة ، وأنها لا تزدادا إلا تأكدا وبيانـا مـع الفحص والبحث وشدة التنقيب علي أحواله ، وكثرة ايراد أجناس الكفـار للـشبه ، وسيما الملحدة ، فانهم لم يدعوا شيئا يجوز أن يخرج في تعريف شبهة ، أو تخييل إلا قاموا به وقعدوا وأوردوا وذكروا طمعا في اطفاء نور الحق " **يَأْبَى اللّـهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** " ([٤٨٥])

وقد نبه الله جل ذكره علي هذه الحملة بقوله: " **وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنـدِ غَيْـرِ اللّـهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفاً كَثِيراً** " ([٤٨٦])

ومن ذلك . أنه صلي الله عليه كان من أول مبعثه إلي أن اختار الله له دار كرامته كان علي غاية قوة اليقين وانشراح الصدر والتشدد في الأمر الذي كان يدعو إليه ، والاستهانة بجميع أعدائه والمخالفين ، لا يني ، ولا يضعف متنه ، ولا تهن قوته ، ويخاطب قومه من السماء .

كما روي أن ذويه من قريش لما شكوه إلي عمه أبي طالب يلتمسون منه النـزول عما هو فيه من الدعاء إلي الله ، وسب آلهتهم ، وتسفيه أحلامهـم ، وبـذلوا لـه الرغائب علي ذلك . قال صلي الله عليه وعلي آله " لو جعلت الشمس فـي يمـين والقمر في يساري ، ما تهاونت فيما أدعو إليه " ثم استمر علي ذلك مع كثرة مـا

---

[٤٨٤] – العنكبوت : ٤٨

[٤٨٥] – التوبة : ٣٢

[٤٨٦] – النساء : ٨٢

لقي من الأذي والتكذيب ، وفي آحوال الخوف والرهبة من الأعـداء ، هـذا مـع حصافته وثبات لبه ،وأصابة رأيه .

ومن المعلوم : أن العاقل الحازم إذا عرف من نفسه أنه محترص في أمر يدعيه ، ومتحيل فيه ، وعلم أنه لا حقيقة لما يذكره ، ودفع مع ذلك إلي موافقة أعدائه له ، وامتحانهم أياه ، وبحثهم عن أحواله ، وتنقيرهم عن أسراره ، يلين بعـض اللـين ،ويستعمل بعض التملق في كثير من أوقاته ، بل عامة أحواله ، وأن خشن جانبـه في وقت تجلد الآنة في آخر ، وان أبدي الثبات وقوة الـنفس فـي حالـة . راوغ وداهن في أخري .

وأحواله – صلي الله عليه وعلي آله – جرت علي خلافه . فدل ذلك علي أنه كـان صادقا في قوله، واثقا بربه ، نافذا في بصيرته ، ماضيا علي المنهاج الواضـح – صلي الله عليه وعلي آله .

ومن ذلك . أن العرب لم تزل معروفة بالأنفة ، وشدة الحمية ، مـشهورة بـالتكبر والتعاظم ، ولذلك قط ، لم يجمعهم علي الطاعة ملك منهم ، ولم يخـضعوا لعظـيم من عظمائهم ، ولم يدينوا لأحد منهم ، خلاف سائر الأمم ، فأن أمة من الأمم لـم تخل من ملك منهم يصرفها ، وعظيم يدبر أمورها منها ، ولم يكـن ذلـك إلا لأن الجل من العرب ، كانوا يعتقدون من أنفسهم أحوالا من الكبرياء ، تمنعهم عن أن ينقاد بعضهم لبعض لعزة نفوسهم ، وقوة قلوبهم ، وظهور فضائلهم النفسية . ثـم دانوا لرسول الله صلي الله عليه – بالطاعة ، وخفضوا له جناح الذلة ، وخـضعوا تحت أحكامه ، وتصرفوا علي قضايا أوامره ونواهيه ، جارفين عاداتهم العادية – ومخالفين سجاياهم القديمة. ويجلون أن يكونوا فعلوا ذلك إلا لأنه – صلي الله عليه – بهرهم وقهرهم بحجته ، وقطع معاذيرهم ، بآياته المعجزة ، ودلالاته الواضـحة ، وهل يكون لنقض العادة ، إلا مثل ما اتفـق فـي أحـوالهم ، والخـضوع بعـد الاستكبار والانقياد بعد الاباء ، ولهم الاصابة والفهم البـين ، والـرأي الثاقـب ، والبصيرة ، الثابتة ؟

ثم رزق صلي الله عليه وعلي آله – ما لم ينقل أن أحدا من الأنبياء – صلوات الله عليه – رزق من الأصحاب الذين كانوا أعلاما ، مثله نحو أمير المؤمنين ، عليه السلام – الذي بهر بفضائله الكافة ، واجتمع فيه ما تفرق في غيره من المناقب والمحاسن .

فإن عد الفقهاء كان – عليه السلام – فقيها منعما ، وعالما مقدما ، وان ذكر الزهاد كان زاهدا خشنا ، قد طوي دون الدنية كشحا ، وأعرض عنها صفحا، وأن ذكر القرآن كان حافظا غير مدافع ، قارئا ، بل مقرئا غير ممانع ، وأن ذكر الشجعان كان شجاعا بطلا يكر ولا يفر ، ويقبل ولا يدبر .

ثم من دونه من العلماء وكبار الفقهاء مثل : عبد الله بن عباس ، في فقهه ، المتقدم في علمه ، وكان يقال فيه : أنه " رباني هذه الأمة " وعبد الله بن مسعود الفقيه الزاهد ، الذي قيل فيه : " كتف ملئ علما " وروي عنه أنه قال : أن في أصحاب محمد – صلي الله عليه وعلي آله – من يريد الدنيا ، حتي أنزل الله عز وجل : " منكم من يريد الدنيا ، ومنكم من يريد الآخرة " .

ثم زيد بن ثابت ، ثم معاذ بن جبل ، ثم عمر بن الخطاب ، الذي لم يشك في فقهه ، وعثمان بن عفان الذي لم يرتب في حفظه للقرآن ، ثم عبدالله بن عمر ، ثم حذيفة بن اليمان ، ثم الزهاد مثل : سلمان الفارسي ، فأنه مع زهده كان معدودا من الحكماء والعلماء ، وقال النبي – صلي الله عليه : " سلمان منا أهل البيت " .

ثم أبو ذر الغفاري ، الذي صعب علي الزهاد اقتفاء أثره في الزهد وعثمان بن مظعون ، وعمار بن ياسر ، إلي سائر أصحاب الصفة .

ولو ذكرنا فضلاءهم وعلماءهم زهادهم حتي نستوفي ذكرهم ، وشرعنا في وصف تدقيقهم النظر في الفرائض ، لطال الكتاب ، ولأدي ذلك إلي الخروج عن الغرض الذي قصدناه .

ثم أنهم حازوا هذه الفضائل ، بل وحصلوا هذه المآثر في مدة يسيرة ، لأنه لم يكن بين مبعثه – صلي الله عليه وعلي آله – وإلي أن اختار الله له دار كرامته ، غير ثلاثة وعشرين سنة .

فتأمل رحمك الله – ما ذكرت من أحوالهم ، وكيف بلغوا ما بلغوه في هذا الأمد القصير ، لتعلم أن ذلك كان بتوفيق من الله ، نبه به إلي نبيه المختار ، في صدق ما ادعاه ، بل لا يبعد أن يقال :" أن ذاك آية بينة ، ودلالة محققة .

ومن ذلك تخصيص الله – عز وجل – اياه – صلي الله عليه وعلي آله بالذرية الزاكية ، والسلالة الطاهرة ، فأنه منذ مضي الحسنان صلوات الله عليهما – وإلي يومنا هذا ، لم تطلع الشمس إلا علي عدة من فضلاء نجباء من أولادهما ، عليهم السلام ، يرشحون للامامة ، ويؤهلون للزعامة ، فيدعي أوليائهم وأصحابهم ، أنهم أفضل أهل الزمان ، ويسلم لهم أعداؤهم ومخالفوهم المنحرفون عنهم : أنهم من جملة الفضلاء . لأن الحسن – صلوات الله عليه – مضي عن الحسن بن الحسن وزيد بن الحسن وهما لم يشك في فضلهما ومضي الحسين – صلوات الله عليه – عن علي بن الحسين وهو الأوحد في علمه وزهده وعبادته وزين العابدين وحالته مشهورة ثم مضي هو عن نجباء مثل محمد بن علي الباقر العالم وزيد بن علي الشهيد وقد ورد في ذكرهما وفضلهما عن النبي صلي الله عليه ما ورد .

وعبد الله بن الحسن ، المشهور بالعقل والعلم وأخويه : ابراهيم ابن الحسن وغيره ، ثم كان بعدهم : أولاد عبد الله بن الحسن ، وهم نجوم يهتدي بهم ، مثل محمد بن عبدالله ، النفس الزكية ، وابراهيم ابن عبدالله ، وادريس بن عبدالله ، وموسي بن عبدالله ، كل منهم مشار إليه بأنواع من الفضل ومثل : جعفر بن محمد الصادق ، وموسي ابن جعفر ، ومحمد بن جعفر ، ويحيي وزيد والحسين بن علي ابن الحسين ، صاحب الفخ . وليس في هؤلاء – صلوات الله عليهم – إلا من ثبتت امامته ، أو صلح للإمامة.

ثم بعد هؤلاء : القاسم بن ابراهيم ، وأخوه محمد بن ابراهيم ، وعلي بن موسي بن جعفر ، وأحمد بن عيسي بن زيد ، وعبد الله بن موسي ابن عبد الله ، والحسن بن يحيي بن الحسين بن زيد ، وهؤلاء أيضا ليس فيهم إلا من كان اماما أو صلح للامامة – صلوات الله عليهم – وعلي هذا جرت أحوال هذه العترة الزكية قرنا بعد قرن إلي يومنا هذا .

فتأمل – رحمك الله – عجيب صنع الله في هذا الباب ، وتنبيهه علي عظيم محل رسول الله – صلي الله عليه وعلي آله – فأنك أن قسمت بني هاشم أجمع – وأولاد الحسن والحسين بطن منهم ، وهم آل عباس ،وآل أبي طالب من ولد عقيل ، وجعفر – ضممت إليهم أولاد علي – عليه السلام – من غير الحسن والحسين ، وهم أولاد محمد – صلي الله عليه وآله ، يعني ابن الحنفية – وعمر والعباس .
فهذه العترة الذين هم ذرية النبي – صلي الله عليه – لم تجد في الجميع من الفضلاء والنجباء ، ما تجد في هؤلاء – عليهم السلام – وإذا قاربتهم ببني أمية بأسرها ، بل جميع آل عبد مناف ، وهم قبيلة مثل بني هاشم في الكثرة ، أو يكونون أكثر منهم ، ثم قايست بينهم جميعا وبين ذرية الرسول – صلي الله عليه وعلي آله – فأنك لا تجد في جميعهم من الفضل ما تجد في هؤلاء .
ثم أزيدك بيانا . قس جميع قريش – وهم قبائل عدة – وبنو هاشم – قبيلة من تلك القبائل ، وأولاد الحسن والحسين ، بطن من بني هاشم ، بهم ، فأنك لا تجد في جميع قريش ، ما تجد في هؤلاء صلوات الله عليهم ، فليشرح صدرك ، أن الله جل وعز أكرم نبيه – بأن جعل في ذريته من الفضل ما لم يجعله في سائر القبائل ، مع كثرة عددها ، وقلة عدد هؤلاء ، ثم مع ذلك قد خصوا بحشمة في النفوس ، وثقة وهيبة في الصدور راسخة ، يشترك فيها أعداؤهم وأولياؤهم ، لا يمكن لهم دفعها عن أنفسهم ، وذلك مما لا يجوز أن يكون اتفق إلا بلطف من الله ، يلطفه لهم تعظيما لأمر نبيه – صلي الله عليه – وتنبيها علي عظيم محله –صلي الله عليه .

ومن ذلك ما اختصت به هذه الأمة من العلوم الجمة ، التي لم تختص بها أمة من الأمم ، فأن المتكلمين منهم عبروا في وجوه جميع المخالفين كالفلاسفة ، وفرق الثنوية من الدياصنية ، والمانوية ، وكاليهود والنصاري ، وأبروا عليهم ، ونصروا الحق ، حتي لا تجد أحدا من هؤلاء إذا ناظر متكلما من المسلمين إلا مجندلا مشهودا . ولا يكاد يجري معه شوط أو شوطين إلا أن يكون استعان علي علمه بشئ من كلام متكلمي الآسلام .

ثم الفقهاء الذين أصلوا أصول الفقه وفروعه حققوا وأتقنوا ، وبلغوا من بذلك المبلغ الذي لا تخفي مرتبته علي أحد من العلماء ، وليس لغير أهل الكتاب شئ منها ، فأنهم صنفان ، يهود ونصاري أما النصاري فليس لهم من الحلال والحرام ، إلا اليسير الذي لا يؤبه له ، فأنه يعولون في حوادثهم علي أحكام التوراة .

وأما اليهود مع كثرة التوراة ، فليس لهم من الفقه إلا ما يكاد يبلغ عشر عشر ما للمسلمين .

ثم القراء من المسلمين ضبطوا أصول القراءات ووجوهها ضبطا لا يحكي أقله عن أحد من أهل الكتاب ، ثم النحاة منهم ضبطوا الأعراب ،وفرعوا وأصلوا ، كما تري ، وليس ذلك إلي هذا الحين لشئ من الأمم ،ثم تأمل نقل أصحاب الحديث وضبطهم له ، واختصاصهم منه بما لم يختص به أحد من الأمم .

ومن ذلك استمرار دعواه ، وظهور شريعته – صلي الله عليه – وتطبيقهم شرق الأرض وغربها ، لا تزيدهم الأيام إلا قوة وبقاء ، ولا تكسبهم مر الأعوام إلا هدوءا وثباتا ، بل لا يحاول تضعيف شئ منها محاول إلا عاد مغلولا ، ولا غالبها مغالب إلا عاد مغلوبا ، ولا يعاديها معاد إلا قصمه الله وأهلكه ، حتي يجعل كلمة الذين كفروا السفلي ،وكلمة الله هي العليا .

فتأمل رحمك الله – بعد النطق في الأدلة التي ذكرناها ، والآيات التي بيناها ، هذه المحاسن التي اختص بها رسول الله – صلي الله عليه – في نفسه أولا . ثم ما أختصت بها ذريته ، عليهم السلام – ثانيا ، ثم ما اختص بها أصحابه ، ثم ما اختصت بها دعوته ثالثا . لتعلم أنه رسول مرسل ، ونبي مبتعث – صلي الله عليه – وأي عاقل يتأمل هذه المحاسن التي ذكرنا اليسير منها من جملة الكثير، فيخيل إليه الشيطان أنها أجمع : حصلت علي سبيل الاتفاق ، مع أن مثلها لم يحصل لبشر إلا خذله الله وأضله ، لعدوله عن طلب الرشد والهدي ، واتباعه الغي والهوي ، وهل يكون في نقض العادة ، أبلغ من أن يختص بشر ، بما لم يختص به أحد قبله ، ولا بعده ؟

تـــــــم الكتاب

والحمد لله رب الأرباب ، العزيز الغلاب " **ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا ، وهب لنا من لدنك رحمة ، أنك أنت الوهاب** "

صادف الفراغ منه : غرة شهر شعبان من شهور ســـنة إحـــدى وخمـــسين وخمسمائة ، و صلي الله علي رسوله محمد ، وعلي آله وسلم تسليما كثيراً .

مراجع التحقيق

- **القرآن الكريم.**
- **التوراة**
- **الإنجيل**
- **صحيح البخاري.**
- **صحيح مسلم.**
- **موطأ مالك.**
- **سنن أبي داود.**
- **سنن الترمذي.**

- إتحاف السادة المتقين، للمرتضى الزبيدي، المطبعة الميمنية، القاهرة، ١٣١١هـ/١٨٩٣م .
- أحكام أهل الذمة ، ابن قيم الجوزية ، ج١ ، تحقيق صبحي الصالح ، دار العلم للملايين ، ط٣ ، ١٩٨٣ م .
- أصول الدعوة ، عبد الكريم زيدان ، ط٣ ، دار البيان ، ١٩٧٦ .
- إظهار الحق ، رحمت الله الهندي ، ط٢ ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩٢
- الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٤م.
- الاستشراق في السيرة النبوية ، عبد الله محمد الأمين ، ط١ ، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، سلسلة الرسائل الجامعية ، ٢١ ، ١٩٩٧
- إستحالة تحريف الكتاب المقدس ، مرقس عزيز خليل ، ط ،٧ صادر عن الكنيسة القديسة مريم العذراء ، ٢٠٠٣
- الإسلام بين الشرق والغرب ، علي عزت بيجوفيتش ، ترجمة محمد يوسف عدس ، ط١، مؤسسة بافاريا للنشر، ١٩٩٤ م .

- الإسلام دين عالمي إنساني ، علي حسني الخربوطلي ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٩٦٦ م .
- الإسلام والحرب الدينية ، محمد عمارة ، دار المعارف ، القاهرة ٢٠٠٢ م
- الإسلام والحضارة العربية ، محمد كرد على ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٣٤.
- الإسلام والعرب ، روم لاندو ، ترجمة منير البعلبكي، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت ، ١٩٧٧
- الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التاريخ، للسخاوي، ضمن علم التاريخ عند المسلمين للمستشرق فرانز روزنثال؛ ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٠٣هـ .
- العواصم من القواصم : في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم ، أبو بكر بن العربي المالكي ، ط٥ ، مكتبة السنة ، ١٤٠٨
- أوائل المؤلفين في السيرة النبوية ، عبد الشافي محمد عبد اللطيف ،المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، سلسلة دراسات إسلامية ، عدد ١١٤، ٢٠٠٥ .
- تاريخ آداب اللغة العربية، جرجي زيدان؛ مراجعة شوقي ضيف، دار الهلال، القاهرة.
- تاريخ الأدب العربي بروكلمان، الترجمة العربية الكاملة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣-١٩٩٩م.
- تاريخ الأدب العربي (العصر الإسلامي) شوقي ضيف، ط٢٣ ، دار المعارف ، القاهرة ، ٢٠٠٥
- تاريخ الأدب العربي، للدكتور عمر فروخ، بيروت، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.
- تاريخ الإسلام في مواجهة التحديات ، أنور الجندي ، مكتبة التراث الإسلامي القاهرة ، ١٩٨٩ م
- تاريخ التراث العربي، فؤاد سزكين، الترجمة العربية، جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية بالرياض.

- تاريخ الحضارة الإسلامية ، أبو زيد شلبي ، ط١١ ، مكتبة وهبة ، القـــاهرة ٢٠٠٤
- تاريخ الرسل والملوك ، الطبري، نشر دار المعارف بمصر، ١٩٦٩ .
- تأملات في السيرة النبوية، محمود محمد عمارة ، ط١ دار الخير، بيـــروت ١٩٩٢م.
- التسامح في الإسلام : محمود حمدي زقزوق ، مجلـــة التـــسامح، العـــدد ١ ، سلطنة عمان العام ٢٠٠٣ م .
- الجانب التربوي للسيرة النبوية، منير محمد الغضبان ، ط١ مكتبـــة المنـــار، الأردن١٩٩١م.
- حضارة العرب، جوستاف لوبون ، ترجمة عادل زعيتر، دار إحيـــاء الكتـــب العربية، القاهرة ـــ ١٩٥٦ م، الطبعة الثالثة،.
- الحضارة الإسلامية ، علي حسني الخربوطلي ، دار المعارف ، القـــاهرة ، ١٩٧٧.
- حياة محمد، محمد حسين هيكل ،ج١ ، الهيئة المصرية العامـــة للكتـــاب ، ١٩٩٤
- دراسة تحليلية لشخصية الرسول ، محمد رواس قلعة جي ، ط١ دار النفائس، بيروت ١٩٨٨م.
- دراسة في السيرة، عماد الدين خليل ، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الدعوة الإسلامية دعوة عالمية ، محمد الراوي ، المؤسسة المصرية للتأليف ، ١٩٦٥
- الدعوة الإسلامية في عصر الصحوة ، أنور الجندي ،دار الفضيلة ، القاهرة ، ١٩٩٦.
- الدعوة إلى الإسلام ، توماس أرنولد ، ترجمة حسن ابراهيم حـــسن و عبـــد المجيد عابدين ، مكتبة النهضة المصرية ، ٢٠٠٦.
- الدعوة إلى الله ، جاد الحق علي جاد الحق ، ط١ ، دار الفـــاروق ،القـــاهرة، ٢٠٠٥ م .

- الرحيق المختوم ، صفي الرحمن المباركفوري ،ط ١٧ ، دار الحديث، القاهرة ، ٢٠٠٥ .
- الرسول القائد، محمود شيت الخطاب ، دار الفكر، بيروت ١٩٧٤م.

- الروض الأنف السهيلي، تحقيق عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .
- رياض الصالحين للإمام النووي ، دار الفيحاء للطباعة والنشر.
- زاد المعاد في هدى خير العباد، : ابن قيم الجوزية ،مؤسسة الرسالة؛ بيروت، ط٧، ١٤٠٥هـ
- سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، لمحمد يوسف الصالحي الدمشقي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- سنن أبي داود، ط ١، نشر دار الحديث، بيروت، ١٩٦٩م
- السنة في العقيدة والأخلاق والسلوك ، محمد الأحمدي أبو النور ، ط١ ، مطبعة عيسى الحلبي ،١٩٧٥
- سير أعلام النبلاء، للذهبي؛ لمجموعة من المحققين، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.
- السيرة النبوية ، ابن هشام، تحقيق السقا والأبياري وشلبي، ط البابي الحلبي، ١٣٧٥هـ.
- السيرة النبوية ، ابن كثير، تحقيق د. مصطفى عبد الواحد، وهي قطعة من البداية والنهاية.
- السيرة النبوية ، دروس وعبر ، مصطفى السباعي، ط١ ، دار السلام، ١٩٩٨
- السيرة النبوية ، علي محمد الصلابي ،عرض وقائع وتحليل أحداث ، ج١ ، دار الفجر للتراث ، ط١ ، ٢٠٠٣ .
- السيرة النبوية في ضوء الكتاب والسنة ، محمد أبو شهبة ، ط٢ دار القلم، دمشق ١٩٩٢م.

- السيرة النبوية في ضوء المصادر الأصلية ، مهدي رزق الله أحمد ، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية ، ط١ ، ١٤١٢ هـ - ١٩٩٢ م
- السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، مكتبة وهبة ١٩٨٨م.
- شرح العقيدة الطحاوية ،أبي جعفر الطحاوي ، ط٨ ، المكتب الإسلامي ، ١٩٨٤
- شمس العرب تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون وكمال الدسوقي، المكتب التجاري، بيروت ــ ١٩٦٤ م
- صحيح السيرة النبوية، إبراهيم العلى، دار النفائس، ط ٢، ١٩٩٦م.
- صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، ١٣٧٤-١٣٧٥هـ.
- الصحة لنفسية والعلاج النفسي ، حامد عبد السلام زهران ، ط٣ ، القاهرة: عالم لكتب ، ١٩٩٧
- الصراع مع اليهود ، محمد عبد القادر أبو فارس ، دار الفرقان عمان ١٩٨٩م.
- الطريق إلى صدام الحضارات ، أنور محمود زناتي ، مكتبة الأنجلو ، ٢٠٠٦ م.
- عالمية الإسلام ، شوقي ضيف ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٩
- عبقرية محمد (ص) عباس محمود العقاد نهضة مصر ، ٢٠٠١ .
- عظمة الرسول ، محمد عطية الأبراشي ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، ٢٠٠٢
- فقه السيرة، ابن القيم الجوزية ، ط٢ ، دار الفكر العربي ، بيروت.
- فقه السيرة ، محمد سعيد رمضان البوطي ، ط١ دار الفكر، دمشق ١٩٩١م.
- فقه السيرة، محمد الغزالي، دار الكتب الحديثة، الطبعة ٧، القاهرة، ١٩٧٦م.

- في ظلال القرآن ، سيد قطب ، دار إحياء التراث ، ط٧ ، بيروت .
- القاموس الإسلامي ، أحمد عطيـة الله ، مكتبـة النهـضة المـصرية ، ط١ ،١٩٦٦ م .
- في النفس والدعوة ، رفاعي سرور ، ط٢ ، القـاهرة: دار هـادف للنـشر والتوزيع ، ٢٠٠٥
- المجتمع الإسلامي والغرب ، هاملتون جب و هارولد بوين ، ج٢ ، ترجمـة أحمد عبد الرحيم مصطفى ، الهيئـة المـصرية للكتـاب ، سلـسلة تـاريخ المصريين ١٩٩٠
- ماذا يقول الكتاب المقدس عن محمد صلى الله عليه وسلم ، أحمـد ديـدات ، ط٢ ، دار المنار ، ١٩٨٩
- محمد واليهود، بركات محمد ،ترجمة محمود علي مراد ، الهيئة المـصرية العامة للكتاب، ١٩٧٧
- محمد في التوراة والإنجيل والقرآن ، إبراهيم خليـل أحمـد ، دار المنـار ، ١٩٨٩
- محمد الخليفة الطبيعي للمسيح ، أحمد ديدات ، القاهرة: المختار الإسلامي
- محاضرات في النصرانية ، محمد أبو زهرة ، ط٣ ، دار الفكـر العربـي ، ١٩٦٧
- مختصر تفسير ابن كثير، محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت.
- مختصر سيرة الرسول ، محمد بن عبـد الوهـاب ،ط١ ، مكتبـة الـسنة المحمدية، ١٩٥٦
- المدينة الإسلامية ، محمد عبد الستار عثمان ، سلسلة عالم المعرفة ، عـدد ١٢٨ ، سنة ١٩٨٨.
- معالم في الطريق ، سيد قطب ، الاتحاد الإسلامي العالمي
- مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم، أحمد بـن مـصطفي الـشهير بطـاش كبـري زاده، دار الكتـب العلميـة، بيـروت، ١٤٠٥هـ.

- من أخلاق الرسول ، حسين محمد يوسف ، مكتبة نور الهـدى ، القـاهرة ، ١٩٩١ م
- من رياض السيرة الطاهرة ، أبو الوفا المراغي ، المجلس الأعلـى للـشئون الإسلامية ، القاهرة ١٩٧٠
- منهج الإسلام في العقيدة والعبادة والأخلاق . أحمد عمر هاشم ، ط١ ، دار المنار ، القاهرة ، ١٩٨٥م
- موجز تاريخ العالم ، اتش . جي ، ويلز ، ترجمة عبد العزيز توفيق جاويـد ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، سلسلة الألف كتاب الثاني ، عـدد ٣١١ ، لسنة ١٩٩٩ .
- موسوعة التاريخ الإسلامي ، أحمد شلبي ، ج١ ، مكتبة النهضة المصرية ، ط١٥ ، ١٩٩٩ .
- موسوعة علم النفس والتحليل النفسي ، فرج عبد القادر طه ، وآخرون ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، ١٩٩٣
- النبي الخاتم ، عبد الغفار حامد هلال ،المجلس الأعلى للشئون الإسـلامية ، سلسلة دراسات إسلامية ، عدد ١٤١ ، القاهرة ، ٢٠٠٧
- نزهة الطلاب في مناقب الأصحاب، محيي الدين الإسنوي؛ تحقيق عبد العليم خان، جامعة عليكره، الهند، ٢٠٠٠م .
- نقد التوراة ، أسفار موسى الخمسة ، أحمد حجـازي الـسقا ، بيـروت: دار الجيل ، ١٩٩٥